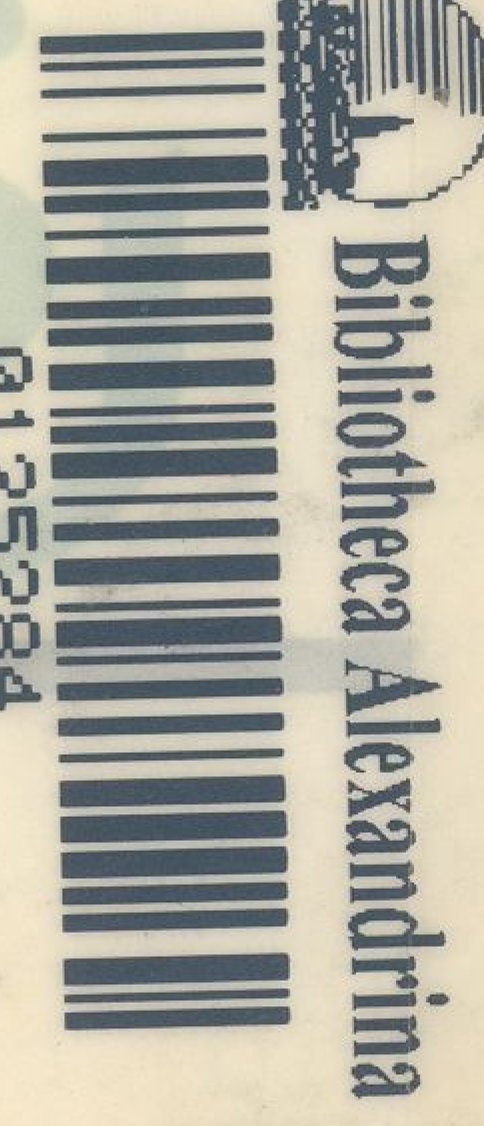
ماق السلاح

ملحمة الحب والحرب

محمد محمد النحاس


Bibliotheca Alexandrina
0125284

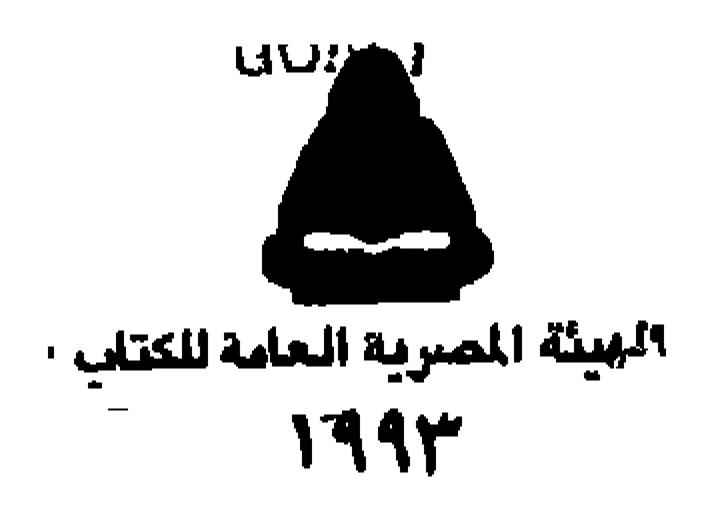
رفاق السلاح

من أدب الحرب

رِفاق السلاح

ملحمة الحب والحرب

محمد محمد النحاس



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٣

رئيس مجلس الإدارة :

ا . د سمير سرحان

رئيس التحرير :

جمال الغيطانى

مدير التحرير

سعيد عبد الفتاح

الغلاف

والتصميم الجرافيكى

للفنان : محمود الهندى

اهـداء ..

« إلى رفاق السلاح . . رفاق رحلة العمل والحب والحرب . . إنها رحلة العمر التى اختلطت فيها المشاعر بين الحياة والموت ، تماماً كما اختلطت فيها الدماء بالرمال المشتعلة ، بأشلاء الآدميين المترامية وبقايا السلاح المحترق ، بالأفق الملتهب المفعم بالسحب القاتمة .

لقد كان كل شيء يحترق داخل هذه البوتقة التى ينصهر فيها الجميع كوقود لحرب ضروس . . أشعلها هؤلاء الرجال فى صدور الـذ ئاب الضالة دفاعا عن العرض والأرض والشرف ، وبرغم النبت النامى على ضفاف وادينا الأخضر المكنون . »

المؤلف

تقديم ..

« لقد وقف العالم على أطراف أصابعه فى الخريف الدامى . كان الجميع مبهورين أمام العبور الكبير ، وهاأنتم يارفاق السلاح تقفون كالطود الراسخ أمام محـاولات الذئب الضـارى لإحداث شرخ أو ثغرة فى محاولة للالتفاف حول النصر العظيم .. »

محمد محمد النحاس

مقدمة ضرورية :

سقط توفيق رضا شهيداً ، وعاد المقدم هارون ندا « الباشا » بجثمانه سليماً كأن لم يمسسه سوء ، كان يصحبه آحاد فقط من المقاتلين الأشداء الذين بقوا من عشرات المقاتلين الذين تقدموا إلى مشارف العريش لإعاقة العدو ومنع تقدمه بسهولة بالضرب على أجنابه واصطياد دباباته بالصواريخ ومدافع الكتف (استريلا) .. سقط معظمهم شهيداً بعد أن أدوا مهمتهم على خير وجه ، وكان كل واحد من هؤلاء العائدين من المعركة يحمل وصية زميله الشهيد وأشياءه الشخصية ليسلمها لأهله بعد المعركة .

وأمام مقر القيادة المتقدم للفرقة ، كان الجثمان ملفوفاً فى علم الفرقة الأخضر ، وحوله اصطف رفاق السلاح من جنوده وضباطه ، فهمى الترك وهارون ندا (الباشا) والضفدع البشرى طائع النورى والملازم شافعى شاهين وأحمد السكاكى ضابط الاستكشاف الجرىء والمقاتل ذو الذراع الواحدة على أبو طبق وعريف أشارجى متولى الهادى وشوقى الدهان وغيرهم من سائر الرفاق الذين رافقوا الشهيد رحلة العبور والنصر تحت قيادته الفذة إلى أن كانت الشهادة .

تقدم العقيد أركان حرب الفرقة زاهر الريدى وألقى نظرة على الجثمان ولثمه ، ثم عاد ليقدم التحية العسكرية لقائد الفرقة العميد بدر ثم دق كعبيه فى الأرض وعاد إلى موضعه فى مقدمة المقاتلين .. فتقدم العميد الفذ بعد أن رقى إثر معركة الدبابات الشهيرة لواء وقائداً للجيش الثانى كله ، وألقى بدوره نظرة على الشهيد توفيق رضا وقبل وجهه ، ثم عاد أدراجه مستعرضاً طابور المقاتلين وقال :

ـــ لم يعد أمامنا خيار .. لن نتراجع مهما كانت التضحيات ، وليكن هدفنا دائماً هو حصار العدو أينما كان على أرضنا ثم قتله ، وهو هدف عزيز سقط فى سبيله شهداء أعزاء علينا وعلى رأسهم شهيدنا البطل المقدم توفيق رضا .. ذلك الرجل المقدام الشجاع فى كل موقف صعب كما عرفتموه ، لم يكن بالمقاتل الذى يدفع بعدوه نحوالانتحار فحسب ، بل كان يجود بنفسه ليحمى زملاءه ويؤمن سلامتهم ... هكذا كان شهيدنا ، وهكذا يجب أن نكون ... وعلينا أن نرفع الراية بعده ....

ورفع علم الفرقة ، وأشار إلى المقدم فهمى الترك ليتسلم القيادة مكان توفيق رضا الشهيد الذى تم ترقيته إلى رتبة « العقيد » مع منحه نجمة سيناء ووشاح النيل لتضحياته التى تفوق الوصف فأدى فهمى التحية وقبل العلم ثم بكى ، وأحس اللواء بدر بحرج الموقف ، فأمر الجميع بالانصراف ثم التفت إلى فهمى وقال فى حسم :

ـــ أمامك الآن مهمة صعبة .. عليك أن تعود بالشهيد توفيق إلى أهله ، أعلم أن أشق الأشياء على النفس هو مواجهة أهل الشهيد .. لكن لا مفر . هذا قدرنا ..

ـــ قتلناه بأيدينا . كان لازم يعود بسرعة ، ويترك هارون وقواته يعود بمعرفته . وبكى ، فربت اللواء بدر على كتفه وقال :

ـــ هكذا يكون القائد يافهمى . لسوف تحل محله قائداً للمجموعة وترى بنفسك .. عموماً أمامك ٧٢ ساعة تودع شهيدنا وترى أولادك وتعود فوراً ,

ـــ إنها منحة عزيزة ياسيدى القائد . لكننى لاأريد أن أفارق أولادى هؤلاء ..

ولم يدعه القائد يتمم مقاله ، قاطعه فى حسم :

ـــ إنه أمر . واعلم أن مقر القيادة سيعود حيث كنا .

ـــ فى الفرقة السابعة ؟

ـــ بل الفرقة ١٦ . عند مزرعة الجلاء .

ـــ هذه نقطة ميتة . لم يكن للعدو فيها أى نشاط طول الحرب .

ـــ بل نقطة فاصلة بين الجيوش ، بدأ العدو يدق فيها طبوله الجوفاء .

ـــ ألا يكون هدفه هناك تكتيكى .. يعنى مسرحى ؟ .

ــ لقد ودعت منذ مدة اللواء دكتور ميخائيل رومان ضابط عظيم الاتصالات بالمركز رقم (١٠) وأبلغنى بأن جهد العدو بدأ ينشط فى المحور الأوسط .

ــ تقصد أن العدو بدأ يتخير نقاط الضعف بين الجيوش لتحقيق أى انتصار ؟

ــ يبدو أن هذا هو الرأى الذى انتهت إليه القيادة .. وعلينا أن نسرع لسد الثغرة بين الجيوش هناك ، وحرمان العدو من نصر رخيص .

ــ إن العدو ينتحر بدخوله هذه المنطقة السبخة المالحة .

ــ وماذا تنتظر من يائس ؟ ..

ــ الزمن بيننا .

ــ إذهب الآن . ودع اخاك توفيق إلى مثواه الأخير وعد إلينا فوراً .

ــ هنا ياسيدى ؟

ــ بل هناك .

وكان الموكب الجنائزى الذى يحمل جسمان الشهيد ملفوفاً فى علمه ، على بعد خطوات فى انتظار المقدم فهمى الترك ليبدأ المسير ، تبادل الرجلان النظرات وكادت عيونهما تدمعان ، وبسرعة استدار الترك بعد أن أدى تحيته العسكرية لقائده وجرى إلى العربة ليمضى فى طريق العودة .

الفصل الأول

الوداع الأخير :

وقف فؤاد رضاً فى شرفة الأسرة مبكراً على غير العادة فى هذا الصباح من شهر اكتوبر ، يشهد الأمطار وهى تهطل بغزارة على القاهرة ، كان قلقاً طول الليل ، ظل السهاد ملازماً له حتى مطلع الفجر ، وعندما أحس بحركة أمه فى الصالة تستعد للصلاة ، تحرك من فراشه فلم تحس به زوجته التى كانت مستغرقة تماماً فى نوم عميق ، ولما فوجئت به أمه ، ابتسمت ابتسامة باهتة وقالت :

ــ ليست عادتك أن تصلى فرض الفجر حاضراً .

فقال وقد اعتلته مسحة الهم :

ــ هو القلق ياأمى ..

فأسرعت الأم إليه تمسح ظهره :

ــ الله خير حافظ وهو أرحم الراحمين .

ــ حلم ياأمى . كابوس أخذ منى كل الجهد وروعنى روعاً شديداً .

ــ أعوذ بالله ياولدى . استعذ بالله وتفل عن يمنيك وشمالك ، وقم إلى الوضوء فالصلاة ، يخلف الله لك الظنون .

ــ المشكلة أننى لم أعد أتذكره رغم معاناتى واجهادى أثناء النوم عدة مرات فقامت إليه المرأة ترقيه بالأدعية وتتلو عليه المعوذتين والصمدية حتى قام إلى صلاته مهموماً ، فإذا انتهى منها أحس ببعض الراحة ، فختم صلاته فى تؤدة مستغرقاً فى دعاء جارف أخذ بكل لبابه ، وعصف له قلبه ودمعت له عيناه ، لقد تذكر أخاه الأصغر توفيقاً ، وهو لازال فى إستغراقه سمع الأم فى صلاتها تدعو له

بالسلامة والنصر مع زملائه ، وكان صوت المذياع قد بدأ فى نشرة الأنباء الأولى فى السادسة صباحاً فمر مروراً عابراً على الأخبار السياسية والاجتماعية ، ثم فى نبأ مقتضب عن معارك الجبهة والتطورات التى استجدت على ساحتها بتدخل امريكى سافر ، فاستعاذت الأم من الشيطان وأمريكا ودعت على اليهود بالوبال والنصر لأمة لا إله إلا الله ، بينما تسلل فؤاد إلى الشرفة لينفس عن نفسه ، وقدراعه لأول وهلة منظر الأمطار كالسيول التى تتعرض لها القاهرة حيث تتساقط بغزارة ملفتة للنظر فتخلف وراءها بركاً ومستنقعات فى الشوارع بين جيوب الأسفلت الذى اختفى من سنين تحت وطأة الزمن والاهمال وأعمال الحفر المستمرة فى الشوارع . وبدت السيول تتجمع وسط الشوارع والأزقة بارتفاع قد يصل إلى شبرين ، أما الأوحال فقد تراكمت على أطوار الشوارع والحوارى فمنعت السابلة من الحركة إلا من أرغمته الضرورة على الخروج .

كان الضباب كثيفاً ، والسيارات تسير فرادى نادرة ـ فى هذا الوقت من الصباح الباكر ـ فى تؤدة وعلى مهل شديد حتى تستكشف طريقها رغم الضوء الذى ترسله من كشافاتها من الأمام والخلف قد علاها الماء العكر والوحل ، بينما تناثرت بعض السيارات المعطلة فى أماكن متفرقة على امتداد النظر حيث وقفت عاجزة أمام ركام الضباب وخيوط المطر الثقيلة .

ووسط هذا الجو الثقيل بضبابه وامطاره وأوحاله : كانت هنالك سيارة قاتمة اللون تمخر عباب مياه الأمطار والمجارى الطافحة وسط الشارع فى إصرار يلفت النظر ، فدفق فؤاد رضا فيها وقد انقبض صدره ، وتلاحقت أنفاسه ، واقترب من سور الشرفة حتى التصق به ... فإذا بمقدمتها الغطساء الترابية اللون تنبىء عن هويتها من الحرس الخاص برئاسة الجمهورية بزيه الخاص بالتشريفة والأحزمة والنياشين تطل من مؤخرتها ولكنه تشاءم من العلم الذى إلتف على مقدمة السيارة ، وظل مشدوداً إليها وهى تقترب حتى وجدها تتوقف أمام مدخل البيت ويهبط منها ثلاثة ضباط بلبس الميدان ، بينما بقى جنود التشريفة داخل صندوق العربة ، وقبل أن يفتح فؤاد رضا الباب متوجساً : كان الزوار أسرع إلى طرقه فى نقرات خافتة عجلة ، ولما فتح الباب بادروه بالسلام ، فتسمر مكانه وقد قرأ فى

وجوههم نعى أخيه ، وقبل أن يترك لهم مقبض الباب كانت أمه تهرول نحـوهم مستفسرة وهى تصيح :

— إبنى ! أين ابنى ؟

وما هى إلا لحظات حتى عبرت الصرخة أرجاء الشقة ، وكل أفراد الأسرة كباراً وصغاراً يتحلقون حول الزوار فى ذهول ، أما حياة ـ زوجة توفيق رضا ـ فقد بدت وجلة صامتة وقد جحظت عينها واحمرت بلا سبب ظاهر ، وراحت أطرافها الباردة ترتعش وقد خانها لسانها فلم يعد قادراً على أى كلام ، فنظر إليها فهمى الترك بعيون إغرورقت بالدموع المحتبسة التى لم يعد قادراً على كتمانها وصاح هامساً لها بأصبع مهزوزة .

— حياة ... مدام حياة ! أليس كذلك ؟

فهزت له رأساً ملتاعة ونظراً مشوشاً لم يعد يرى أمامه شيئاً ... فأغمض عينيه مواصلاً :

— لشد ما تعانيه من حسرة على الفقيد ... لم يكن لسانه يكف عن ذكرك والتغزل فى أفضالك عليه . لقد كان حبه لك والطفل جارفاً .. أين الطفل ؟
وهنا صاح فؤاد بلهجة المنكر رغم الحقائق التى تحاصره بوجود الجثة اسفل الدار :

— توفيق ؟!

و غرقت الدار فى صراخ وعواء ، بينما تمددت الزوجة مغمياً عليها فحملوها إلى سريرها إلى جوار وليدها ، فأتاح ذلك لفهمى الترك أن يكشف النقاب عن وجه الصغير فبدا صبوحاً أمامه ، بريئاً غير عابىء بما حوله ، اشبه شيئاً بوجه ابيه الذى أحبه ، فأقبل عليه يحتضنه ويقبله وهو يتمتم :

— لم تمت حقاً ياتوفيق ، هذا الشبل هو توفيق بعينه .

ثم اخرج من جيبه تميمة كان يحتفظ بها توفيق أينما حل أو سار تجلب له الحظ ، وعلقها فى هدوء على صدر الوليد ، فلاحظ نظرات الأم المتابعة له ، فمسح عينيه وقال لها :

ـ كنا أخوين . وهاك وصيته . وتلك هديتك من المرحوم ، ما أحراها أن يرثها الصبى .

ومد يده لها بحافظة جلدية فيها كل حاجياته وأوراقه ووصيته ، فدستها بيد واهنة تحت الفراش دون أن يلحظ أحد ، ثم همست له وهى تقبل مخلفاته :

ــ هل قال لك شيئاً ؟ كيف مات ؟ هل تألم ؟

ــ إنه استشهد وكان بطلاً ، وهذا مايجب أن تلقنيه للرضيع عندما يكبر . إن البكاء عليه يشقيه ، وجدير بنا نترى أفاعيله العظيمة .

فقالت حياة بصوت واهن :

ــ لن يجدى البعد عنه شيئاً. إن الخسارة فيه لا يدانيها مصاب .

ــ ليتولانا الرحمن ويرفق بنا بنعمة النسيان .

ــ لا .. لن أنساه ما حييت .

ودفنت رأسها تحت الوسادة وانخرطت فى بكاء شديد . أما الرجال فقد تقدموا فؤاداً والجيران الذين تجمهروا داخل الشقة ، بخطوعسكرى بطىء وبدأت العربة سيرها الجنائزى ، وقد ظهر النعش ملفوفاً فى علم الثورة ذى الألوان الثلاث مقطوراً وراء العربة ووراءها سيل من المشيعين الرجال بعد أن حُجب على النساء الخروج ، وخاض الرجال الوحل والتاسوا بمياه الأمطار حتى الحزام ، بينما تعرضت العربة لعدة حفر خبيثة كادت توقع بالشهيد إلى الأرض ، إلى أن وصلت إلى مستنقع غُرست فيها اطاراتها ، وعز عليها بعدها المسير ، واضطر الرجال إلى خوض الأوحال لدفع عجلات السيارة أمامهم فاهتزت مرات ومرات لتعود إلى سابق وضعها أسفل الحفرة حتى أخذ الجهد من الرجال فى عز البرد ، وظلوا على محاولاتهم دائبين حتى قدر لها أن تخرج من كبوتها أخيراً ، وهنا وافق الرجال على اقتراح كان الجنود قدتقدموا به مراراً لأهل الشهيد وُرفض فى كل مرة ، مؤداه أن يتركوا العربة بمن فيها مع الشهيد إلى مقره مسرعة على أن يوافوها بسيارات الأجرة أو التاكسى . وورى الشهيد المقدام الفاقد توفيق رضا إلى مقره الأخير ، حيث رفض الأخ الأكبر قبول العزاء حتى تنتهى الحرب ، وأغمض عينيه وسار هائماً على وجهه فى خطو ثقيل حتى جاءه صوت حميه والد حياة ، فاحتار أيعزيه فى

زوج إبنته لم ينتظر منه العزاء فى إبنه وأخيه ! وعلى العموم فقد خفف عنه الرجل وهو يضغط على يديه :

ــ الأمر لصاحب الأمر . لكل منا ساعته ، ولو أننى كنت اتمنى على الله أن يكون هو من يتقبل عزائى ..

وبكى الرجل وقد اختال ابنته الثكلى ورضيعها البرىء الذى لن يرى والده أبداً ، فربت فؤاد براحته على ظهر الرجل وتمتم :

ــ أمد الله لنا فى عمرك ياأبا حياة ..

ــ أتواسينى أم تواسى نفسك ؟

ــ كلنا يستحق المواساة ، فالظرف صعب والفقيد غال على أهله وأحبائه .

وسارا بين الناس صامتين ، كأنما يحملان على ظهرانيهما عبء أحزان مئات السنين ، لم تكن بفؤاد رغبة فى العودة إلى البيت الذى شهد مولد أخيه الصغير الذى رباه كابنه ، ورعاه كأخص نفسه ، كان لا يطيق أن ينظر إلى وجه أمه المحزون الكظيم ووجه حياة ــ زوجة أخيه ــ التى أثقل كاهلها الغم والهم .

وفاجأه الشيخ درديرى ــ تربى المقابر ــ :

ــ من كان مثواه الجنة شهيداً ، فلا بأس أن نقيم له الأفراح لا أن نجتر عليه الأحزان .

ــ لله درك ياشيخنا .. إنه حقا لمصاب ! .

وسأله والد حياة :

ــ ماذا تنوى بشأن سرادق العزاء ؟

ــ ممنوع إقامة السرادقات لظروف الحرب ، وخاصة الشهداء .

ــ إذن فهى الأوامر وتعليمات الطوارىء .

ــ ليس بعد الفقيد فقيد . والعزاء هنا على المقبرة . .

وتوالت الأيدى الممدودة للمواساة حتى فتر رسغه وتراخى ، ولم ينقذه سوى جاره الشيخ عبد الجواد ، الذى التقطه داخل سيارة معلناً بصوته الجهورى :

ــ لم يعد أحد بالمقبرة . حان موعد الرحيل عنها .

وصعد وراءه نسيبه ، وجلسوا جميعاً صامتين حتى احتوتهم شقة الشيخ عبد

الجواد واجتمع أهل الدار والناحية حول مقرىء بدون مكبر للصوت ، واعتذر رب الدار عن ذلك وقال :

ـ الظرف صعب ، والجرح عميق فى إبننا العزيز الغالى ، ولكنه ياسادة ليس عزيزاً على ربه ووطنه فهو فداء لنا جميعاً . لتحيا مصر الأم والوطن ، وكلنا نتمنى على الله أن يمن علينا بهذه الشهادة الغالية ، خاصة مع الأنباء السارة على الجبهة مع أولاد صهيون ، ولقد سمعت أن إبننا توفيق كان قائداً مقداماً وجسورا ، حارب مثلى بشجاعة أيام كنت أحاربهم ـــ أولاد العاهرة ـــ فى حرب فلسطين الأولى ولكن توفيقاً وفقه الله بالنصر ، وأعز بشهادته جنوده ليعودوا بأكاليل الغار ، فليكن هذا عزاؤنا فى المرحوم وسلواننا على فقده ..

وقاطع الرجل صرخة امرأة على السلم فى طريقها إلى الدور العلوى بشقة توفيق ـــ فتوقف عن الاسترسال ، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وكل النساء وصرخ محتجاً :

ـــ ليس هذا من الدين فى شىء . لعن الله المولولات من النساء .

ثم تجشأ فقال له الشيخ درديرى :

ـــ لهن العذر ، فالقلوب مكلومة ، وعيونهن كليلة بالأحزان . فلنستمع لآيات الذكر الحكيم تعيننا وتسلونا الهم والغم والكرب العظيم .

فاستحسن الجميع مقاله وشجعوا الشيخ المقرىء بصمت ثقيل ، قطعه الشيخ بصوته الجهورى الرخيم ، وكيما بين الفواصل انخرط المعزون فى حديث عن الحرب والسياسة ، وكان الشيخ عبد الجواد أكثرهم تبيانا للموقف فقال :

ـــ لقد دوخ أولادنا ابناء جولدا وأتباعها ، ويد الله فوق أيديهم .

فتنحنح سيد الشربتلى صاحب محل العصير على ناصية الشارع وقال :

ـــ أخبار المعركة مطمئنة ، والجيش الثانى استولى على « القنطرة شرق »

وهمس فؤاد رضا لنسيبه والد حياة قائلاً :

ـــ عرفت من الزملاء أن المرحوم وصل بعد يومين ثلاثة من الحرب إلى الممرات وركبها مع زملائه ، وقد أبادوا ثلاثة فيالق اسرائيلية ودمروا مستعمراتهم داخل تحصيناتهم وقلاعهم على خط القناة .

فعقب وهبة السمان العجلاتى بحارة المغاوير ، من خلال نوبات السعال :
حطموا خط بارليف ، فحطم الله به قلوب اليهـود ، وفرق جمـوعهم وشتت شملهم .

فصاح الترب بعد إغفاءة :

ـــ لله الأمر من قبل ومن بعد . وحدوه .

فعقب الشيخ عبد الموجود .

ـــ لقد انبرى لهم الزعيم فى غضبة عارمةً ، فحق له أن ينتصر بإذن الله .

فرد وهبة محاجياً :

ـــ إنه التخطيط المحكم والتدريب الشاق والعودة إلى الله قبل كل شىء .

فصاح سيد الشربتلى .

ـــ صدقت والله وهى العودة إلى الله ولا شىء سواه .

فزفر الشيخ الدرديرى نائما ومعقبا وهو يغط فى نومه :

ـــ لاإله إلا هو . كل شىء هالك إلا وجهه .

فتمتم والد حياة فى سره والدموع تتألق على وجنتين مشر بتين بالحمرة :

ـــ صدقت والله .

ولم يستسلم الشيخ عبد الجواد ، فنسى المناسبة وانبرى يشرح وجهة نظره :

ـــ كنا نحارب عام ١٩٤٨ والزناد فى يد فاروق الخائن ، والآن يحارب الاولاد وزنادهم بأيديهم ، بفضل من الله والثورة المباركة وما حققـه الزعيم من انكـار الذات ، ووقوفه بكل الشجاعة والاصرار فى وجه أعداء الله .

فتمتم الشيخ الدرديرى :

ـــ رحم الله الأولين والآخرين .

وصاح سيد الشربتلى :

ـــ لقد اعاد بناء الجيش ثلاث مرات ، بعد الثورة مرة ، وبعد حرب بورسعيد مرة وبعد النكسة مرة ثالثة .

فعاد وهبة السمان يحاجيه :

ـــ بل قل الوكسة والله المستعان .

فرد الشربتلى الصاع صاعين :

ــ كانوا غارقين فى حرب اليمن حتى النخاع ، وانتهزتها اسرائيل وعملتها أمريكا ، وهاهم قد ابتدروهم ثانية ليغسلوا العار ويلحقوا بعدو الله الشنار .

وتساءل الشيخ عبد الجواد :

ــ وهل تظنون أن أمريكا ستسكت ؟

فرد الشيخ درديرى معقباً :

ــ الله معنا . الله أكبر فوق الجميع .

ومر النادل ـ صاحب كراسى الفراشة ـ بالقهوة السادة ، فارتشفوا منها على مهل وهم يتسامرون حتى كب الليل ، وسادت الظلمة ، فراحوا يستأذنون فرادى ، وطنّ الصمت وبدأ عامل الفراشة فى جمع كراسيه ، وبدأت الحركة تهدأ فى الشقة العلوية بعد يوم طويل مرهق بين النسوة ، وانتحى فؤاد رضا بالمعلم مرتضى الدهل صاحب وكالة الفراشة بالحافظية وهمس له :

ــ طلباتك ياحاج ..

وأخرج حافظته ينقده ايجار الكراسى ، فأزاح الرجل قبضته بالنقود وهو يواسيه :

ــ ضع فلوسك فى جيبك ، واطلب الصبر والسلوان من خالق الليل والنهار .

ــ لا ياحاج .. أكل عيشك ، وهذا مبلغ بسيط .

ــ لابسيط ولا كبيس . المصاب مصابنا والمولى يرعانا . كان الله فى العون .

وأبى الرجل أن يأخذ مليماً واحداً لقاء فراشته معقباً :

ــ والله لو أصلح للحرب لتطوعت فيها ، لقد ضحى بنفسه من أجلنا ، أفنبيع له وداعنا ! كلا والله .

وبكى الرجل منسحباً فى هدوء ، مخلفاً وراءه عيون زابلة أدماها الدمع فاحمرت الجفون وحفرت قنواتها على صفحة الوجوه .

وفى الشقة العلوية لفؤاد رضا ، امتدت الأسمطة للمعزين النازحين إليهم من

الأرياف من ذوى القربى على الصوانى النحاسية فوق الطبالى ، عامرة باللحوم والدواجن وشتى صنوف الطعام الأخرى ، وقد تناسوا كلمات المواساة بعد أن

ملوا تكرارها طول النهار ، والآن فقد شمرت ربة البيت عن ساعدها لتهىء لمعزييها الغرباء عن القاهرة طعام العشاء المفتخر ، ومنامة لكل منهم ، وكان على فؤاد رضا وحميه أن ينقل الرجال إلى شقة خالته بالعباسية ، وهى مقر المرحوم مع زوجته — على أن تبقى النساء فى شقته وشقة نسيبه والد حياة .

وعندما فرغ فهمى الترك من واجب العزاء ، استأذن فى الانصراف ، وكان فهمى قد شارك فؤاد رضا كل الأعمال ، فشاركه فى تشييع الشهيد القائد والصديق إلى مقره الأخير فى جبانة المجاورين ، ووقف إلى جواره يستقبل واجب العزاء ، ثم عاد إلى الشقة معهم حتى آخر الليل ، ولم يتركهم حتى نام كل واحد منهم فى فراشه ، سواء فى شقة شبرا أو شقة العباسية .

واستقبل عربة أجرة إلى درب المناخلى بالخرطة الجديدة بمصر القديمة ، فدق بوابة الدار التى تتصدرواجهة الحارة ، فلم يسمع صوتاً ينبث على غير عادة أهل الدار ، فظروف الطوارىء ودواعى الحرب ألزمت الناس بيوتهم وقيدوا الاضاءة ، فأطفأ الناس كل الأنوار تضامناً مع رجالهم المقاتلين وسط معمعة الحرب وجحيم نيرانها ، وكانوا يتناقلون أنباء النصر بحب شديد وفخار ما بعده فخار ولكن الحياة فى طول مصر وعرضها كانت هادئة رتيبة كعادتها ، وبرامج الإذاعة والتليفزيون لا تغيير فيها عدا الخليع منها ، وأخبار الجبهة تأتى عادية ضمن نشرات الاخبار كل ساعة بصورة موثقة تعكس جهد الرجال وصدق العزيمة وتخبط العدو وانهيار خطوطه ، ولما وجد ظلمة وصمتاً لم يألفه دفع البوابة واستدل طريقه . خبرة ودراية معهودة منذ وسط جوش الربع . ومن خلال بصيص الضوء الهابط من النجوم ، رأى الفسقية القديمة التى كان يلعب عليها الأطفال وموضع السبيل تتدلى منه الحنفيات التى يستعملها أهل الدار ، ثم مطلع الدرابزين المفكك من أثر الزمن ببلاطاته المتآكلة ... وشيئاً فشيئاً انتزع نفسه إلى الدور العلوى حيث ترقد والدته وامرأته وأطفاله الخمس ، فهو صعيدى المولد من قفطٍ تعلم فى مدرسة أم المصريين بمصر القديمة وحصل على دبلوم المدارس الصناعية مقيماً مع ابن خاله فى هذا المكان العريق داخل الربع حيث الأجرة أرخص والجو شعبى يتوافر لمثله حياة شعبية رخيصة مترعة بالقفشات والضحكات والسخرية اللازعة ولما

جلا ابن خاله بعد تخرجه من الحربية ضابطاً انفرد بالمكان وتزوج فيه وأحضر امه بعد وفاة والده واشتغل بمصانع الطائرات مفتشاً للمحركات حتى حرب الأيام الستة فانخرط فى سلك المقاتلين وخاض حرب الإستنزاف وحرب العبور لتحريك الجيوش المصرية ومدرعاتها وآلياتها لركوب سيناء .

لقد مضى شهران قبل أن تطأ قدماه عتبة الربع ، ولولا هذه المهمة الرسمية الثقيلة على النفس لما كانت هذه الزيارة ، وعندما وقف على الباب أحست به الأم فصاحت فى ريبة منكرة :

ـ مَنْ بالباب ؟

ـ أنا ياأمى .

وبدأ النائمون يتنبهون على صورته قائماً بينهم ، فاحتضنته الأم باكية من الفرح لمرآه ، وتعلقت الزوجة برقبته غير مصدقة ، وقد انتابتها حالة بين التصديق وعدم التصديق ، بينما التف الصغار حول قدميه لبرهة قبل أن يجلس على السرير وهم من حوله ، يستفسرون تارة عن أحواله ، ويحكون له طرفاً من ظروفهم تارة أخرى ، وهمّ الجميع فى تحضير مالديهم من طعام ، فتذكر على التو أنه أحضر طعاماً شهياً من النيفة والكباب وطبق بسبوسة من محلات الشامى الكائن بجوار ضريح سيدى حسن الأنور ، وناول كل ولد لفة حلوى من نبوت الخفير وغزل البنات وبراغيت الست فظاطت الأولاد ، وأحدثوا ضجيجاً فصاح وهو يدفعهم عنه ليختلى بإمرأته التى جذبته إلى صدرها جذباً ، دونما مراعاة لأى محاذير :

ـ كفوا عن الصياح وإلا طُبقت علينا أحكام الطوارىء .

فصاحت الأم فى سذاجة :

ـ أعوذ بالله من الأحكام ياولدى ! . وهل نحن ارتكبنا جناية ؟ فافترت شفتاه عن بسمة محببة وقد عادت له روح الدعابة :

ـ خرقوا الطوارىء الأولاد بصوتهم العالى ياأمى ، ولو مر خفير درك لشك فينا وقال أن صوتنا علا على صوت المعركة !

فضحكت الزوجة من لهجته المحببة ، وعقبت الأم فى حسم :

ـــ والله ما أنا فاهمة شيء . قم وارتح فى سريرك .

فاستأذن وتبعته زوجته إلى الحجرة المجاورة ، وراح يتخفف من ثيابه العسكرية ويرتدى جلبابه ثم إلى فراشه مشدوداً إلى أحضان زوجته التى كانت إليه أكثر لهفة وأشد اشتياقاً . وقد أحس احساساً غريباً وهو بهيئته الجلباب المدنى فهتف :

ـــ ياه ... ما أشد غربتى فى هذا الثوب !

* * *

قبل آذان الفجر كان المقدم فهمى الترك يخترق حوارى الخرطة إلى مقام سيدى حسن الأنور حيث ربضت عربة من عربات الجيش فى انتظاره مع بقية المعزين من رفاق العقيد الشهيد توفيق رضا ، شقت الطريق بهم نحو الجبهة ، كان هو إلى جانب السائق بالكابينة ، وفى الخلف ربض بقية الرفاق وقد استسلموا لنوم عميق أنساهم متاعب الطريق وكبوات حفره بين صعود وهبوط ، حتى إذا ما أشرقت الشمس وفرشت أشعتها على الكون كان السائق يتحسس طريقه على ضفاف القناة ، وقد بدأ فى التهدأة وابراز أوراق المرور عند نقاط التفتيش بين آونة وأخرى ، إلى أن وصل إلى المواقع الجديدة عند البحيرات المرة عبر معابر القناة .

بمقدم فهمى الترك استقبله الجميع فى همة وهم يتضاحكون ، بينما انفرد الباشا به ليفوز بما لذ وطاب من الطعام البيتى الذى حمله الأخير أثناء الأجازة الخاطفة لتشييع جثمان شهيدهم ورفيق كفاحهم توفيق رضا .

وقبل أن يفتح الترك حقيبة الطعام ، إذا بطائع النورى يهبط عليهما كالقضاء المنزل ، ويجلس بين أيديهما . فصاح فيه الترك بلهجته المحببة :

ـــ الا تفوتك فائتة يابن النورى .

فصاح النورى : أنا كالقطط اجيء على رائحة الشواء ..

وشد منه بقجة مربوطة بإحكام ودفع إصبعه فى طياتها فإذا هى قد انفرط عقدها وانحسرت أطرافها عن بطة سمينة مجمرة وأرز وبطاطس محمرة وأرغفة بطاطى بيتية وبعض الفاكهة .. فصاح :

ـــ هذه والله وليمة العمر ..

فصاح فيه الترك ·

ـــ هكذا أفادتك خفة يدك ... وانتهيت من أربطة البؤجة فى لمح البصر .

ـــ مهما تقول ، فلن يغنى شيئاً عما هو أمامى ..

ونادى الباشا والترك كل المقاتلين ليشاركونهم هذه الوليمة الطيبة فى سعادة لا تدانيها سعادة ، ولكن الأمر لايخلو من الفكاهة ، فبعد الانتهاء من الطعام أصر الترك على تفتيش النورى الذى احتكم لزملائه فأقروا الترك على رأيه ، وقاموا جميعاً فكتفوه وفتشوه ، فإذا أجنحة البطة كلها مخبأة فى سترته ، فضحك الباشا عالياً وصاح فيه :

ـــ هذا حكم المهنة ولا لوم .

وزجره الترك قائلاً :

ـــ ألن تنسى أبداً أنك نورى يانورى ! .

فرد النورى مبتسماً :

ـــ طالما لم تنس الست أم فهمى بؤجها التى تعلمتها منذ كانت فى الصعيد !

فضحكوا وحكموا على طائع النورى بأن يقوم بتدبير عمل شاى سخن بعد هذه الوجبة المفتخرة ، فاستجاب صاغراً عن حب وهو يداعب قائده فهمى الترك ، ثم أسر لشوقى الدهان ، عن رغبة فى زيارته لشهد وقد اقتربوا من دارهم فقال له شوقى الدهان :

ـــ وإذا سأل عنك المقدم فهمى الترك ؟

ـــ ما عليك ساعتها إلا أن تنفى أنك رأيتنى بالمرة . سلام .

وما هى إلا دقائق حتى كان كالأفعى بجسده الكاوتشوكى النحيف ، مرتدياً بدلة الغطس والقفاز والقناع والحذاء المطاطى الطويل ، فبدا مضحكاً ، فصاح فيه شوقى الدهان :

ـــ من لص لضفدع ! .. لله الأمر من قبل ومن بعد .

ـــ لاتعترض ياعم شوقى فالأرواح تتبخر فى لحظة ويتساوى الكل . وعموماً فقبل أن يفيق أى واحد من تشوين معداته ، سأكون بإذن الله هنا .

واندفع بسرعة نحو المخاضة ، وماهى إلا لحظات حتى كان تحت الماء يغوص مندفعاً نحو الضفة الأخرى كسمكة القرش ، وما إن مست قدماه الرمال حتى اندفع بين أشجار الفاكهة متخفياً إلى أن وصل إلى دار شهد ، كان الظلام كثيفاً من حولها ، وخشى أن لا يكون أحداً فيها ، وتوجس قليلاً قبل أن يطرق الباب بشدة فى عجلة من أمره ، ومرت لحظات ثقيلة قبل أن يجد من يعبث بمغاليق الباب الداخلية ، فاطمئن قليلاً ، وعندما دخل لم يصدق نفسه بين الرجل وابنته ، وفى ضوء مصباح الكيروسين الهزيل تعرفت عليه شهد وكادت أن تقبله لولا أن تمالكت نفسها فجأة ، ولكن النورى تحايل على ذلك فدفعها إلى الداخل بحجة طلب الدفء فسأله الرجل :

ــ كيف الحال معكم يا ولدى .

أخشى أن لا أراكم مرة أخرى .

فدقت شهد على صدرها ، وهتفت :

ــ أعوذ بالله ، الله خير حافظ لعساكره .

ــ كنا فى المواقع المقابلة وجاءت الأوامر بالتحرك ، فأبت نفسى أن أغادر القطاع دون أن أراكما ..

وخرج الشيخ لبعض أمره بعد أن اطمأن على حالة الجيش ، فأتاح ذلك للنورى فرصة الانفراد بشهد ، وراح يداعب خدودها ويمسك يدها ويبثها لواعجه ، ثم أراد أن يقبلها فاستعصت وذكرته بشرطها ووعده لها بتحقيقه ، فما كان أمامه غير أن يصمت ويكتفى من اللقاء ببراءته ، وما كاد يهم بالاذن حتى حملته بكثير من الزاد والخضر والفاكهة ، عبأها فى كيس من النايلون وربطه على ظهره ، وودع الرجل فى الداخل وإبنته عند الباب وقد استكان أمامها حتى آمنت شره فى اللحظة التى أنقض عليها فجأة ليقبلها قبلة أحدثت فرقعة احمرت لها وجنات شهد خجلاً ، ودفعته عنها وهى تؤنبه :

ــ لن آمن لك مرة أخرى . مع السلامة .

ــ مع السلامة .

عندما وصل النورى إلى الوحدة ، كانت عملية تجهيز الملاجىء والسواتر على قدم وساق ، فاحتال ودفن الكيس بما فيه تحت حجر وغطاه بسترة قديمة ، ثم ظهر يشارك الزملاء أعمالهم ، ولكن الدهان شك فى أمره ، وسأله عما فعله أو أحضرة من عند شهد ، فقال النورى أنه لم يستطع مواصلة الطريق لشدة الظلمة ، وانكر أن يكون قد عاد بشىء ، ولم يقتنع شوقى الدهان وأسر بشكوكه للملازم شافعى قائد الدفاع الجوى المتنقل من حملة الصواريخ (ستريللا سام ٧) وكذلك المقدم هارون ندا (الباشا) الذى أبلغ الأمر بدوره للمقدم فهمى الترك ، فأمر بعض الجنود بالبحث عن الكيس حتى وجدوه بين صخرتين ، وصاح الترك لدى رؤياه للكيس .

أن لدينا الآن ساعتين قبل الرحيل راحة وعلينا أن نحتفى بوجبة ساخنة علنا لا نراها مرة أخرى .

وقذف بالكيس إلى المعلم شافعى كما اعتادوا أن ينادونه لامتيازه فى اصطياد الفانتوم بصواريخه (ستريللا) التى يطلقها مع زملائه من فوق كتفه ، وتفننه فى عمل الكمائن والتخفى برجاله أثناء الغارات وسرعته فى تغيير أوضاعه وانتقالاته الأمر الذى معه أطلق عليه زملاؤه « بالمعلم صائد الفانتوم » ورغم هذه الشهرة المدوية فلقد كان الشافعى شاهين ــ وهذا هو لقبه ــ متديناً فقيهاً أزهرياً ، مضى فى دراساته حتى درجة العالمية ولهذا فقد كانوا يطلقون عليه اسم (المفتى) حين يستفتونه فى شىء من الأحكام التى يضطرون إليها اضطراراً فيفتيهم فيجدون فى فتواه تخفيفاً وتيسيراً للدين ، حتى أنهم ما تصوروا هذا اليسر فى حقيقة الاسلام إلا على يد (المفتى شافعى) ، وليس فقط هذه هى كل مؤهلات المقاتل شافعى شاهين إذ أنه كان طباخاً ماهراً ، أمتع زملاءه بكثير من الأكلات الشهية التى كان يتفتق ذهنه عنها ، متحايلاً على الظروف لاعداد وجبات ساخنة من المواد الغذائية المعلبة التى تجمدت داخل علبها بفعل البرد الشديد ، كما أمده النورى ــ بحكم عملياته البحرية ــ بكل ما يحتاجه من توابل وخضروات من البر الغربى ، بخفته المعهودة وسرعة حركته ، ولم يخذل لزملائه طلباً ، ومن ثم فقد كانوا ينادونه (بفرقع لوز المخلصاتى) أما المعلم شافعى فأزادوا ألقابه ب (الطهاية) .

. واشترك الجميع فى اعداد وجبة السحور الشهية من السلاطات المدبجة بالخيار والبقدونس والطماطم والبصل ، ثم طبق ضخم من الفول المدمس المطبوخ بالتقلية والطماطم الشهى الطعم وكذلك عدة أطباق من السبانخ التى دُفع داخلها بالكثير من قطع اللحم المعلبة فازداد طعمها اشتهاء ، وعندما مُد السماط على لوح من الخشب الكبير وجلسوا حولها فوجئوا باللواء بدر وأركان حربه فوق رءوسهم ، فقاموا على الفور ؛ بينما تبسم الترك معتذراً لقائده الأعلى ، لكن القائد الانسان نهرهم على فعلتهم بالقيام من طاولة الغذاء ، بل جلس معهم لتناول طعام السحور هووالعميد الريدى والحرس ، فكانت وجبة شهية أعقبها البرتقال تقاسموا أعداده فى انسجام عجيب وراحوا يتسامرون حول أحوال كل منهم الاجتماعية ومشاكلهم من كل نوع دون أن تتوقف النكات بين الحين والحين ، يلقيها الترك والدهان والنورى ويضحكون حتى نسوا ساعتها أنهم فى حرب وأنهم على وشك الاشتباك مع العدو .

وبعد وداع اللواء بدر همس المقدم الترك فى أذن النورى شامتاً :

ــ تعيش وتأخذ غيرها .. هل تبقى نورى وتُسرق ياسى طائع !

ــ مردودة ياسيادة المقدم . عملها ابن الدهان وانشاء الله باقية له .

فربت على ظهره ضاحكا :

ــ ما استحق أن يولد من عاش لنفسه .

ــ من عاش ! كلنا وقود هذه الحرب ، ومن منا لا يحمل روحه على كفه ؟ .

ــ ألأجل هذا تسللت إلى الغرب لتلقى شهداً ؟

ــ مجرد الرغبة التى تزيدنى إحساساً بالحياة .

ــ قمة الحياة فى العطاء ، وقمة العطاء هو أن نجود بأرواحنا رخصية .

ــ مثل سيادة العقيد توفيق رضا ؟ ..

فنظر الترك إليه ملياً ولاذ بالصمت ، ولما بدأت الدموع تخترق وتلمع فى المآقى رغم المقاومة ، انصرف طائع شقياً بذكرى استشهاد قائده .

وتعالى صوت النفير عاليا .. لقد جان وقت التأهب للقتال ! .

* * *

الفصل الثانى

المظليون فى الساحة :

خرج شوقى الدهان من ملجأ المعدات ، يستطلع الموقع الجديد مع أحمد السكاكى ضابط الاستطلاع ، لمد أسلاك الاتصال الهاتفى لربط الملاجىء بعضها ببعض مع القيادة الجديدة ... وكان الجنود منهمكون فى تكسية جوانب خندق المواصلات بالدبش ، فى حين أمتدت ساحة قرية الجلاء أمامهما واسعة ومسورة ومحاطة بالتباب المحصنة . وكانت الشمس ساطعة رغم الريح ، وضوء النهار الفياض يبهر العين رغم الخريف ، فتخففا من معطفيهما وخوذاتيهما ، وعلقاها على مسمار بجدار الملجأ . سألهما عريف الإشارة متولى الهادى محذراً :

إلى أين ياابن الدهان ؟

ــ أمد أسلاكى ياعم متولى لتجد لنفسك عملاً .

ــ حذارى أن تطل برأسك الآن وإلا فلن تجدها ، القنابل تنزل من السماء كالمطر ، والطائرات كالذباب فوق الرءوس .

فأشاح الدهان عنه وجهه غير عابىء ، ومضى مفسحاً الخطى بين ساقيه الطويلتين ، وهو يحث زميله على الخروج متمتماً :

ــ الرب واحد ، والعمر واحد .. لافرق هنا بين حياة وموت . كلاهما يعلن عن وجوده متجاورين فى هذه الساحة !

فى تلك اللحظة كانت الهليوكبترات من طراز (مى ٦ و مى ٧) وطائرتى نقل جنود ضخمة من طر از (اليوشن) تهبط فى هدوء وحذر على أرض ساحة قرية

الجلاء النموذجية ، وبدأت تخرج منها قوات المظليين ، التى أرسلت على عجل تدعيماً لقوات الفرقة ١٦ التى كانت تتعرض لضغط عنيف على جانبها الأيمن خاصة اللواء ٢١ المدرع الذى يمثل ذراعها الممتد والمجاور للجيش الثالث الميدانى على مشارف البحيرات المرة ، حيث كان فى انتظارهم اللواء بدر قائد الجيش واركان حربه العميد زاهر الريدى والعميد أحمد الطوبجى قائد الفرقة ١٦ وأركان حربه العقيد جلال همام ، وفى لحظة اختفى القادة من الساحة ، بينما اتجهت أفراد القوة إلى الميس لتناول وجبة ساخنة كانت فى انتظارهم كتحية لرفاق السلاح الجدد ، فهمس السكاكى وهم يعبرون المواقع المتاخمة للساحة لزميله شوقى الدهان :

ـــ يبدو أن الثقل كله للمعارك سوف ينتقل إلى هذه الساحة !

ـــ لا أعتقد ، فالعدو فى النزع الأخير .. ولكن لا أدرى ..

ـــ ماذا تقصد ؟

ـــ أقصد ربما تدخل الأمريكان .. فيكون ما تعتقده .

ـــ بل تدخلوا بالفعل ياحبيبى . ألم تر السلاح الذى واجهناه فى معركة الدبابات عند البردويل ومحور الطاسة !

ـــ حقاً لقد أسرنا دبابات جديدة بشوكها ليس عليها إلا رمل الطريق .

ـــ وعربات مدرعة لم يتغير لون خزانات وقودها من الخارج .

ـــ كله إلا القنابل (تاو) و (لو) و (مافريك) التليفزيونية و (روك آى) ... هذه أسلحة الحرب الكونية الثالثة ورب البرية ..

ـــ سمعت أن لديهم قنابل (روكويل) زنة (الفى رطل) الموجهة بالأشعة فوق الحمراء .

ـــ هذه الأسلحة غنمنا منها الكثير وهى شاهد إدانة على تدخل أمريكا السافر فى الحرب كما حدثنا اللواء بدر .

ـــ هل تظن أن الروس سيتدخلون بإمداداتهم الحديثة ليدعمونا فى مواجهة الأمريكان ؟

ـــ العلم عند الله . ولكننا فى أشد الحاجة إلى هذا ، خـاصة أننى سمعت المقدم طيار الوحش يتحدث عن جهاز جديد حصل عليه الطيارون الاسرائيليون اسمه (أ . ل . آى ـ ٢٩) لتضليل الصواريخ ، وجهاز آخر اسمـه (تيسيو) لضرب الأهداف الحقيقية الأرضية من إرتفاعات شاهقة أو توماتيكياً . جهاز يميز الأهداف المتحركة عن الهيكلية .

ـــ هذا شيء خطير ..

ـــ والنتيجة كما ترى ، لقد عادت طائراتهم لتقتحم سماواتنا وتضرب فوق المواقع دون خوف . ولولا خبرة وتمرس الزملاء وقلة التدريب على هذه الأسلحة الفتاكة من جانب العدو لكانت النتائج سيئة .

ـــ الآن عرفت سبب عمليات تكثيف اجتمـاعات القـادة .. وإعادة تـرتيب وحشد القوات فى هذه المنطقة .

ـــ مخك تخين ياسكاكى مثل جسمك .. أما عرفت إلا الآن ! . إذهب ياحبيبى ومارس مهمة الاستطلاع المكلف بها لأخلو لمهمتى .

وتركه الدهان ليرمى أسلاكه وهو يقفز بين الصخور وكثبان الرمل وخلف كتفه تتدلى لفات الاسلاك .. فتضايق السكاكى وبصق وودعه ببسمة وهو يشتمه :

ـــ حقيقى إنك لجلياط مثل لقبك .

واتجه السكاكي نحو البحيره ، كانت ساكنة المياه ، والطبيعة من حولها بكر تتخللها بعض الهضاب المتكلسة بفعل الملح ، تتخللها بعض الحشائش الفقيرة والشجيرات الشوكية المتناثرة فى تباعد بيّن ، بينما بدت السماء سرمدية الزرقة ، تتكور فيها بعض السحب المحترقة فى أفق ملتهب إسود بفعل المحروقات الحربية التى اقتحمت قدسية المكان النائى وبددت صمته الأزلى وقد ارتاح السكاكى نفساً بسحر المكان وقد راعه بعض الطيور تحلق بعيداً تلاطم الهواء حيناً والماء أحيانا : ولابد أنها تنتظر وقف إطلاق النار حتى تعود أدراجها لترمح فى المكان ! ، وبينما هو يقرأ آيات الله فى الطبيعة كما خلقها بكراً ، ويعجب للإنسان واطماعه التى جاء ليدنسها ، وجد صخرة ضخمة وممتدة ، صنعت منها عوامـل التعريـه مجلساً

أملساً طيباً ، فارتقاها السكاكى وجلس على نتوء فيها وراح ينظر نحو البحيرة على طول إمتدارها وعرضها ، يمسحها بعينه الثاقبة المدربة . ووسط الصمت سمع أنيناً ، فارتجف وهب مشدود القامة ثم انصت حتى إهتدى إلى مصدر الأنين .. إنها جريحة اسرائيلية متكومة تتهددها الحروق بالموت ، فقلب فيها حذراً وفتشها فوجد فى حزامها مسدساً ومدية وخزانة طلقات وزمزمية ، فنزعها عنها وفك قايش الوسط فأرسلت تنهيده إرتياح ، ولما حاول أن يعدل من موضعها ، تأوهت بشدة ولم تقو على الصراخ فتركها ، وراح يمسح المكان فوجد جثثاً مثيلة ومتناثرة قذفت بها أمواج البحيرة إلى الشط . وتساءل فى حيرة وقد اتسم الأمر بالخطورة :

ــ ترى من أين جاءت هذه الجثث حقا ! أمن البحيرة ؟ هذا هو الأرجح لكن كيف تسلل هؤلاء إلى هذه المنطقة المالحة السبخة وكيف أصيبوا ؟ وأين القوات المصرية التى تقوم بدورياتها المنتظمة على هذا المكان ؟ ..

كانت هذه كلها تساؤلات خطيرة يجب الوقوف على إجاباتها الحقيقية لخطورة الموقف ، وإلا فإن المفترض أن هؤلاء قد تسللوا فى غفلة من القوات مع غيرهم ، وقد أصيبوا مثلاً بطريق الصدفة ... وأخذ عقله يقلب الأمور وشتى الاحتمالات وهو يصيح منزعجاً :

ــ أين ذهب بقيتهم ؟ .. ترى هل اختفوا فى الجانب الغربى !

وتذكر المجندة الاسرائيلية المجروحة ، فجرى إليها وهو يتكلم مهموماً .

ــ آه .. نسيتها ، إنها الأمل الباقى ، لو تكلمت لعرفنا كل شىء .

حاول أن يرفعها على كتفه فوجد ظهرها مشوياً ومسوداً من الحروق ، يستحيل أن يحركها وإلا ماتت فى الحال ، وتحسس جبينها فإذا به يغلى من الحمى وما لبث أن بدأت أعضاؤها تنتفض منها . فأسرع إلى الماء وبل منديله وراح يخفف عنها وطأت السخونة القاتلة ، ثم لفها بمعطفه حتى سكنت حدة الحمى ، وفغرت له فاها تطلب ماءً فقطر لها من زمزميته حتى ضمت شفتيها ، وهداه تفكيره إلى عمل محفة من أغصان الشجيرات ، وتحايل حتى نامت عليها منكفئة على وجهها لاستحالة نومها على الظهر المحروق ثم حملها على كتفه فى حرص شديد ووصل بها إلى مقر

الأسرى وأبلغ العقيد الطناني بالأمر وكذلك العميد الطوبجي وبقية القادة الذين أسرعوا إلى الأسيرة التي كانت حالتها تسوء من لحظة إلى الأخرى ، فأتوا بالقسم الطبي لعلاجها ، وكان المقدم الترك موجوداً فعهد له العميد أحمد الطوبجي له بمتابعة حالتها حتى تبرأ فيقوم باستجوابها بنفسه ، بينما خرج هو إلى إجتماع عاجل مع قائد الجيش اللواء بدر الذي كان يجتمع مع قواد الألوية في الفرقتين ، الفرقة ٢١ مشاة شمال القرية والفرقة ١٦ مشاة يمين القرية للتنسيق بينهما ، ثم قواد قوات الدعم من وحدات الصاعقة والمظلات والقوات الخاصة ورجال الاستكشاف .

تحدث الدكتور الميداني وهو يطهر الحروق بعد أن كشف على ظهر الأسيرة قال :

ــ هذه المرأة شديدة التعلق بالحياة .

فضحك الترك منه وقال معلقاً وهو لا يتمالك نفسه من الضحك :

ــ وما الجديد في هذا ؟ كل اليهود على هذه الشاكلة ، يفرط في شرفه ولا يفرط في ماله ، يقبل العمى ولا يقبل الموت . أذكر مرة بعد أن أقتحمنا حصن الشط هذا القريب من هنا عند البحيرة ــ بعد ثلاثة أيام من الحصار المستمر ــ واحصيت عدد الأسرى والقتلى فوجدتهم أربعة وثلاثين نفراً ، في حين أن ما هو معلوم عنهم أنهم خمسة وثلاثين ، وداخلتني الحيرة أين الفرد الناقص ؟ لايمكن أن يكون قد هرب ، وإلا وقع في أيدي جنودنا عند باب الحصن والمزاغل ، وجلت في طوابق الحصن الكبير وفتشت في كل مكان فيه حتى يأسنا من البحث ، وكلت أيدينا من إزاحة الأشياء للبحث عنه وراءها وقال لي المرحوم فوزي الدهشوري :

ــ أعتقد أننا نبحث عن سراب . أعد حساباتك ربما كان العدد هو أربعة وثلاثون .. فقلت : معلوماتي مؤكدة . ولن أهدأ حتى أعثر عليه . ثم أن وثائقهم تقول أن هناك مفقود فقال الطبيب متشوقاً : وهل وجدتموه .

اعتدل الترك مريحاً ساقاً فوق ساق وهو لا زال سادراً في ضحكة :

ــ وجدناه ياسيدي ..

ــ ألم تقل أنكم بحثتم في كل مكان ؟

ـــ إلا مكان واحد ، لم أتصور أبداً أن يوجد فيه امرء كان .
ـــ لازم كان معلقاً فى السقف .
ـــ بالضبط ... ولكن كان فى سقف مجرور الصرف بقاع الحصن المؤدى إلى مياه القناة
ـــ أعوذ بالله هل يمكن أن يدفن الإنسان نفسه فى مكان كهذا حفاظاً على حياته ! .
ـــ الحقيقة لم تكن حياته هى الدافع ، فقد كانوا جميعاً على ثقة من أننا نحافظ على حياتهم كأسرى ، ونداوى الجرحى ونسلم جثث القتلى لدفنها حسب طقوسهم
ـــ عجيبة ! .. لازم كان هناك دافع أقوى من حياته ليفعل هذا العمل الشنيع بنفسه .
ـــ جمع كل ما فى بطن خزينة الموقع من أموال ووثائق وربطها على بطنه فى كيس بلاستيك ، ثم دلى مقعد من الحبال والوسائد القديمة فوق مستوى سطح مخلفات الصرف داخل المجرور بعد أن ربط طرفه جيداً فى حديدة من حدايد المسلح المدلاة من غطاء الخزان .. وظل على هذا الحال أكثر من عشر ساعات .
ـــ ألم يكن أحد من الاسرائيلين يعرف مكانه ؟.
ـــ أبداً كلهم قالوا إما قتل أو هرب . واحد فقط هو مساعده قال أنه أختفى قبل إقتحام الحصن بأكثر من ثلاث ساعات .

ـــ أكيد خطط لها .
ـــ العجيبة أن فوزى حاول نزع الكيس منه فلم يستطع ، وقال له أنك لن تنزعه منى قبل أن تنزع روحى . وتحت تهديد المدفع الرشاش ، ابتلع ناثان وهذا اسم الاسرائيلى اليمنى - كل أوراق البنكنوت ورقة ورقة .. وكلما طفح إحداها أو لفظها بفمة أجبره فوزى على إلتقاطها بفمه ، وكلما تلكأ لحظة يعاجله برشة طلقات جنب أذنه ، فيسرع كالبرق ليلتقط الأوراق وقد دمعت عيناه وسال الزبد من شدقيه والعرق من جبينه مستعطفنا فى ذلة عجيبة وإلحاح شديد للاحتفاظ بهذه الأموال : كان فوزى يحشوها له فى فمه حشواً ، وأنا واقف مغشى علىّ من الضحك

رغم دقة الموقف والمعاناة التى لاقاها الـزملاء فى اقتحـام هذه القلعـة المسلحة الحصينة .

فضحك الطبيب كلما تخيل منظرنا ثان وهو يبتلع معبودة . المال وقال :

ـ لكن كيف اكتشفتم مخبأه ؟

ـ لاحظ فوزى أن غطاء الخزان الذى يتحرك على قضيب مُزاحاً عن مكانه مسافة كبيرة بحيث تسمح برائحتها النتنة من الصعود بشكل يثير التقزز ، فحاول جذب الرافعة لد خه ليسد الفتحة ، ولكن اليهودى كان قد احتاط للموقف وعطلها ، فحاول فوزى أن يبحث عن الجنزير فوجد طرفه يتدلى داخل فتحة الخزان .. ولما حاول جذبه ارتطم برأس اليهودى فصرخ .. وهنا نظر إليه فوزى مسدداً نحوه المدفع الرشاش وهو يصيح فيه قرفا ... «.اخرج ياابن الهالك » وخرج متصنعاً الموت ثم الاصابة وهو يصيح :

« أريد مندوب الصليب الأحمر حالاً .. أريد أن أنتقل للعلاج فى المستشفى ولكن كل هذه الحيل لم تجز على فوزى وفتشه فوجد الثروة التى احتال لأجلها كل هذه الحيل ....

ـــ عجيب أمر هؤلاء الناس ، لكن هل قتلتموه بعدها أم مات وحده .

ـ لا هذا ولا ذاك . فبعد أن ابتلع الأوراق جحظت عيناه وأصابه إختناق اضطررنا معه إلى إخراجها بالضغط على بطنه ولكم على ظهره.... وأخيراً اضطررنا لعمل غسيل معدة له فى المستشفى الميدانى .

ضحك الطبيب وقال ويده تعمل بمهـارة لاستئصال خـرق السترة والجلد المحترق :

ـ هل تعلم أنهم مرضى مثـاليين ! كـل الأسرى الجـرحى تماثلـوا للشفاء بسرعة .

ـ كيف ؟

ـ من شدة خوفه من الموت ... يستمع جيداً للتشخيص ، وينفذ التعليمات الطبية بكل دقة .

ـ وهذه الأسيرة ؟

ـــ عجيب أمرها .. اصاباتها غائرة ، وحروقها من الدرجة الأولى . وملوثة ، والمفروض أنها ماتت من أربع وعشرين ساعة .

ـــ صحيح يادكتور .. كم مر عليها مصابة من وقت ؟

ـــ أعتقد مابين ثماني وأربعين ساعة وست وثلاثين ساعة .

ففزع واقفاً وهو يتمتم :

ـــ إذن لو كان هنالك اختراق للمياه ، لكان من يومين .. وهذه مدة خطرة .

وانطلق نحو الباب مسرعاً ، ثم استدرك يسأل الدكتور قبل الخروج :

ـــ متى تفيق هذه الأسيرة من البنج ؟

ـــ ليس أقل من ساعتين .

ـــ سأعود حالاً .

اقتحم الترك اجتماع القادة مهموماً ، غير عابىء بتحذير جندى الإتصال ، فسأله اللواء بدر :

ـــ كيف حال أسيرتك ؟

ـــ أعتقد أنها من المظليين .

ـــ هل تكلمت ؟

ـــ أمامها ساعتين لكنى لن أنتظر .

ثم القى بالقنبلة التى توصل إليها فى جمع القادة الحاشد :

ـــ أعتقد أن تسللاً اسرائيلياً قد تم أول أمس إلى البر الغربى .

ـــ احتمال .

ـــ بل أكيد .. واستأذن سيادتك فى العبور الليلة للتأكد من الأمر .

ـــ إنه لأمر خطر ، ولكن شيئاً من المعدات أو الدبابات لم تقترب من القناة بعد ،

ـــ هذا مؤشر خطر .. وربما تكون معداتهم هذه مع القوات المهاجمة ..

ـــ هذا إحتمال عموماً استعد مع رجالك وانتظروا أوامرى .

ـــ تمام ياأفندم .

ودق كعبيه مستديراً . وعبر الساحة بسرعة ، ولكن صفيراً حاداً فاجأه فوق رأسه ، فأسرع مندفعاً داخل حفرة ضخمة من مخلفات قنابل الطائرات واستلقى

على وجهـه ، وتابع الطائرة وهى تأخذ استعدالها وتفتح بطنها لتقذف ما به من قنابل زنة ألفى رطل ، كأنها رسول الموت إلى البشر ، لتخلف وراءها حفراً فى حجم العمارات الضخمة بعمق يصل إلى عشرين متـراً ، ومع رهبـة المنظر وخطـورة التعرض لمثل هذه الغارة الفظيعة .. سرعان مادوت صواريخ الكتف (استريللا) سام ٧) لتلحق بهذه الطائرات كالسهام الطائرة وتصيب منها محركاتها فتفجرها وتنثر أشلائها بين السحب المحترقة ، ثم تستحيل ركاماً متهاوياً عل الأرض ، فى مشهد من أعظم المشاهد التى يراها الجندى فى الحرب إجلالاً وروعة ، وبعد كل أصابة كانت تتعالى صيحات « الله أكبر لتشعل الروح والحماس ، وكان فهمى الترك يستطيع أن يميز صوت المقاتل شافعى شاهين فى تكبيراته المدوية مع رجاله ، فقام مبتسماً بعد إنتهاء الغارة ثم تمتم ضاحكاً :

ـــ لله دركم يارجال الدفاع الجوى .

لقد كانت هنالك عشرات الطائرات الإسرائيلية التى كانت تـرف فى الجو ، وتلقى بحمولتها فى مياة البحيرة هرباً من شافعى وزملائه حملة صواريخ الكتف التى تفزعهم دائماً وتدحرهم غالباً . إنهم يختفون دائماً ثم يظهرون ويضربون ثم يختفون دون أن تكون لهم قواعد ثابتة ينتقمون منها ، لذلك خشـاهم الطيارون الاسرائيليون أكثر من خشيتهم لقواعد المدفعيـة والصواريـخ الثابتـة . وطوف ببصره ناحية البحيرة فإذا مياهها غاضبة تتدافع إلى عنان السماء كالرشاشات بفعل قنابل الطائرات ودانات المدفعية التى تتساقط عليها كالمطر ، وحولها امتدت الصحارى واسعة تتخللها حقول الألغام التى توالى انفجاراتها بفعـل المدفعيـة والطيران .. وفى المنخفض العميق إلى الشمال ، كان يتصاعد دخان من الدبابات السوداء التى احترقت من الطرفين المتقاتلين بأعداد كبيرة ، حيث خلفتها المعارك الطاحنة ، والمجازر التى نشبت فى المنطقة على الجنب الايمن للفرقة ١٦ فى محاولة من العدو لازاحة لواءها المدرع رقم ٢١ دون جدوى .

استدار مندفعاً إلى ملجأ القيادة الفرعية للمشاة حملة ار ـ بى ـ جى) ولأول مرة يحس بمرارة الإنتظار ، إنها أول مرة تتوقف فيها الكتيبة عن العمليات لمدة أسبوع كامل ، كان يشعر برغبة عنيفة فى الإندافاع لاختراق البحيرة والعبور نحو

الغريب للتحقق من الموقف دون انتظار للتعليمات ، كان غاضباً وجمع جميع زملائه وأخبرهم بما تم ، فتفكرها رون قليلاً ثم قال فى هدوء :

ــ نحن جاهزون ، ولكن الأحوط أن نستمع إلى الأسيرة الإسرائيلية .

فهم واقفاً ، كمن تذكر شيئاً هاماً .. وقال لهارون على سبيل الأمر :

ــ أخرج بالقوات فى كامل استعدادتكم ، ولاتنس رجال الضفادع البشرية ، أما أنا فسأمر على الأسيرة أتسقط أخبارها .

ــ سنكون فى انتظارك عند البحيرة داخل الحصون المهدمة .

وخرج إلى الأسيرة فوجدها مستلقية فى غفلتها تتململ وحدها ، كان الوجه صافياً وبريئاً لا ينغصه سوى تقلصات متباعدة من آلام الجروح المبرحة ، ولما أقترب منها أزاح شعرها الفضى المائل إلى الصفرة عن وجهها واستمع إلى حركة شفتيها الفاترة دون صوت ، فربت عليها وفحص الجروح ، بعد تنظيفها وإزالة الرقع اللاصقة بها وأحصاها فلم تتعد الخمسة جروح ، ثلاثة منها غائرة والباقى سطحية ، وأحست هى بيديه فتأوهت فعرف أنها أفاقت ، فأحضر كرسياً وجلس عند رأسها يستنطقها .. كانت تتحدث بلغة غير مفهومة .. فقال لها :

ــ إننى اتحدث الانجليزية هل تتحدثينها ؟

ــ قليلاً .

ــ عظيم ، إننى لك منصت هل تريدين شيئا؟

ــ من فضلك مياه .

وأشار إلى جندى الخدمة فأحضر كوباً نظيفاً به ماء ، وتعاونا سوياً وساعداها على الاضطجاع وسط تأوهات وصريخ حاد من آلام الجروح ، وقطر المياه فى فمها حتى ابتل ريقها ، ثم جيء لها بشاى ساخن وبسكويت فأكلت بشهية ، ولما أحس بشدة ألمها استدعى الطبيب فأعطاها حقنة مهدأة حتى استراحت .. كانت تنظر إلى فهمى الترك نظرة عرفان بالجميل ، ولايدرى الترك لماذا أحس ناحيتها براحة . قال لها فى رقة :

ــ كيف حالك الآن ؟

ـــ لاأدرى . إن حالى عدم . هل يمكن أن أسألكم دون حرج ؟

ـــ من أنتم ؟ وأين أنا ؟ كيف جئت ؟ ماذا حدث ؟ رأسى تكاد أن تنفجر .

ـــ أما من ناحيتنا فنحن مصريون ، وهذه مواقعنا التى عبرنا إليها بالحديد والنار وندافع عنها بصدورنا ، ونفديها بحياتنا ، أم كيف جئتى فقد حملناك إلى هنا بين الحياة والموت بعد أن قذفت بك مياه البحيرة مصابه إصابات بالغة كلفتنا ويومين من العلاج المكثف والمتواصل ، أما من أنت وماذا حدث ؟ فهذه ننتظرها منك لتخبرنا بها ..

ـــ اسمى سيلفيا .

ـــ اسرائيلية طبعاً ؟

ـــ كلا .. بل دانمركية .

ـــ إذن فأنت يهودية متطوعة ؟

ـــ كلا بل مسيحية .

ـــ عجيبة ! ..

ـــ لاعجب .،. أحببت شابا يهودياً حدثنى كثيراً عن الشرق وسحره ، واسرائيل والجنة الموعودة فصدقته ، وبعد وصولنا بيومين قامت الحرب فجندونا ضمن وحدات المظليين .

ـــ دون أن تعرفى شيئاً عن الخصم الذى تحاربيه ؟

ـــ كانت الدعوة لنجدة بنى إسرائيل من الفناء ، فى كل مكان ، فى الصحف والاذاعة والتلفريون والسينما .. وكان الرعب يكسو الوجوه وهم يتصايحون من خلال النوافذ وعلى المقاهى عن الوحش العربى الذى يبغى إفتراسهم ، كانوا يبكون كالثكالى .

ـــ هل أخبروك بأنهم يحتلون أرضنا ؟

ـــ لم أسأل .

ـــ هل تحاربين إناساً لا تعرفين عنهم شيئاً ؟

ـــ هذا خطأ جسيم ، ولكن حالتى النفسية دفعتنى لذلك ، كنت أريد أى

مغامرة أنسى فيها محنتي ، فقد عرفت جانى بعد أن مررت بتجربة مريرة مات فيها والدى فى حادث سيارة أصبت فيها إصابة بسيطة ، وخرجت من المستشفى لأجد صديقى الذى أحببته فى فراش الأسرة مع فتاة غيرى .. لم أكن أدرى ماذا أفعل فانسقت وراءه بلا تفكير .

ـــ وكيف الحال الآن ؟ هل نحن حقاً متوحشون ؟

وابتسم لها فابتسمت ، وأشعل لفافة وناولها أخرى فقبلت شاكرة قالت :

ـــ بالعكس تماماً .. هذه تصرفات عقول راقية متحضرة .

ـــ والرعاية ؟

ـــ لا بأس بها .. لكنى أود أن أعتذر لاشتراكى مع عدوكم .

ـــ لاينفع مجرد الاعتذار . إننا فى حرب باسيلڤيا .. هل تفهمين مقصدى ؟

ـــ آه .. تريد معرفة شىء عن مغامرتى معهم .

ـــ على الأقل تفاصيل رحلتك معهم . اسماء القادة وخططهم ، عدد الأفراد التسليح ، اتجاهات الهجوم ...

ـــ حسناً ..

وراحت سيلڤيا بدقة بالغة ـــ بعد أن طلبت ورقاً وقلماً ـــ تدون كل ما رأته وسمعته .. فابتسم لها الترك وهى تناوله التقرير وقال لها بعد أن قرأه :

ـــ إن لك لنظرة ثاقبة ..

ـــ أرجو أن لا تنظر إلىّ كأسيرة ، على الأقل ، فإنه لا يخامرنى هذا الشعور معك .

ـــ سأضع هذا فى اعتبارى . استأذنك الخروج ولربما أعود إليك بعد قليل .

ـــ اجعلنى رفيقة سلاح تحت خدمتك ، فأنا مع الحق .. والحق معكم .

وودعته بنظرة حانية ، ولكن الآلام فأجاتها فصرخت فعاد بسرعة وحملها إلى فراش آخر بحجرة داخلية ، ولم يتركها حتى جاء طبيب الموقع وحقنها حقنة مسكنة راحت بعدها فى إغفاءة طويلة وهى تتشبث بزراع الترك فى انجذاب غريب ، فقال .

ــ لقد غرروا بك كمايغررون بالعالم أجمع ، لماذا يدفعون بالأبرياء إلى الحرب !

وأسرع الترك إلى اللواء بدر وسلمه تقرير الأسيرة الدانمركية الخطير ، فقرأه بإمعان ، ثم استدعى العميد الطوبجى مرة أخرى ، وسلمه التقرير .. فقال له :

ــ إن رجال العقيد ابراهيم أدهم قد عادوا تواً من الشرق .

ــ هل قدموا تقريراً ؟

ــ الهجوم على وشك الاقتراب من المواقع ، ولكن اتجاهاته لازالت غامضة .

ــ هل حُددت قوته ؟

ــ فرقتين مدرعتين ولواء مظلات محمول على عربات مجنـزرة ولواء مشـاة ميكانيكى واسلحة دعم معاونة إنه هجوم كبير ، عمليات الحشد فيه كبيرة نسبياً .

ــ تقرير الأسيرة يتحدث عن كتيبة برمائية بها أوناش تقطر معدات تشبه المعابر أو الجسور وعربات ضخمة تحمـل مايشبـه الأطواف العـائمة وقـوارب مطاطية .. إنطلقت من منطقة يطلقون عليها كيشوف وأنها لازالت تسير على طريق أكافيش ــ كما يسمونه ــ فى اتجاه المياه نحو القناة والبحيرات مقيدة الإضاءة .

ــ هذا أمر خطير . يؤكد فرضية أنهم يريدون الاختراق والتسلل إلى الغرب خلف الجيوش ، وليس مجرد السيطرة على رءوس الكبارى أو زحزحتها .

ــ ولهذا فهم يضغطون بكل قوة على جناحك الأيمن .. ولسوف استدعى الآن القوات الجوية لرصد قافلة المعديات والتعامل معها لاعاقتها وتدميرها .

ودخل العميد زاهر الريدى فى عجلة ، فصمت الجميع . وصاح :

ــ لقد بدأ الهجوم .. لقد اندلع القتال فى الشمال مع الفرقة ٢١ المدرعة . وسلم تقريراً هاتفياً للواء بدر الذى اشار إلى العميد الطوبجى .

إنها مناورة إسرائيلية مكشوفة . واعلم أن الجهد الرئيسى للعدولن يتأخـر عليك ، كن مستعداً جيداً كالخطة مع رجالك ، وسأكون معك فى الخط الامامى .

ــ نحن فى انتظارهم ..

ـــ على بركة الله .

وبينما اتجه العميد الطوبجي ليتأكد من قوة الحشود ، وسلامة أوضاعها ، إنطلق المقدم فهمى الترك إلى مواقع رجال كتيبة الموت من رجال المشاه المدرعون الذى يخشاهم العدو خشية الموت والدمار ، ويبحثون دائماً عن أى سبيل يقيهم شر هذا الموت المحدق برجالهم وآلياتهم فى كل وقت وكل مكان . كان المشاة هم داء العدو الفتاك ، الذى لم يجدوا له علاجاً ، ووضح عند منتصف الليل أن العدو يغير من أوضاعه ، وقد كثرت الحركة بين آلياته ، وكانت قافلة معدات التسلل والكبارى تنتظر بعيداً فى خفاء ، عند الطرف البعيد من رأس البحيرة بين الأدغال ، وحبس رجال اللواء المصرى أنفاسهم . وقد علم كل فرد فيه متى يتقدم ، ومتى يتراجع ، وكيفية العمل مع العدو ، فى تكاليف محددة ، ومهمات دقيقة .

وطال إنتظار الرجال لبدء هجوم العدو ، وعلق المقدم حسن عمار قائد المدفعية :

ـــ لن يبدأوا قبل أول ضوء ، حتى يكونوا فى حماية طيرانهم . فصاح العقيد الشهابى قائد المدرعات فى إناة وحكمة :

ـــ وهل تظن أن يهودى يضع قدمه فى مكان ، دون أن يضمن خط الرجعة عند الضرورة .. !

ـــ فابتسم المقدم حسن معلقا فى ثقة وهدوء :

ـــ إنهم يجهلون ماينتظرهم .

ولم يطل على القادة إنتظارهم ، إذ سرعان ما دخل عليهم الكشافون يعلنون تحرك بعض الدبابات السنتريون الخفيفة التى تكسى جنازيرها بالمطاط . فصاح العميد الشهابى ، وقد قفز من مكانه مستبشراً :

ـــ حسناً أيها المقاتلون ، إنها لجس النبض ، واختبار الطريق ، دعوها تجوث بين الخطوط كما تشاء ، إتركوها تمر .. ولسوف تعود إليهم ، عندها سيبدأ تقدم مدرعاتهم .

ثم علق بعد خروج الرجال ، وقد بدا عليه التحفز :

ـــ هذه طريقتهم فى كل مرة ، ولن يملوا تكرارها ، يالمكر هؤلاء الناس ... !

وبعد ساعة قطع وهج مهلهل ثغرة فى السماء ، إمتدت حوالى كيلو مترين ، وتحرك فوق القوات بالقرية ، وبدأت الصواريخ وقنابل الدبابات تنفذ هناك ، فى فرقعة مجنونة ، وكانت ألسنة النيران تتوالى بشكل بشع من خلال الدخان الكثيف ، وإنطلقت دبابات العدو ، بهدير طويل ، بطوابيرها المتتابعة ، كأنها فى إستعراض عام ، وراحت تدور فى خطوط عرضية متناسقة لتمتلك ناصية القرية ، وتمتلك مفاتيح الطرق المؤدية إلى المواقع ، وتحاصر القوات فيها ، وفجأة إنشقت السحب الرمادية المعتمة ، عن أجسام فضية لامعة وهى طائرات العدو قادمة من الشرق ، لتلقى بصواريخ الإنارة فوق مواقع الفرقة ، ليبدأ الهجوم ، برياً وجوياً ، فى آن واحد . وكان واضحاً أن العدو قد غير من تكتيكه ، وهاجم فى منتصف الليل ، والقمر محاقاً ، حتى يتيح الفرصة أمام قافلة المعابر بالتسلل تحت ستار الظلام عبر المضيق إلى الضفة الغربية .

استمرت صواريخ الإنارة تسقط لفترة وجيزة ، فكانت تهبط وتهبط كقناديل البحر بهدوء وبطء حتى تحرف الريح شعلتها ، وتتهاوى نحو المياه بعيداً فى أعماق البحيرات .

وكان إنعكاس الوهج يشع على المرتفعات حيث تربض المدافع صامتة ، وعلى يسار البحيرة عند مكامن قواذف اللهب والدخان ، وعلى خطوط الأدغال عند الشاطىء الذى يكمن فيه المشاة المدرعون ، وعلى هياكل الدبابات التى تباعدت عن بعضها فى المنخفض وراء سواتر التلال والآكام المنتشرة فى الساحة ، والتى لفها الصمت التام .

وتحول ظلام الليل إلى نهار يحترق ، وتقدمت المفارز الأمامية للهجوم الإسرائيلى ، كانت مائتى دبابة فى المقدمة . وخمسمائة فى كل جنب عند الأطراف ، وبينما إخترقت المقدمة صفوف المواقع المصرية الأمامية ، اتجهت بجناحيها نحو الأجناب لتطويق المواقع المصرية .

وانسحب القائد المصرى أمامهم ، وهو يتلقى الضربات دون أن يرد ، اللهم إلا بعض المناوشات البسيطة وصاح القائد الاسرائيلى فى غرور شديد :

ـــ أخيراً سيتحقق النصر على يـدى . ألا ترون كيف يجـرى المصـريـون أمامى ؟!

فرد عليه نائبه الجنرال جاكوف :

ـــ إن هذا ما يثير شكى أيها القائد دانى .

فقال له فى نفخة كاذبة :

ـــ دع عنك ظنونك ، وأمر قافلة نيتكا بالتحرك إلى المياه فوراً وبسرعة ، قبل طلوع النهار .

ـــ ولم العجلة ياعزيزى دانى ، أليس من الأفضل إنتظار نهاية الهجوم ؟

ـــ ألا تكف عن نصائحك لحظة ، لتنفذ الأوامـر ، إنها الحـرب ياعـزيزى جاكى ، ولابد من إهتبال فرصها قبل أن تضيع إلى الأبد .

ولم يكد دانى ينتهى من آخر حرف من كلامه ، حتى فوجىء بقواته تحاصر بـأحزمـة من اللهب ، وانفتحت عليها طـاقات جهنم كـأنها اللظى ، وتـدافعت الصواريخ ، ودانات المدفعية ، وكل معدات الضرب ، فى هالة من النيران المركزة والمدمرة ، التى أمسكت بالدبابات الاسرائيلية ، وأشعلت فيها النيران ، وراحت تحترق جلودهم وهم أحياء ، فتعالت صرخاتهم وقد شويت أكبادهم ، وتحطمت دباباتهم :

ـــ إنه الجحيم .. إنه الجحيم الذى حكم به الرب على بنى إسرائيل ، أين أنت أيها النبى يعقوب لتنقذنا من هذا المصير البائس ، لماذا ـــ أيها الرب ـــ لا ترسل لنا موسى حتى ينقذنا مرة أخرى من أيدى الفراعنة .

وكان البكاء والعـويل والصـراخ التشنجى هو ديـدن هؤلاء الجنود ، وهم يقفزون من دباباتهم ليندفعوا داخل الرمال ، ليغوصوا فيها ليطفئوا النـار التى إشتعلت فيهم ، وأمسكت بجلودهم .

وتدافع رجال المشاة بصواريخهم الفتاكة ، يمتطون أبراج الدبابات ويفجرون من بداخلها ، فى حين تقدم البعض لضربها فى جنازيرهـا ، أما الـذين على قمم التـلال ، فقد ربضـوا وراء مناظيـرهم الليلية زينـون وبنادقهم الكـلا شنكوف يرصدون أفراد العدو الفارين من دباباتهم ، هرباً بحياتهم ، مؤثرين السلامة ، ويطلقون رصاصاتهم الخارقة الحارقة عليهم فى مقتل ، بينما تكفلت كتائب المشاة حملة الصواريخ آر . بى . جى بالفتك بالدبابات الفارة من المعركة .

وصاح الجنرال جاكوف فى رعب شديدٍ لقائده الجنرال دانى ، معرضاً به :

ـــ هل لازلت عند قرارك ؛ بإعطاء الأوامر لقافلة المعابر بالتحرك إلى الميـاه غرباً ؟

فصاح فيه الأخير فى عصبية تجل عن الوصف ، وقد إشتعلت سترته ، فأخذ يطفأها كالبهلوان فى جنون :

ـــ بل اندفع بنا شرقا قبل أن يأتوا علينا وليذهب نيتكا إلى الجحيم .

وابتسم جاكوف فى مرارة ، وهو يقود الدبابة بنفسه ، بعد أن احتـرقت يد الجندى الذى كان يسوقها ، وإندفع ناحية المدقات العرضية شرق القرية ، متخفياً وراء التلال ، وراح يجرى فى مسار متعرج حتى يتلاشى الصواريخ ودانات المدفعية التى توالى إسقاطها عليهم ، ولكنه ما كاد يخرج من مجال التركيز الصاروخى ، وقوس نيران المدفعية حتى وقع فى كمين داخل حقل ألغام .

عندئذ قفز دانى من مجنزرته ، واندفع بكل قوته داخل مغارة وجدها أمامه ، فصاح فيه مساعده جاكوف :

ـــ إلى أين ياعزيزى دانى .

ـــ إلى الجحيم أيها الأحمق جاكى . كف عن لهجتك القاسية والحق بى ، ومعك كل ما عندك من الطعام والشراب ولاتنسى السجائر .

وانحشر جاكوف السمين نسبياً وهو يحمل مااستطاع حمله من المئونة فى فوهة الدبابة ، ولم يخرج إلا بعد معاناة شديدة ، وقفز نحو قائده ليلحق به ، فالتقط منه

الأخير الزمزمية ، وراح يفرغ مافيها فى جوفه ، دون أن يحس بمذاق الماء الدافىء ، وانحدر الماء على من رقبته دون أن يرويه أو يبل ظمأه ، كان دانى يشكو من إحساس بالكدر والإرهاق والشد العصبى وقلة النوم ، وكانت عيناه حمراوين ، حاول أن يلتقط سيجارة من جيبه ، ولكن أصابعه لم تطاوعه ، فلاح خجل غريب على قسماته الجافة ، ونهض زاحفاً نحو المرتفع ، مطلاً على مشهد المعركة التى هرب منها منذ دقائق وصاح :

ــ لقد أصابنا المصريون فى مقتل هذه المرة .

وهز رأسه فى ألم ، فإذا بصوت جاكوف يرد عليه ، من داخل المغارة ، وهو يغب من زجاجة مطاطية جرعات من الروم :

ــ ليست هذه المرة فقط ، إننا فى كل مرة نندفع ، ولا ندرك سوى فى النهاية ، أنهم يجرفوننا إلى الجحيم .

ــ إنها مجزرة ياعزيزى جاكى . إنهم يسلبون أرواحنا ، ويشوون جلودنا ، ويحطمون عظامنا دون رحمة .

وفجأة فتحت الدبابات المصرية نيرانها على المرتفع الذى يربض فيه قائد الهجوم ومساعده ، من جهات عديدة ، وتبع ذلك سلسلة من ألسنة النار القصيرة الباهرة ، وقد ارتفعت عمودية إلى السماء ، تبعتها دفعات غزيرة من قذائف الهاون ثنائية المواسير فى صرير مدوى . وبدا أن كل شىء يذوب تحت وطأت هذه القرقعة ، وذلك الهدير ، وتصدع المرتفع واهتز وانحنى كجسم حى ، وهنا إندفع الجنرال دانى نحو الكهف المخبأ ، وسقط مساعده الجنرال جاكوف عليه ، وقد أحس ببلل عند سرواله ، فدفعه عنه فى قرف وتقزز ، فاعتذر له الأخير فى خوف :

ــ إن الأمور تتطور إلى الأسوأ ، ولم أعد أتحكم فى اعضائى من الرعب ، إن أخوف ماأخشاه ، هو أن يصلوا إلينا هنا ، هؤلاء الجبابرة .

وفى تلك اللحظة ، سقطت قذيفة عند مدخل المغارة ، فانكفئا على وجهيهما ، وغاصا فى الرمال ، واهتزبهما الكهف ، وكأنــهإنحشر فى أذنيهما قطع من الجمر

يشويها ، وانصبت على رأسيهما نار كالحديد المنصهر ، واندفع نحوهمـا هواء الإنفجارات مسخن بالشظايا ، ودارت فى ذهن دانى فكرة الموت بإلحاح شديد ، وعدم قدرة الحياة الإنسانية أو إرادتها أمامه .

وأحس جاكوف بشعور قائده وإحساسه ، فراح يواسيه قائلاً : وقد خرجت كلماته مهتزة من فك يرتعش :

ـــ أهذه هى النهاية حقا ياسيدى الجنرال ؟ . أحقاً هى ؟

ولم يستمـع دانى إلى كلمات جـاكوف ، بـل فهمها من شفتيـه الجـافتـين الرماديتين ، ورأى فى وجهه ـــ على ضوء الإنفجارات ـــ عينى مساعده مدورتين وخضراوتين ومفعمتين بالألم والرعب ، وكأن هذا الرعب يلمع ، حين تطرف رموشه المغبرة ، وتنبه المساعد لنظرات قائده ففرك عينيه فى ذلة وقال :

ـــ لقد دخل فى عينى التراب .
فهمس له فى حنو لم يعهده منه من قبل :
ـــ هل أحضرت الهاتف اللاسلكى .
ـــ بل نسيته فى المجنزرة .

واختلس دانى النظر ناحية الدبابة ، فإذا بها وقد أصابها صاروخ مباشر أطار شبكتها ومؤخرتها ، إنقلبت على جنبها دون أن تحترق أو تشب فيهـا النيران . فحزن وابتهج فى وقت واحد ، وأدرك جاكوف مقصده فقطب قائلاً :
ـــ فأنت تريد جهاز اللاسلكى ؟
ـــ لى رغبة أكيدة فى الاتصال بالقيادة ،
ـــ وزملاؤنا .
ـــ لا مانع من الإتصال مع من بقى حياً منهم . ما الضرر ؟

وتردد جاكوف قليلا ، مسح وجهه من التراب ، ولعق لسانه ، فإذا به فى طعم الحديد المحترق ، وتطلع إلى المقذوفات التى تـرف فى الفضاء الـواسع أمـامه ، فاجتاحه شعور بالأسى ، وتملكه الإحساس بالضياع والإحباط ، ولما حثه قائده على

ضرورة الخروج ، تردد قليلاً ، ونهض على ركبتيه واهنـاً ، وأخذ جفنـاه يطرف ، وهمس لصاحبه :

ـ إذا حدث لى مكروه ياصديقى الجنرال ، فليس لى أم ولا زوجة ، بل أخت فقط ، والعنوان فى جيبى هنا ، داخل السترة .

واندفع خارجاً ، واختفى بسرعة فى ضباب الإنفجارات الحارة التى تجتاح المنطقة ، مع كثافة الشظايا المتطايرة فى كل إتجاه ، فخشى عليه وحاول إستعادته بالنداء عليه دون جدوى ، فوقف عند باب المغارة يرقب حركة جاكوف الثعبانية ليتفادى المقذوفات فى حسرة ، وهو يتوقع إصابة أكيدة له فى كل لحظة ، وأغمض عينيه قهراً .

وفى الوقت الذى أحس فيه دانى بالأسى لضياع مساعـده ، زايله شىء من البهجة ، عندما وجد شبحه يندفع عائداً ناحية المغارة متأبطاً جهاز اللاسلكى ، فاندفع ناحية مدخل الكهف يستقبله فى لهفة ، ولكن طلقاً عاجله فى سـاقه قبـل خطوات من الباب ، فهـوى إلى الأرض منكفئاً عـلى وجهه ، ومـد لصاحبـه يده يستنقذه ، فجبن الآخر ، وطلب منه الجهاز أولاً ، فرفض ، وما كاد يزحف ناحيته حتى دوى إنفجار شديد ، وسقط عليه ، فـاندفـع بعيداً عنـه بقوة حب النفس للحياة ، ولكن شظايا المقذوف اخترق جمجمته وأنهت على حياته .. حياة الجنرال جاكوف مساعد ونائب قائد الهجوم الإسرائيلى ، سجين الكهف المجاور .. !

واستطاع دانى بكل الحيل أن يحصل على جهاز اللاسلكى ، بعد أن سحب القتيل من قدمه القريبة من كوة الكهف، ولما وجد فردتى حذاء جاكوف جديدة عن جزمته ، خلعهما عنه ،ولبسها ، بعد أن طوح بفردتى حذائه بعيداً ، وراح ينظر إلى جثة مساعده شامتاً وهو يقول :

ـ لم تترك شيئاً يستحق الذكر غير حذائك أيها اللعين .

وبصق ثم راح يخاطب صاحب الجسد الميت .

ـ لقد اختفى آخر شاهد يمكن أن يشهد بهروبى من المعارك . أستطيع الآن

ياصديقى أن أدعى أمام شاشات التليفزيون أننى بقيت فى المعركة حتى آخر جندى إسرائيلى ، ودبابة .

ودفعه إلى خارج الكهف فى قرف متمتماً :

ـــ غر من وجهى هل كُتب علىّ أن أبتلى بك حياً وميتاً !

وكبح دانى شعوره بالكدر والقرف ، وأمسك باللاسلكى وقد مدد ساقيه على رمل المغارة ، وأخذ يدق عليه بشدة ، وأذنه تلتصق بسماعته ، وراح يكرر محاولات الاتصال مرات ومرات ، حتى سمع الميجور آمنون ـ نائب ثان قائد الهجوم ـــ يصرخ على فلول الدبابات بالانسحاب بسرعة ناحية منطقة كيشوف ، على طريق كافيش (منطقة الطاسة) . وشعر للتو بالانتعاش ، وأخذ يصيح فى الجهاز مكرراً :

ـــ إلىّ ياميجور آمنون ، هل تسمعنى ، أنا قائدك ، نعم أنا قائدك الجنرال دانى ، هل تسمعنى . رد ألا تسمعنى ياعزيزى الميجور ؟ .. إننى هنا على بعد مائتى متر ، وراء التل فى الشمال الشرقى .

ورن فى أذنه أخيراً صوتاً واهناً ، إنكب عليه يستعطفه أن يزيد من نبراته علوا ، مسدداً له نداءاته التى لم يمل تكرارها ، حتى رد عليه الأخير قائلاً :

ـــ حدد موقعك بدقة ياعزيزى .

ـــ إننى هنا فى المغارة السفلية للتل ، وقد أصيبت دبابة القيادة على بعد خطوات منى ، كما قتل المساعد جاكوف بقذيفة مباشرة .

ـــ ... ليتولاه الرب ، سوف أوافيك حالاً .

ـــ نعم .. نعم ، وسأعينك نائبى الأول ، جزاء صنيعك .

ـــ نائباً .. أول .. ! على ماذا ياعزيزى القائد ؟! إن قوات الهجوم أبيدت عن آخرها !.

ــ لسوف أطلب قوات جديدة من الجبهة ، ونعاود الهجوم ،

ــ هل متاكد من سلامتك ياعزيزى دانى ؟! ، أم تراها تخاريف الحمى ؟

وإنقطع الإتصال فجأة . قطعه إنفجار عنيف على الطـرف الآخر . وأحس دانى بالقهر فبكى .

* * *

الفصل الثالث

محاولات فاشلة :

إنحسرت موجة الهجوم على الفرقة ١٦ ، واستطاع القواد الأصاغر أن ينفذوا بفصائلهم وسراياهم بين خطوط قوات الميجور آمون ، فى حين تملك المقدم فهمى الترك والمقدم هارون نداً قمم التلال الحاكمة للساحة ، وراحو يتصيدون فلول الدبابات الهاربة بمقدوفات (الماليوتيكا وال آربى جى) ، فلم يدعوا طابوراً إسرائيليا يمر إلا وقفوا على غالبيته ، فإذا ما تباعدت خطوطهم إنتشروا وراءهم فى الفياف غير وجلين ، ورغم دقة التصويب الاسرائيلى وكثافة نيرانه وسمك دروع دباباته ذات الامكانيات المتعددة ، والتى أصابت كثيراً من الأهداف الثابتة وقواعد المدفعية المصرية ، إلا أن هذا لم يثنِ جنود الترك أن ينزلوا بالمغيرين هزيمة نكراء ، حتى أن المقدم هارون قفز بنفسه فوق برج دبابة القيادة لاحدى الفصائل ليدمرها وينفضَّ من حولها دفاعات اليهود المستميتة : معرضاً نفسه لموت محقق ، وأصيب فى كتفه ، ومع ذلك إستمر مع رجاله حتى حمله المقدم الترك حملاً إلى السرية الطبية لعلاجه ، وظل الرجال الصواعق يحملون العدو حتى تراجع مسرعاً ليحتمى بمرتفعات جبل حبيطة والنقطة (٥٧) شمالاً .

عندما وصل آمنون فى حراسة سبع دبابات إلى مدخل المغارة صاح دانى فى فرح شديد ، وهو يقفز عالياً :

ـــ مرحى مرحى آمنون ، إنك يا عزيزى الميجور تستحق كل الثناء ، وما أخبار الزملاء؟ علهم بخير مثلك ..

وظل يثرثر حتى بعد أن قفز إلى دبابة القيادة إلى جوار آمون فوجده صامتاً مكتئباً ، فقال له :

ـ أراك صامتاً ، ما بك يا آمي ؟ . هل حدث مكروه لكثير من الزملاء ؟

ـ أتسألنى ؟ إنك قائد الهجوم الكبير يا سيدى الجنرال !

ـ بل يجب أن تقدم لى آخر تقدير ، يا عتبارك آخر من غادر المعركة .

فصرخ فيه آمون :

ـ سيدى الجنرال ، إنك ، تثيرنى ، من المفروض أن تكون آخـر من غادر المعركة ؟ . هل يمكن لقائد أن يترك الميدان هارباً ، ويترك قواته فـريسة لعـدو جبار ، دون أن نفعل شيئاً .

ـ كلا . إنى احتج على كلامك ، ولا تنس أننى القائد ويمكننى أن أحاكمك . إلتزم حدودك ، وحدود رتبتك .

ـ هذا إذا قدر لنا أن ننقذ بحياتنا من هذا الجحيم .

فارتج على داني أمره ، وتذكر ما تعرض له منذ قليل من وابل النيران المصرية عليهم ، حيث تحولت دبابات قواته إلى توابيت لجنودها . فخفت حدته ، وجاءت نبراته حزينة لينة وقال :

ـ هل الخسائر جسيمة .

ـ بل قوات الهجوم كلها يا سيدى الجنرال أصبحت من ضمن الخسائر .هل إرتحت ؟ .

فسكت على مضض وقطب وجهه وراح يحثه على سرعة الهرب .وفى الطريق كانوا يعثرون دائماً على دبابات هاربة بأصحابها ، وكـانوا يتصـايحون عنـدما يبتعدون عن مرمى المقذوفات المصرية ، وهم يتبادلون التحية على بقائهم أحياء ، ويشكرون الرب على نجاتهم غير مصدقين أنفسهم ، كانت الدبابات تجرى فى الرمال

على غير هدى فرادى ، وكلما عثرت على دبابة أخرى أسرعت تحتمى بها ، وهكذا حتى وصلوا إلى مقر القيادة فى الطريق العرضى غرب الطاسة .

واجتمع لدى الجنرال المهزوم دانى ومساعده آمنون أقل قليلاً من ما ئتى دبابة ، نفذت معظمها معطبة بعد جهد ، وبضربة حظ من بين أنياب القوات المصرية . وعلى الفور بدأ القائد الإسرائيلى عبر الأسلاك ، بقيادته الجنوبية :

ــ أريد قواتاً جديدة ، ودبابات حديثة ، من الإمدادات الأمريكية .

ــ كم تريد . مائة ، ما ئتين ؟

ــ بل ألفين .

ــ هل جننت ؟ ، لديك من الدبابات ما يزيد على حاجتك . إن ألفاً ومائتى دبابة معك ، هى كافية وحدها لإبادة ثلثمائة دبابة أمامك لدى الفرقة ١٦ التى تواجهها ، إن لديك يا عزيزى التفوق العددى ، والتفوق النوعى ، بل إن ما لديك وحده كاف لخوض حرب كاملة .

ــ لقد إنتهى كل ما عندى تقريباً ، سيدى الجنرال .

ــ اذن فقد فشل الهجوم ، ياله من حظ تعس .

ــ نفس المصير . إن كل من سبقونى حذرونى ولم آبه لتحذيراتهم ، وها أنا ألقى نفس المصير .

ــ أوه يا عزيزى دانى البائس ، ماذا تفعل الآن ؟

ــ أكملت الإنسحاب . لم يكن أمامى غير ذلك .

ــ وماذا تطلب ؟

ــ أريد أن أعاود الهجوم للإنتقام ، أريد أن أعبر إلى أفريقيا .

وما منعك يا عزيزى ؟ . لقد كانت تحت قيادتك ما يكفيك وزيادة ،فلم لم تعبر ؟ . هل منعناك يا صديقى المغوار ؟

ـــ نعم يا سيدى ، منعه الجحيم الذى طوى دروع الصلب لدباباتنا فى أتونه الملتهب ، والذى كان يفور طلباً للمزيد . إننى لا أستطيع إخفاء مشاعرى يا سيدى الجنرال .

وبكى الجنرال الإسرائيلى ، ثم واصل حديثه :

ـــ عذراً يا سيدى ، إننى فى النهاية إنسان من لحم ودم ، ولى مشاعرى ، ومن الأوفق أن تأتى إلى هنا ، بل لم لا تأتوا جميعا ؟ لتروا بأعينكم أننا لا نحارب ، وإنما ننساق إلى مجزرة بشرية مروعة ، إن ما رأيته تقشعر لهوله الأبدان ،

ويصهر دروع الصلب . مئات من الدبابات والعربات المصفحة ، تحولت إلى حطام فى لمح البصر ، ضاعت واحترق من بداخلها من جنودنا ، وصاروا رماداً . لقد نسيت فى هذا الخضم إمرأتى وابنتى ، وبعت نفسى رخيصة فى سبيل مجد وعظمة إمبراطورية دولة إسرائيل ، ولم آبه لقتلى فى أى لحظة .. وأنت تعلم يا سيدى الجنرال كم تكون النفس عزيزة وغالية على صاحبها .

وفى تلك اللحظة نظر إليه آمنون ـــ مساعده ـــ فى غيظ شديد ، وأصر أسنانه فى كمد ، وقال فى نفسه :

ـــ خسئت يابن الزانية ، كم أنت كاذب ، وتعلم ـــ قبل أى إنسان آخر ـــ أنك أول من هرب من المعركة ، تركت جندك يا داعر مع أول صدام ، واختبأت فى بطن الجبل مع الجرزان الجبلية وجاكوف الذى قتلته .

وأحس دانى بما يعتمل فى نفس وضمير نائبه ، فا نتقل مع آلة التليفون بعيدا عنه ، وما كاد يبدأ ، حتى أحس بدفعة من الدخان اللاذع ، تنفذ إلى حنجرته ، كما شاهد على مدد نظره ، ومن خلال فتحة الملجأ الكبير ، والمجهز تجهيزاً جباراً ومسبقاً من القرميد والدبش وقضبان السكك الحديدية ، ومبطناً بطبقة سمكها نصف المتر من الاسمنت المسلح ، شاهد عاصفة بركانية من الرماد والشرر واللهب ، تموج مع طقطقة دروع الصلب التى تنفجر فى كل لحظة ، وقد بدأت الحرائق تتسع وتلقى إنعكاساً أحمراً على الرمال فيسود لونها وتحترق .

ودخل عليه ضابط إتصال الفرقة ، وهو كهل فى الأربعين ، يدعى (عامى) حضر حروب إسرائيل الأخيرة مع العرب جميعا ، بدأها جندياً فى الخطوط الخلفية ،حتى صار ضابطاً بعد موقعة يونية ١٩٦٧ . فالحق ضابطاً لا تصالات فرقة دانى المدرعة . كان عندما دخل مقطب الحاجبين ، وفى عينيه الضيقتين توسل ، أنفاسه متلاحقة لسمنته المفرطة ، وقال بصوت خفيض بائس :

ـــ إنهم يضربوننا بقسوة ،لقد إكتشفوا مواقعنا .وحك ركبته متأوها ، وأظهر ساقاً مصابة بشاظية عاجلة .

ـــ أخشى ما أخشاه ، أن يرسلوا فى أثرنا المشاة المدرعين ، وإذا حدث لاقدر الله ، فعلينا جميعاً السلام .

وثبت دانى عينيه فى ضابطه ، ووضع سماعة التليفون جانباً ، وارتدى معطفه المحكم حول جسمه بصورة ممتازة ، وإن تركت المعركة الأخيرة أثرها عليه من التمزق والسناج والأوساخ ، ثم شد حزامه المثقل بالمسدس الموضوع فى قرابه ، وبعد ذلك قطب حاجبيه فوق أنفه ، وأخذ المسدس من القراب ، وأخرج منه مخزن الرصاص ، وأدخله من جديد إلى مقبض المسدس ، فى عصبية وقال له :

ـــ هل تظن أنهم قادمون ؟

وخفض عامى وجهه إلى الأرض ، وكان الجنود حولهما صامتين ، مشدودين إلى جراحهم يداوون حروقهم بأنابيب بها معجون تارة ، وينظرون إلى السقف المسلح للملجأ القلعة المهتز بفعل الإنفجارات تارة أخرى ، والجميع يصغون فى توتر إلى دوىّ إنفجارات القذائف المتزايد ، ولم يلق القائد الإسرائيلى نظرة واحدة الى أعلى . وظل متجهماً ، وبلهجته المتكبرة الخشنة قليلا ، والتى لا تتناسب ووجهه الطفولى بعض الشىء ، والشاحب دائما ، أمر باقتضاب :

ـــ أيها الخنزير عامى ، تعال معى .

وتطلع إليه ضابط الإتصالات السمين فى ضيق !!تذمر ، فعنجهية قائده

الجنرال ، لا تتناسب والموقف الصعب الذين يتعرضون له ، ولكنه كظم غيظه ، وإنساق وراءه مقهوراً ، وهو يعرج على ساقه الجريحة .

وما كاد يدفعان الباب الصلب للملجأ ، حتى سمعا هدير الانفجارات أكثر وحشية وبشاعة ، وكانت قذفات الصواريخ تعصف بالدبابات الرابضة نصف ميته ، وتجعلها كريشة فى مهب الريح ، متناثرة الأجزاء ، وعلق جندى يعمل فى السياحة برام الله :

ــ ها هى الأموال الأمريكية تضيع هباء ، إنها تبدو كما لو كانت أموالاً حراماً ، بلا بركة .

وضحك ، ولكن سرعان ما ماتت الضحكة على فمه ، عندما رأى البؤس والبكاء فى عيون من حوله ، إن أحداً لا ينصت لكلامه ، فقال :

ــ لا بأس ، لا تنتظروا من عدو أن يحفل لبؤسنا .

ورفع القائد راسه ، ونظر تجاه المزرعة ، حيث المعارك كانت محتدمة ، فوجدها متوهجة كلها بنور كنور النهار ، وكانت عناقيد الصواريخ المعلقة ، وهى تمرق كالرعد فى السماء ، تضىء السحب المنخفضة وتصبغها بالحمرة القانية ، وسقط صاروخ أمام المدخل ، فخلع الباب الصلب وحطمه بتفريغ الهواء ، ولولا أن بعضهم قفز إلى المنخفض القريب من القلعة الملجأ لكان إحترق مع الباقين ، كان الإنفجار أمام السترة الأمامية للملجأ تماماً ، وكان الاحتراق يخلف دخاناً بنفسجياً قاتلاً ، أغلق عيونهم وأدمعها ، كانوا منبطحين بين الحياة والموت ، وصاح آمنون وهو يقذف من فيه بصاق مختلط ملء بالتراب وصدأ الحديد :

ــ أف .. إن هذا أفظع ما رأيت .

ولمح دانى صامتاً ، منكفئاً على وجهه بلا حراك ، فدفعه فى رأسه :

ــ هل لحق بك أذى ؟

ـــ انبطحوا ، إنهم يسدون علينا منافذ الخروج .

ـــ إن تصويباتهم دقيقة ، أن تترك الموقع كله قبل أن يأتى حملة الـ (آر . بى . جى) .

فقفز دانى كمن مسه عقرب وصاح :

ـــ كله إلا هؤلاء .. إنهم لايطاقون ، ويندفعون إلى الموت بلا مبالاة .

ـــ قم ياعزيزى الجنرال فقد خفت تدفقات الصواريخ ، وتوقفت المدفعية ، وهنا نهض دانى بسرعة ، وصاح آمراً فى عنف :

ـــ خذوا أهبتكم ، وانطلقوا من هذا الموقع بسرعة ، شدوا على قواكم وكان ضابط الاتصال عامى أول من استجاب ، نه فى إرتباك كمن إقترف ذنباً ، وسط نظرات آمنون ، وإندفع يبحث عن مركبة صالحة للسير ، وممسكا برجله المصابة" ويحجل على الرجل الأخرى ، فإصطدم ، بقائد دبابة منطرحاً على ظهره ، وقد أطاح الإنفجار بأحشائه ، فحاول الإمساك بقدم عامى يستغيث به ، ولكن الأخير رفصه ، وحاول أن يتخطاه ، فغاصت قدمه بين أحشاء الجريح ، وهنا ندت عنه أنة مكتومة ، ومن بين أسنانه الملزوزة خرجت دمدمة رجل محموم ، ضاع عمره فى لحظة أو تكاد ، ومال نحوه عامى فى عجلة من أمره ، فرأى خيطاً نحيلاً من الدم يسيل من شدقيه على الرمل ، كان لايزال حياً ، وعيناه تستديران ببطء ، لكنهما لا تثبتان ، كانت تقلصات الموت تهزه هزاً ، وتنفر عروق رقبته لها وترجها رجاً كالمصعوق ، فاعتلى الشحوب والرعب سحنة عامى وتصور نفسه مكانه ، فصرخ وغطى وجههه وجرى وهو يصيح :

ـــ لا .. لا .. لا أريد أن أموت ككلب فى العراء .. لا .. لا ..

وفى تلك اللحظة دوت طلقات متفرقة من الهاونات البعيدة ، كانت كفيلة بأن تضع نهاية للرجلين معاً ، وتكوم عامى فوق الجريح الذى خشى الاستجابة لتوسلاته لإنقاذه .

وتحرك الأسرائليون على أربع ، فى طريقهم إلى مدرعاتهم الرابضة وراء التباب العالية كسيفة ، أكثرها معطوب لا يرجى أصلاحه ، وكان إعتقادهم الراسخ أنهم لو وقفوا على أرجلهم ، فلن يظلوا على قيد الحياة لحظة ، فلقد كان القصف المدفعى والصاروخى المصرى شديداً ودقيقاً بدرجة مذهلة ، حتى أنه نسف أى هدف ظاهر على وجه الرمال ولو كان بإرتفاع بوصات قليلة ، لهذا زحف الاسرائيليون على بطونهم ، وقد ظهر الخوف والرعب فى عيونهم ، لأول مرة فى تاريخ الحروب العربية الإسرائيلية .

ورأى عامى جندياً إسرائيلياً يشعل سيجارة ، فعصف به الغيظ والكبرياء ، فأطاح بحجر وشتمه :

ـ أين تظن نفسك أيها الخنزير ، إطفئ السيجارة فوراً ، وأخبرنى من أى الفصائل أنت .

فرد العريف الإسرائيلى فى عجرفة ،! لاتتناسب مع الضبط والربط ، وإحترام القائد الأعلى ، وكان وجهه مغبراً غير واضح الملامح :

ـ فصيلة عامى .

ـ انتظر مجلساً عسكرياً ، وسلم نفسك بعد العمليات للفصيلة الإدارية .

ــ ها .. هاك مسدس ، إضربنى به إن كنت تقدر ، إننا يا سيدى لن نخرج من هذا المستنقع الدموى سالمين .

ولم يملك دانى غير أن يبصق فى وجهه ، ويطلب ترحيله إلى المؤخرة لمحاكمته على أول دبابة متحركة ، وصاح الجندى جزلاً أحدث دوياً :

ــ هذا هو المطلوب ورب موسى .

وهنا عصف الغيظ بدانى ، فأخرج مسدسه وكاد يطلقه عليه ، بسرعة خاطفة كما يفعل الرعاة فى الأفلام ، فأسرع إليه مساعده آمنون ، وجذبه منه فى عنف محذراً :

ــ والله إنه الجنون بعينه ، هل نتشاجر تحت القصف ، ورقابنا تطير فى كل لحظة عن أجسادنا ، كفى سخفاً واعف عنه .

فأعاد دانى المسدس إلى جرابه ، عند مؤخرة حزامه كما كان ، كامداً غيظه ، وقال :

ــ لن أعتقه ما حييت .

وسمع فى تلك اللحظة ، ضحكة شامته خفية ، لا شك أنها من الجندى ، ولكنهم رغم كل شىء إستمروا فى الزحف حتى وصلوا إلى بعض الدبابات التى هجرها أطقمها مع شدة القصف وتكثيف النيران ، إما بالهرب أو بالقتل ، واستطاعوا بعد جهد أن يديروا بعض المحركات السليمة التى نجت من القصف ، وأول من فتح السير ، جندى ، له وجه قبيح هياب ، غليظ الشفتين ، اسمه اسحق ، وهو يمنى الأصل ، فدفعه بغلظة آمراً :

ــ خذ هذه المركبة ، واندفع إلى الطريق أيها البغل اليمنى أمامنا .

فمسك اليمنى بطنه متألماً وتمنم فى صوت خجول وفى ذلة :

ــ أسترح قليلاً يا سيدى الجنرال . إن بى مغصا يقتلنى .

فرفصه دانى بقدمه بشدة وهو يهم بالفتك به :

ــ ولو .. يا ابن الزانية ، أيهاالقذر لا تنتظر أن أعيد عليك الأمر ، وإلا قتلتك .

فجرى اسحاق ، ويداه قابضتان على نطاقه المثقل بجراب الخراطيش ، وأعتلى الدبابة ، وأدار محركها ، ولكنه ما كاد يتحرك بضعة أمتار ، حتى فاجأها طلق مدفعى بعيد المدى ، أصاب جنزيرها ، وتطلب الأمر ساعتين حتى تمكنوا من إعادة تشغيل الجنزير ، وتحريك الدبابة أمامهم لا ستكساف الطريق .

وفاجأت الحاجة الجنرال دانى ، بعد إضطراب فى البطن ، وكركبة شديدة مسموعة الصوت صادرة من المعدة ، فأمر بالدخول فى بطن أحد التلال الجانبية ،

حتى إذا إستوت الدبابة فى تجويف صخرى ، إندفع وراء الأحجار بقضى حاجته ، فصاح فيه آمنون مساعده متضاحكاً ، وقد أطل عليه من برج الدبابة برأسه المستديرة الصغير ، وعينيه الضيقة الزرقاء :

حذار أن تصيبك قذائف المصريين ، وسروالك مرفوع .

فبصق دانى فى وجهه ، وتناول زلطة وقذفه بها :

ـ إستدر بوجهك إلى الناحية الأخرى أيها الجرز الأحمر .

ولكن الحالة التى أصابت إسحاق والجنرال دانى ، وهى الإسهال ، لم تكن قاصرة عليهما ، بل أصابت كثير من الجنود الذين تفككت أزرارهم ، ليقضوا حاجتهم بعد كل مائة أو مائتى متر ، فأوقف آمنون الركب المتراجع ، وهرس سيجارة فى يده بعنف وغيظ مكتوم ، وصاح مؤنباً :

ـ إن الجندى السىء دائماً يصاب بالاسهال .

فسمع همهمة ، لسان حال أصحابها يقول : « وهل ينطبق هذا الوصف على قائدك دانى ..!! » ، ولكنه لم يأبه وخلع معطفه عنه متصنعاً الشجاعة :

ـ إسمعوا أيها الأرازل من الشعب المنكوب بلعنة الرب ، لقد أمرت أن أخفف عن أجسادكم ثقل رءوسكم الغبية ، فورب موسى ، ما إن يعصنى أحدكم إلا قتلته فى الحال ، واعلموا أننا إذ لم نتخندق قبل الفجر ، فسنهلك هنا جميعاً ، أفهمتم أيها الأجلاف أشتات الشعوب وحثالتها ..؟ إنطلقوا فى صمت ولا يتوقف أحدكم أبداً .

وكان واضحاً أن آمنون قد أمسك بناصية القيادة ، بعد أن إنهارت معنويات قائده دانى .

كانت القذائف تنهال عليهم فى كل لحظة ، وكانوا يتوارون خلف التلال ، حتى يتوقف القصف ، فينطلقون عبر الطريق الصخرى ، حتى وصلوا إلى موقع بين جبلين قرب الطريق العرضى عند الطاسه ، وكان هذا الموقع الصخرى المحصن

طبيعياً ، قد سبق تجهيزه للقيادة إلى الوراء فى العمق بعيداً بعد أن تعرض للنسف عدة مرات من قوات الصاعقة التى اندفعت تبحث عنهم فى كل مكان فى سيناء .

ورأى آمنون أن يتوقف فى هذا المكان حتى تـوافيهم القيادة بـالامدادت ، وعارضه دانى خوفاً من هجوم جنود الصاعقة المصرية عليهم مرة أخرى ، فطمأنه آمنون ، بأن ذلك مستبعد ، فإن المكان مهجور ، ولن يهاجم الصاعقة مكان واحد مرتين ، وظل فى محاولاته المستميتة حتى إستطـاع أن يهدأ من شكـوك قائـدة الرعديد .

وفى هذه البقعة الآمنة ، إستطاع الجنود اليهود أن يستردوا بعض الأمان المفقود ، وأخذوا يقللون من تناول المعلبات الباردة التى كانت تسبب لهم الاسهال ، كما أفهمهم ذلك آمنون ليرفع من معنوياتهم المنهارة .

وفى حين راح دانى يتصل بالقيادة ليعرفها بمكانه الجديد ، غط الجنود فى نوم عميق ، كما لو لم يناموا من قبل ، بعد أن تواروا تحت الاحجار والصخور خوفاً من القتل المفاجأ ، أو غارات الكوماندوز المصرية .

وعندما سمع الجنرال دانى زفرة ضيق من قائد الجبهة أثناء محادثتـه ، وأحس بضيقه الشديد منه ، ومحاولاته المستمرة للتوقف عن سماع كلامه ، صاح دانى فى شبه توسل باكيا :

— إننى استبيحك عذراً يا سيدى القائد ، فلأول مرة تسمـع عن إندحـار جنودنا وتقهقرهم ، لقد خذلنا ـ نحن القادة ـ شعب إسرائيل ، لكن العذر كـل العذر لنا ، ولعلك قد سمعت من بقية القادة غيرى ، أننا المرة لسنا ككـل مرة ، نواجه عدوا يجرى منسحباً ، لنعلن إنتصارنا قبل أن تبدأ الحرب ، إننا يا سيدى نواجه ما واجهه آباؤنا من فرعون عند الخروج من مصر فارين ، هكذا كتب علينا قديماً وحديثاً أن يكون المصريون عقابنا فى كل مرة .. لكن هذه المرة أخذونا على غرة ، وإنى لأقسم لك يا سيدى الجنرال أن الدبابات هنـا ، تنتحر فى معاركها الضارية بأعداد متزايدة ، وبمعدلات تفوق الوصف ، بل أن بعضها لا يبعد عن

بعضها المواجهة لها من الخصم سوى ياردات قليلة ، إنها معركة الالتحام والانتحار المريع ، إن قلبى لينقبض وأنا أرى جيلاً إسرائيليا كاملاً يباد عن آخره ، وإنى لأفكر .. كيف سنواجه أمهاتهم الثكلى ، وزوجاتهم الأرامل ، وذراريهم اليتامى ؟ كيف سنواجه إسرائيل نفسها بآلتها الحربية المكسورة ، وأعلامها المنكسة ؟ . إن لى مع الحروب جولات وجولات ، فقد شاركت فى الحرب الكونية على الجبهة الروسية ، وفى الحروب العربية السابقة ، حتى حرب فيتنام ، لكنى لم أشهد مطلقاً حرباً ضروساً كهذه . إن أمامى ميدان شاسع بعرض الصحراء كلها ، تجرى على رمالها أبشع مجذرة آدمية لشعبنا ، حيث تترامى جميع أنواع الأسلحة لجيشنا محطمة ومحترقة تماماً ، ومختلطة بالأشلاء الآدمية المزقة والمتفحمة لجنودنا ..

ثم بكى وهو يقول :

- إن جنودنا يا سيدى الجنرال ، عندما ندفع بهم نحو الجبهة المصرية ، إنما تعطيهم تذكرة ذهاب بلا عودة دون أن يعلموا ، فيندفعون فى أحضان عدو كالمنون ، يتخطف رؤسهم ، ويذوى شبابهم بلا رحمة ، وبقسوة تجل عن كل وصف . حق لشعب موسى أن يقف له إجلالاً وتعظيماً ، لقدرته بفضل الرب ، على إنقاذ شعبنا القديم وآباءنا من يد المصريين .

وبان التأثر على صوت القائد العام للجبهة الجنوبية وهو يواسى جنراله :

- ليكن الرب فى عوننا هذه المرة .

- وليأت لنا بموسى جديد ينقذنا .

فضحك القائد معلقاً فى سخرية .

— لا تحزن إن لدينا قائدنا الهمام موسى ديان ..!.

- وهل تقارن يا سيدى القائد بين موسى بن عمران كليم الله وبين هذا الموسى ديان كليم الشيطان ؟!.

فضحك القائد الجنوبى رغم همومه وأحزانه من كل قلبه ، وانفتح قلبه لدانى وصاح فيه مبتهجاً :

ـ تستطيع أن تتأكد الآن من أننى سوف أساعدك ما استطعت .

ـ إننى فى أشد الشوق الى ذلك ، وها أنا ألعق جراحى بعد أن قفلت عائداً على طريق أكافيش ، بمنطقة كيشوف أنتظر الامدادات ، بعد أن خسرت كل رجالى بدبابتهم وعرباتهم المدرعة .

ـ إذن فامل إحتياجاتك العاجلة ولا تغالى :

وهنا ناوله آمنون الذى كان يتابع المكالمة من تحت أذنه ، ناوله ورقة أخذ دانى يحدد منها إحتياجاته، وعند قراءة كل رقم كان آمنون يهزله رأسه مشجعاً ، حتى إذا إنتهى منها ، ختم كلامه بقوله :

ـ المهم الطيران . نعم ، إننى لن أخطو خطوة واحدة دون غطاء جوى
فجاءه رد القائد قائلا :

ـ إن التعويضات لدينا منها الكثير فى السلاح ، لقد فتح لنا قارون الامريكى خزائنه .. لكن المهم جنودنا ، لقد فقدنا منهم الكثير ، ولن نستطيع أن نواصل الحرب مع هذه المعدلات الكبيرة فى الخسائر البشرية ، وهذه هى مسئوليتكم . فالتعويض جائز فى السلاح ، أما الأفراد فمستحيل .

ـ لا مفر يا سيدى القائد ، لا بد من التضحية بزهرة شبابنا ، إذا أردنا المحافظة على دولتنا الشابة ، وسط هذا الطوفان .

ـ ليكن الرب حامينا ، وحافظ جنودنا . وانتظر مكانك الامدادات .

وإنهى المكالمة ، وما كاد يضع السماعة وقد أحس ببعض الراحة ، حتى أحس بوخز فى رأسه ، فاستنجد بالطبيب ، الذى وجد بها جرح قديم ، بدأ ينضح دما متقيحاً من جديد ، فأسرع ينظفه له ويضمده ، وقد استكان له دانى الذى

أحس برياح اليأس تجتاحه من جديد ، وتملكه خوف مجهول ، واجتاحه شعور بالموت الدانى ، فنعض عليه حياته

وكانت حركة الجنود الاسرائليين الجرحى من حوله تثير اشمئزازه ، وتذكره بالموت والضياع فى كل لحظة ، حيث تساقط منهم الكثير أمام عينيه صريعو الحمى ، وقال وهو يهز رأسه فى جملة اعتراضية .

ـ كأننا شادر من الاخشاب امسكت به النيران من كل صوب . إننا نحترق جميعاً .

وعلق آمنون غاضباً ، وقد رأى جندياً مشوه الوجه يضمدون له ذراعيه .

ـ ما أتفهنا ، بل ما أغبانا يا عزيزى الجنرال ، أنلقم الجمر فى هذا الجحيم من أجل هذه الرمال الممتدة بلا نهاية ..!؟ إننا منذ النبى موسى حتى الآن ، ونحن نحاول دون جدوى ، سندفن تحت الرمال الصامتة ، كما دفن كل من سبقنا ، والعجيب أننا نغدو ونروح عليها ، ونقبر تحتها ، دون أن نحمل ذرة رمل واحدة من مكانها ..

فتدخل جندى مدفعجى كان يقدم لهما مشروباً من المعلبات الأمريكية :

ـ إنها أرض الله .. لها الخلود ، ولنا الموت .

فصاح فيه دانى بوقاحة :

ـ هل بقى للرعاع رأى ، كف عن قراءاتك فى التوراة التى أتلفتك ، ولا تتدخل فى حديث الرؤساء أيها الغبى الوقح .

فانسحب الجندى مرتعداً ، بينما جلس آمنون القرفصاء ، ورفع قبضته بحفنة من الرمال ، وأستل نفساً عميقاً وهمس كمن يكلم الرمال :

ـ اعطنى سرك ، اعطك حياتى .

ثم هم واقفاً ينفض يديه :

ـ ولكن ابداً لن تبوحين ، وإننى اعلم الخلق جميعاً ، بأنك لأصحابك ، وهم ينامون كثيراً ، ولكن صحوتهم مرعبة ، وإنهم الفراعين حقا .

وانتابت القائد الاسرائيلى مسحة صوفية ، فتمتم شيئاً من التوراة ، وهمهم :

ـ لقد كان أجدادنا يشعلون الحروب بين الأميين ، بما يشيعونـه من الفتن والدسائس ، ثم يوقعونهم بعدها فى مهاوى الفقر والفاقة ، ويتاجرون فى مستقبلهم والسيطـرة عليهم ، أما الآن ، فليـرحى لنا أجـدادنا ، لقـد تخلينا عن فضيلـة الاجداد ، لنصبح وقوداً لتلك الحروب التى نشعلها بأنفسنا . إننا دائماً . كنـا نضحى دائماً بغيرنا ، من أجل هدف شعبنا الأوحد ، والآن فإن حماقاتنا الغبية قد جعلتنا وقوداً وضحايا لهذه الاغراض .

ونظر دانى ناحيته مأخوذاً بحالة الوجد التى انتابتـه ، ثم عبث فى جعبة إلى جواره ، وأخرج كتيباً مصقول الغلاف ، تتصدره صورة النبى داود وسط نجمته السداسية بلحيته الكثة وشاربة الذى تدلى حتى نهاية ذقنة من الطرفـين ، وقد نقشت هذه العبارة على شكل منحنى يحوط بخوذة النبى داود الحربية : « نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم الأممى ومفسدية ، ومحركى الفتن فيه وجلادية » وتحتها نقش إسم المؤلف « د . أوسكار ليڤى » وناوله لآمنون مساعده ، وهو يقول له :

ــ هذا سفر جديد لنبى جديد من أنبياء بنى إسرائيل .

فزفر زفرة ألم ، جمع فيها كل ما فى نفسه من شتات ، وقال ساخطاً :

ــما أكثر أنبياء بنى إسرائيل ، إنك يا سيدى تذكرنى بسفر أشعيا ، لقـد عددت فى هذا السفر عشرات الأنبياء ، الذين جاءوا وذهبوا دونما فائدة كانـوا جميعاً مهرة فى جمع المال .

فقاطعه دانى معترضاً :

ـ بل قتلهم شعبنا .. كانوا ضعفاء ، أما صديقنا ليقى هذا فهو يـأمل فى إندحار الجويم (كل شعوب العالم عدا اليهود) ليخضعوا يوما لسيطرة شعبنا ، وقد فتحت محاضراته ، الطريق أمام قوادنا العظام من الحرس القدييم إلى قيام دولتنا التى ستكون بذرة أحلامنا ، للاستيلاء على العالم .

ـ أليس هذا الرجل ليڤى ، هو تلميذ ورفيق الدكتور هرتزل .

ـ وأستاذ الدكتور وايزمان مؤسس دولتنا وهو الذى أخرج برتكولات صهيون إلى الوجود ، وكان وراء الهمجية البلشفية ومفجرها . كان أستاذاً بحق ، وباعثاً . لشعبنا وملهماً لقوادنا ، وخاصة موشى ديان .

فبصق آمنون آسفاً ومقاطعاً :

ـ لا تأت بذكر هذا الأعور ، أرجوك يا عزيزى الجنرال .

ـ ألم يقولوا عنه بعد حرب الأيام السته ، أنه مبعوث السماء لإنقاذ بنى إسرائيل فى الأرض .

ـ لا . لا يا سيدى لا تقل هذا ، إن الأعور لو وجد فى السماء لأفسدها ، ثم دعنى أعاتبك يا سيدى ، أليس هذا الرجل نصاباً وكذوباً ، وإدعى لنفسه نصراً لم يحرزه ، إن كل ما فعله يا عزيزى الجنرال ـ ونحن جميعاً نعلم ذلك ـ أنه جلس فى مكتبه فى القدس يتقبل التهانى بالنصر ، والذى لم يغادره منذ أن قامت الحرب ، ولقد كنت أحد كبار ياورانه ، ورأيته بعينى يرتجف قبل الحرب ، وقد تناول أكبر جرعة من الحبوب المهدأة ، عندما إتصلت به وزارة الدفاع ، وأخبرته ببدأ القتال ، بعدها راح فى غيبوبة ، وقد إنطرح على أريكة أمامه متهاوياً ، كان ضعيفاً إلى درجة يرثى لها . وفجأة وجد نفسه فارس العصر بلا مناسبة .

فاكتأب دانى ، وضرب جبهته فى يأس ، وافترش الأرض وهو يدمدم من بينى أسنانه :

ـ كلنا أدعياء وكذبة .

ـــ حقا يا سيدى إنها لحظة الهزيمة ، التى تتجرد فيها النفس من كل إدعاء .

* * *

تقدم عامى ضابط الإشارة إلى قائده الجنرال دانى فى ذلة وهو يخبره مهموماً أن الجنود فى هنجر الرعاية هائجون وهم يتقاتلون ويقذفون بعضهم البعض بالدبش ، ويتبادلون الإتهامات والسباب ، ثم سأله أن يدخل عليهم ليوقف هذه المهزلة حيث أن معظمهم يعانى من الإصابات والأرق والحمى الناتجة عن الحروق ، ولما إستجاب له ، إرتفعت عقيرتهم بالتزمر ، إلى حد أنهم تمردوا عليه ورموه بالعلب الفارغة واندفعوا ناحيته فى مظاهرة عدائية مطالبين بالإنسحاب إلى الممرات ، للحصول على الطعام والراحة من المعارك والتداوى وإلتقاط الأنفاس ، وكان رد آمنون عليهم عنيفاً وفظاً ، وسبهم سباً مقزعاً ، واسترسل فى تهديداته حتى قال :

ـــ ورب اسرائيل لو تحرك أحدكم من غير أمرى خطوة واحدة ، أو حتى رفع يده يدفع عن أنفه ذبابة بدون إذن ، لأرديته قتيلاً فى الحال ، أفيقوا لأنفسكم يا حثالة المجتمعات ، ونفاية بلاد الأرض ، وليكن ديدنكم الصمت والطاعة حتى نلقى مخرجاً من هذا الجحيم .

وقبل أن ينتهى هذا اللقاء العاصف ، إنعقدت فى الجو بعض السحب ، وتلبدت السماء بالغيوم ، ثم انفجر هزيم الرعد ، وهطلت الأمطار مدراراً ، ثم إنقبضت السماء وأطلقت مطراً به جليد ، فاندفع الجنود نحو الملجأ الكبير ، حيث وجدوا قائدهم دانى ، يجلس إلى نار شديدة ، أضرمها جندى المراسلة وجندى الاشارة فى بعض الأخشاب ، وجلس على حاشية من الجلد ، يجرع الشمبانيا فى نهم ، وقد إنسدل شعر رأسه الطويل على وجهه اشعثاً أغبراً متسخ الثياب ، فصاحوا وقد تركوا الجنرال آمنون فى الخارج يهذى وهو يهددهم ويتوعدهم حتى بح صوته .

ــ أتعيش يا سيدى القائد فى كل هذا النعيم هنا ، ونحن فى الطل بالخارج نواجه الريح العاصف والمطر القاتل والبرد القارس مع الجوع والعرى والبؤس ؟ . أهكذا تكون القيادة ؟.

واندفعوا نحو النار يستدفئون ، بينما إنتزع البعض زجاجة أو إثنتين من الخمور وراحوا يجرعونها بالتبادل فى نهم شديد ، بينما إتجه أفراد منهم نحو مخزن المخبأ يبحث عن طعام ، تم هذا كله وسط ذهول دانى ، الذى فتح عينيه حتى كادت أن تخرج من محجريها ، حتى أنه عندما وجد آمنون يدخل عليهم بتهديداته ، وقد شرع فى وجوههم مسدسه ، وخلفه كوكبة من حرسه ، بين أيديهم مدافعهم الرشاشة (أوزى) سريعة الطلقات ، وراح آمنون يصرخ فيهم :

ــ أخرجوا . هذا أمر ، إلى ملاجئكم . سأعد ثلاثة ثم أطلق النار .

ولكن الجنود الجواعى المروضين استمرأوا الدفء ، وتلذذوا بزدرد الطعام والشراب ، ولم يأبهوا لتهديد الجنرال ، ولا بوعيده ، ولا حتى عندما أخذ يعد :

ــ واحد .. إثنين .. ثلاثة .

وقبل أن يطلق مسدسه عليهم ، استوقفه الجنرال دانى ، الذى كان فى دهشة من الموقف كله ، وهو يشير إليه :

ــ دعهم يا عزيزى آمى .

فتراجع آمنون وهو يغلى من الغيظ قائلاً :

ــ وهل من العسكرية فى شىء ؛ أن يتركوا سلاحهم فى العراء ، ويهرعون كالجرزان هكذا ، إن بضعة عشرات من مشاة المصريين ، لو هاجمونا ، لصرنا لقمة صائغة سهلة لهم ، وحالنا هكذا .

فجلس دانى حزيناً على إحدى صناديق الزخيرة ، وهو يعدل من ياقة معطفه الأنيق رغم إتساخه ، وقال بنبرات تنقصها الإرادة :

ـــ ليس هذا ما أفكر فيه ، إن نجدة ضرورية من القيادة ، لابد منها الآن لإنقاذنا .

إنك مخطىء يا عزيزى آمى ، فهؤلاء لا يصلحون لأى قتال .

وفى تلك اللحظة حلقت فوق المنطقة ، الطائرات الاسرائيلية بأعداد ضخمة ، أتت على إرتفاع واطى ، لامعة وجديدة ، كانت تمرق كالسهام ، لا تكاد ترى ، وكانت الأسراب تتابع ، بعضها كان بدون نجمة داود الشهيرة ، وبعضها على طلائه من سلاح الجو الأمريكى ، وكانت إتجاهاتها إلى هبوط نحو الأرض عند إقترابها غرباً ، فانشرح صدر دانى وصاح متهللاً ، وقد إرتفعت معنوياته ، وعادت آماله إلى البذوغ بعد إنهيارها المفاجىء :

ـــ حسناً ، لقد جاءوا أخيراً لخلاصنا .

وأغارت الطائرات الاسرائيلية على الفرقة ١٦ ، واللواء المدرع ٢١ ، بقرية الجلاء ، كانت تلقى عليها بآلاف الأطنان من القنابل زنة ألفى رطل ، فتخلف وراءها حفراً فى حجم العمارات الضخمة ، وتثير معها سحابات من الغبار ورزاز المياه الجوفيه مساحة عدة أميال مربعة ، وكانت غلالات النار ، والسنة اللهب ترتفع إلى عدة أمتار فى الجو ، فتجعل الأفق كالجمر الملتهب ، تغطيها طبقات من الدخان الكثيف المتراكم .

وعلى الفور بدأت الدفاعات الأرضية ، فى التعامل مع هذه الطائرات المغيرة بكل معدات الضرب ، الثقيل منها والخفيف ، من الصواريخ سام ٢ للطيران العالى ، وسام ٣ للارتفاعات المتوسطة ، وسام ٦ للواطى إلى سام ٧ وهو صاروخ على أكتاف المشاة المدرعين . وكأنما بهذه الأسراب من الطائرات مع الموت والدمار على موعد ، فبدأت تتهاوى بأعداد كبيرة ، ورغم ذلك ، فقد كان واضحاً أنهم يركزون جل إهتمامهم على إحداث ثغرة فى دفاعات الفرقة ١٦ للنفاذ منها إلى القناة .

ظلت الغارات الكثيفة بأعداد تفوق الوصف ، تتدافع فوق قرية الجلاء ، حتى إمتلأت الأرض بأشلائها المتطايرة ، حتى كف أخيراً عن محاولاته الفاشلة والمتسمية .

وكان دانى وآمنون ، يعدان الطائرات المغيرة ، ويقدرانها بالنوع وبالاعداد : هذه عشر فانتوم ، بل عشرون ، ها قد أصبح العدد خمسون كاملاً . ثم يصفقان ، وعيونهما فى السماء تلتقط الأعداد الجديدة اللامعة بفرح يجل عن الوصف ، حتى أن آمنون صاح قائلاً :

ــ ها هو العمّ يأتى لإنقاذنا ، كعادته كل مرة .

فعلق دانى بمرارة :

ــ إلا هذه المرة .. لقد فاجأنا المصريون ونحن عراة .

ــ لا عليك ، هذه الطائرات تكفى لتدمير الجيش المصرى كله ، وليس مجرد فرقة ، كهذه الفرقة اللعينة بالمزرعة الصينية .

ــ هذا ضرورى يا عزيزى آمى ، إذا قدر لنا أن نضع حداً لهذه المجزرة الآدمية التى نتعرض لها .

ــ إنتظر ، ولسوف ترى .

ولكن إنتظارهما طال ، ولم تعد الطائرات الاسرائيلية إلا فرادى ، كأن معظمها قد قطعت تذكرة الذهاب بلا عودة ! وقبل أن يفيق فاجأه عامى بسماعة التليفون ليتكلم مع قيادته ، فاغتبط وهو يسمع صوت قائد الجبهة يطلب منه تحديد موقفه بدقة ليستقبل الإمدادات الجديدة بقيادة الجنرال عيران زيفى فابتأس وركبه الغم وصاح فى قائده :

« مستحيل .. كله إلا عيران زيفى ، أسوا جنرال فى اسرائيل .. كيف أتعامل مع معرص يدير مواخير يافا وأستشيره فى أمور الحرب ! فنهره قائده :

ـ عليك بضبط النفس ، وأنصحك بعدم الإعتراض مرة أخرى ، وسأعتبر نفسى لم أسمع منك شيئاً .

ـ حسناً يا سيدى لن أعترض .

ـ عليك أن تضغط بكل قوة لفتح طريق أكافيش للوصول إلى المياه .

ـ بكل تأكيد يا سيدى .

ـ وسأقدم لك مساعدة قوية من المظليين ومن الطيران .

ـ أين هو الطيران يا سيدى .. إنه يذهب إلى المصريين بلا عودة .

ـ هل ترى المعركة عن قرب ؟

ـ بالعين المجردة .

ـ سنبحث الأمر مع القادة الأمريكان ، عليك الآن أن تستعيد روح القتال فى جنودك ، وتعلن التعبئة فى إنتظار القوة ، وليكن الحظ فى جانبك هذه المرة .

ـ أرجو هذا يا سيدى .

ورمى الهاتف من يده ثم بصق ، وهب غاضباً فى وجه المضمد الذى يربط رأسه :

ـ إنهم يسيئون إلينا برجالهم الاقذار ، وتصرفاتهم المشبوهة !

ثم هب خارجاً وهو يشتم كل قادته ويركل كل من يقترب منه ، وراح يعاتب نائبه آمنون صائحاً :

إنهم يفرضون علىّ أن أتعامل مع معرص ! .

فرد عليه ليهدأه :

ـ ولو .. فليرسلوا إلينا الشيطان نفسه .. المهم أن نعاود الهجوم يا عزيزى دانى .

ــ هل تقبل أن يحل هذا العيران محلك ؟

ــ ومن قال هذا ؟ إصبر ولسوف نرغمه على طاعتنا .

ــ وإن ظل على تمرده ؟

ــ رصاصة واحدة طائشّة من أى مسدس تضع نهاية لهذه المشكلة .

فضحك دانى ضحكة بلهاء ، وصاح فى نائبه وهو يدق على ظهره منسجماً :

ــ إنك لمدهش حقاً يا آمى . ولديك دائماً حلولاً باهرة ..

وإستلقى الرجلان يعاقران كئوسهما فى ثمالة وإنبساط .

الفصل الرابع

الاستعداد لتلقى الهجوم :

كان الليل قد هبط قبل أن تنتهى قوات الفرقة ١٦ ؛ من تطهير آخـر جيوب العدو ، بهجومه الذى بدأه قبل الفجر بساعات ، وكانت الرياح قد بددت الروائح السامة التى خلفها بارود والمتفجـرات والصواريـخ ، وبعض مركبـات القنابـل الكيماوية السامة التى إستعملها العدو فى هذا الهجوم بكثافة ملحوظة لأول مرة منذ بدأت الحرب .

وبدأت جماعات المشاة ومدرعات الكتائب المتقدمون ، الخروج من مكامنها ، تحت ستار الغبشة ، لتطهير المنطقة كلها من بقايا العدو المنـدحر ، والبحث عن جيوبه الهاربة ، وراء التلال والأحراش ،.وكانت غرفة قيادة اللواء ٢١ ، المدرع المتقدمة ، والتى تغوص تحت الأرض بأمتـار كثيرة ، فى حـالة اجتمـاع للقادة الكبار ، حيث إحتدم بينهم النقاش ، بعد النصر العظيم الذى عاجلوا به العدو ، واجتمع رأى قواد الكتائب والسرايا على ضرورة مطاردة العدو ، وإنتهاز الفرصة لاحتلال الطريق العرضى عند الطاسه ، لمنع العدو من استخدامه فى عمليات تجميع القوات والمناورة ، والتعبئة وإعادة عمليات التموين بالبنزين والزخيرة .

. أما العميد الطوبجى ، فقد جلس صامتا يستمع إلى كل تلك الآراء ، وكان يقوم من وقت إلى آخر فى صبر إلى التليفون ، ليرد على إستفسارات قائد اللواء وقائد الجيش ، فقد كانا يتصلان به فى كل ساعة تقريباً ، يحذرانه من موجات الهجوم المتلاطمة التى تتعرض له الفرقة والإصرار على تحطيمها ، كما أبلغه اللواء بدر ،

بأن الإستطلاعات المتقدمة ، تظهر موجة جديدة من الهجوم .. وإنما فى الطريق إلى اللواء فى غضون يوم أو يومين على الأكثر ، وهنا قطـع العميد الطـوبجى نقاش القادة ، بعد أن تنحنح قليلاً ، فصمت الجميع ، لقد كان وجهه المعبر ، ينبىء عن أمر بالغ الخطورة قد توصل إليه :

ـ أمامنا عمل عاجل ، هبوا الآن إلى قواتكم ، واجعلوا جزءاً منها لتطهير أرض المعركة ، والباقى للقيام باعادة عمليات الحفرو التحصين ، وإحذاروا البحيرة ، وكثفوا دفاعاتكم جنوب المزرعة ، حتى لا تنكشف المواقع ، أعيدوا تنظيم قواذف اللهب ومدافع الدخان ، وعربات الصـواريخ واعتنـوا أولاً بجرحـاكم ، وأمشوا خطوط الزخيرة . واستعدوا للجولة القادمة ، بارك الله فيكم ، ولتعلموا أن موقعكم غال جداً ، ولن تكون للحرب نهاية ، إلا إذا تحددت فى هذا الموقع ، هنا .

واحس القادة أن شيئاً فى الأفق تبدو بوادره ، ولم يحن الإفصاح عنه ، ومن ثم ، فقد قاموا منهين الإجتماع ، واثقين فى قائدهم الشجاع بأنه يرى مالا يرونه ، غاضبين فى نفس الوقت لعدم تمكينهم من العدو ، وتركه يلعق جراحه فى كل مرة ويعاود الهجوم .

كانت مدفعية المقدم عمار ، لازالت تدوى ، وتمطر فلول العدو المولية نحو الشرق بوابل كثيف من النيران ، حتى أنها أنهت تقريباً على كثير من مركبـاته الفارة ، وكانت جثث العدو المحترقة ، تفترس مسَاحات واسعة من أرض المعركة ، ولهول النيران المصرية وشدة دفاعاتها لم يعمد العدو هذه المرة إلى إخلاء قتلاه من أرض المعركة ، اذ حاول من قبل فى المرات السابقة ، فكانت قوافل الإنقاذ طعاماً سائغاً للمشاة المصريين ، تجندلوا بعدها إلى جوار قتـلاهم بالعشـرات ، وكان لفشلهم المرة تلو المرة أن إقتنعوا بأنه لا فائدة ، وتركوا ضحايا غرورهم من الجنود أشلاءً عارية فى البطحاء ، يحكون للبرية قصة إند حارهم ، ونهاية اسطورة جيش تسهال الذى أصابه الاسهال ، من جراء كثرة الخسائر ، وتوالى الهزائم ، وأصبح أفراده غنيمة لجوارح الليل وفئران الجبل المتوحشة .

وأنصت القادة ، حال خروجهم من الاجتماع الموسع ، إلى أزيز الرصاص ، وسألوا رجال الاستكشاف عن موقف العدو ، فصرخ العقيد عادل اسلام ، قائد المخابرات فى الفرقة .

ـــ اطمئنوا . إن العدو يهرب من الأسر ، وقد فقد كل حرارة على القتــال ، إسمعوا .. إن لى رجاء لديكم : لماذا لا تأخذوا بنصيحة العميد الطوبجى ؟

ثم ضحك مسرعاً إلى مخبأه ، ليعد تقريره عن المعركة ، وتصوره عن بانوراما الموقف كله ، طبقاً لآخر ما حصل عليه من معلومات .

وعندما خرج العميد الطوبجى يستعرض أوضاع القوات بعد صد الهجوم الكبير ، إتجه ناحية الأطراف ، عند الخطـوط الأماميـة ، وأحس به الجنـود فى مخابئهم ، فقاموا إليه وسط بعض الطلقات التى كانت تأتى عن بعد من العدو ، فصاح فيهم العميد الطوبجى :

ـ إنبطحوا .

فقال الجندى فى بهجة ونشوة لإحساسه بوجوده إلى جوار قائده الأعلى :

ـ سيدى ، إن الموت قدر مقدور ، وأن كل طلقة مكتوب عليها إسم صاحبها ، فلا داعى للخوف ياسيدى القائد . وإن كان لنا عمر باقى ، فسنكون محظوظين لنشهد أول إنتصار عظيم وأكيد على عدونا .. و ..

فأشار له القائد بالصمت ، إبتسم قائلاً :

ـ إنك فيلسوف .

ـ بل مقاتل فى المدفعية ولافخر .

ـ ما هى دراستك .

ـ الآداب واللغات الشرقية .

ـ غلبت عليك دراستك .

وضحك ، ثم ربت على كتفه وطلب إليه أن يتقدم بطلب إلى قائد السرية للالتحاق ، بسرية المعلومات الملحقة بقيادة اللواء ، وأنهى المقابلة قائلاً :

ـ إننا فى حاجة إلى جيش من المترجمين ، لا ستجواب الأسرى الذين زاد عددهم عن كل توقع .

فإبتسم الجندى فى خجل معتذراً :

ـ سيدى القائد ، إننى آسف جداً ، وارجو أن تكون رغبتى فى البقاء شافعة لى فى الاعفاء من هذه المهمة .

ـ لك ما تريد .

ـ إن ما أريده ، هو جنود الصاعقة ، وإقتحام الخطوط الامامية .

ـ لو لبيت كل طلباتكم ، لحولت الجيش كله إلى رماة .

ـ لكل منا ثأر فى صدره ، لا يشفى غليله سوى يده ! .

وإنطلق القائد نحو المواقع الممتدة على ضفاف البحيرة ، فوجد تل صخرى تعلوه شجرة عجوز وحيدة ، فتك بها صاروخ ، أطاح بما سورة المدفع عند جزعها ، وعندما إقترب من قاعدة المدفع بخطى وئيدة ، تخطى السترة الامامية التى مزقتها الشظايا ، وامامه كانت حفرة عميقة حفرتها القذائف ، وأضاءها ضوء القمر الشاحب المولى ، وقد مال فيها فم المدفع الهاون ، ومعه بقايا صاروخ تاو إسرائيلى منفجر ، لا زالت رائحته النفاذة تصك الأنوف ، رغم النهار الطويل الذى مضى عليها . وبحث القائد عن أفراد الطاقم ، غير أنه لم يعثر إلا على ما يشبه بقايا بشرية ، إنه شىء دام ومرعب وشنيع ، ولم يستطع أن يميز أحداً من جنوده الذين يعرفهم بالفرد والاسم ، وكان حطام صناديق الذخيرة الفارغة ممتزجاً مع خرق المعاطف ولفائف الساق والخراطيش الفارغة المتناثرة والمغروزة فى الأرض .

ومد القائد الحزين يده باحثاً متفحصا الصناديق والخراطيش ، نابشفا عما يمكن أن يشرح له كيف قتل جنوده الأعزاء على نفسه ، ودمعت عيناه :

ـــ إن لكم لديناً ثقيلا فى عنقى ، كيف متم ؟ لسوف أسأل عنكم يوم القيامة .

ولم يعثر على قنابل حتى فى مشاكيها ، وتمتم معلقاً :

ـ لقد استنفذوا جميع ذخيرتهم ! .

ثم استدار نحو المنحدر ، حيث تستقر قواعد الإطلاق ، فوجد جُندى التعمير منكفئين بلا رءوس تقريبياً وقد إحتضنا القاعدة ، فأغمض عينيه ، واستدار حول سترة موقع الرمى الأمامية ، وتفقد حفر القنابل أمام المدفع ، وفجأة رفع رأسه ومد بصرة إلى يسار الموقع ، إلى حفرة مراقبة القائد ، فرأى شيئا مدوراً ساكناً قائما على السترة الأمامية ، فقفز إلى الحفرة الصغيرة ، فتبين له بوضوح شخصاً يسند صدره إلى حافة الحفرة ، كان محدودباً على نفسه ، ووجهه إلى أسفل ، وكان مستقراً على قبضتى يديه ، كان يبدو عليه إمارات التفكير ، وإلى جواره منظار ليلى ، لقد بدا على وجهه عندما قلبه قائده العجالة واليأس الصامت ، والقلق المضنى ، ولربما كان ـ حينئذ ـ يصدر أمراً لم ينفذ ، لا شيء ، سوى لأن جنوده لم يسمعوه ، ربما لأن أحداً منهم لم يكن إذ ذاك حياً .. ! .

ومات حامد سلامة ضابط المدفعية شهيداً ، ووجهه ملقى على قبضتى يديه .

وعندما إنتقل العميد الطوبجى بعينه فى المكان ، وجد ثلاث دبابات ، مدمرة تماماً للعدو من نوع السنتريون حديثة الإنتاج ، فقد كانت بلبسها لامعة ومصقولة ، ومدافعها نحو قاعدة المدفع ، ويبدو أنها قد فاجأت طاقم المدفع من الخلف فدمرته ، وأطاحت بماسورة المدفع ، ولكن كيف ؟ ومن دمر الدبابات الاسرائيلية وكيف ؟ . وهز رأسه فى حيرة وتمتم :

– من دمر من ؟ إنها الحرب ، وتلك أحاجيها المحيرة .

وعندما تراجع ، كان ثقيل الخطو ، لقد كانت خسائره كبيرة نسبياً رغم قصر المدة التى دارت فيها المعركة ، وربما كان ذلك راجعاً إلى تهور البعض نتيجة الحماس الزائد ، وإندفاعه نحو العدو ليأكله ، لقد صنعوا من أجسادهم ساتراً من النيران المشتعلة تلتهم العدو أينما وجدوه ، وقد استهانوا بحياتهم فى سبيل حفر

القبر للعدو بأسرع ما يمكن ، فتحقق لهم ما أرادوا فى مدة لا تقاس أبداً ، نظراً لقوة دروع العدو ، وأعدادها الوفيرة ، التى كانت تنحدر عليهم من الشرق كسيل العرم .

وعندما التقى برئيس أركانه على مرمى خطوات من مواقع الـرمى على شط البحيرة ، همس له با نطباع سريع :

– إن الجهد الأمريكى أصبح واضحاً .

– تماماً ، فلقد عثرنا على أطقم كاملة لبعض الدبابات ، أمريكية الجنسية .

– ووقعوا فى الأسر ؟ .

– نعم يا سيدى العميد جنسيتهم مزدوجة . أمريكية/اسرائيلية .

– هل أُبلغ القيادة ؟

– بسرعة ، حتى يعدوا للأمر أهبته ، إن السلاح ، وخصوصاً الدبـابات والصواريخ التى نواجهها الآن من الأجيال المتقدمة جداً ، بل هى آخر الأجيال .

– وهذا هو السر فيما نواجهه من خسائر .

ماذا تنتظر .. إن دروعهم من الصلب ، تتلقاها سواعد جنودنا الفولاذية . ما أعظمهم من رجال ، إنهم خيرة جند أهل الأرض . ولقد هزموا إسرائيل هزيمة كاملة ، وهذا الذى يروه جهد امريكي فوق كل طاقة .

– ألهـذا رفضت أن نخرج لمطـاردة الأسرائيلـين فى العـراء ، وتمسكت بالحصون ؟

– ليس هذا فقط . إن مواقعنا هنا هى مفتاح المنطقة كلها .

– هذا واضح يا سيدى ، من التركيز الفظيع لموجات الهجوم المتوالية علينا من العدو .

– إننا يجب أن نعد أنفسنا لمعركة جديدة . موجة جديدة من الهجوم .

– هل تظن ذلك ياسيدى ؟

– بكل تأكيد . ولكن يجب أن تقتصر هذه المعلومات علينـا ، نحن الإثنين فقط ، حتى لا يفت ذلك فى عضد الجنود .

– إنهم رجال يا سيدى القائد ، ولن يتركوا مواقعهم ، حتى ولوكان أمامهم الجن وليس الأمريكان .

– صدقت ، ولكن هل ترى ضرورة ، لتجديد دماء اللواء بمدد جديد ؟

– لا أظن ، وخصوصاً أن دفاعاتنا لا زالت بخير ، ولم يقـدر العدو عـلى إقتحامها ، وتدمرت موجاته تماماً على صخرتها الصلدة ، الواحدة تلو الأخرى ، ولقد إكتسبوا خبرة عظيمة فى التعامل مع العدو ، من الصعب تعويضهم .

– وهذا ما يجعلنى فى شغل شاغل من أجلهم .

– لا ياسيدى القائد ، لا تخش شيئاً ، إن هؤ لاء هم رجال الله .

– صدقت ياجلال .

وفى تلك اللحظة مرت عليهما ، عربات الراكشا اليدوية ، التى يدفعها أمامهم الجنود ، محملة بصناديق الذخيرة ، والالغام ، التى إنتشر الـرجال يبثـونها فى الخطوط الأمامية ، فى حقول واسعة ، عند مناطق إقتراب العدو ، وهم يجرون فى وضع القرفصاء ، وكان البعض يحمل بعض الجنود الجرحى ، يخلونهم من أرض المعركة ، إلى المستشفى داخل قرية الجلاء ، وقد بدت الضمائد البيضاء تلمع فى الظلة .

وبينما كان رجال الإشارة يتحركون فى كل الأنحاء فى خفة ، ووراءهم لفائف السلك يمدونها فى خطوط جديدة للتليفونات مـع تغيير المـواقع يتقـدمهم ضابط الإشارة شوقى الدهان، كان العميد الطوبجى وأركان حربه العقيد جلال همـام

والمقدم الترك يشرفان بأنفسهم على تنظيم المواقع ، وضمان وصول التعيينات الساخنة والجافة إلى الجنود فى مواعيدها ، وكانا يتذوقان مختلف أنواع الأطعمة ، ويشاركان الجنود عشاؤهم ويسامرونهم بتبادل النكات ، حتى أثناء احترام المعارك ، وكان الجنود يقدمون لهم شاياً ساخناً وطازجاً ، فيتقبلونه بنفس راضية ، وهم فى تنقلاتهم من موقع إلى آخر ، يناديان على كل جندى باسمه ، ويستمعان إلى رأيه فى إهتمام ، ويعملان به إذا كان صائباً ، ثم يتجهان إلى أسلحة الرمى وقواذف اللهب ، ويطمئنان فى كل وقت على إمدادات الزخيرة ، ويقفان على معدلات إستهلاكها ، كما كانوا لا يجعلون بينهم وبين رجل الإستكشاف أى حائل ، وكانت تكليفاتهم لرجال الاستكشاف محددة ودقيقة ، وكان رجال ابراهيم ادهم وعادل إسلام المستكشفون يندثوا فى كل لحظة بين صفوف العدو ، ويعدوا عليه أنفاسه ، وينقلوا تحركاته أولاً بأول إلى غرف العمليات المصرية ، فلم تُفَاجأ القوات المصرية بأى هجوم ، بل كانت تلك القوات هى السباقة فى مفاجأة العدو بمثلثات القتل الشهيرة التى كانت تستدرجه إليها .

واستطاعت أخيراً قوات التطهير أن تنتهى من أعمالها ، فى النصف الأخير من الليل والقمر محاق . وأقبل المقدم فهمى الترك قائد الصاعقة والمشاة المدرعون بتقديره إلى القائد الأعلى للجيش رأساً ، بما يفيد تطهير المنطقة من أى أثر للعدو ، فيما عدا الأسرى والأسلاب من الدبابات الصالحة للعمل ، بعد أن فر أطقمها دون قتال ، وقد حصرها وعدها مائة دبابة وتسع بالتمام والكمال ، هذا بخلاف الخرائط والمعدات الصغيرة ، أما عربيات جنود العدو ، فقد كانت كلها مدمرة تقريبا . فشكره اللواء بذر ، ومسح على منكبيه العريضين وقال :

ـ ليبارك لنا الله فيك وفى رجالك . أسرع بالأسرى إلى مقر مبنى الرى بالموقع (يقصد مزرعة الجلاء) ، أما بخصوص الدبابات ، فيمكن أن تسلمها للعقيد الشهابى .

ومديده ليسلم على قائد الصاعقة الفاقد ، كما كانوا يطلقون عليه ، وهزها بشدة مودعاً :

ـ رجالك ثروتنا الكبرى ، فلا تجازف بهم كما تفعل كل مرة .

ـ كيف لا ياسيدى اللواء ، وقد عودهم الأسرائيليون الهرب أمـامهم . إن أرواحهم دائماً قطافنا الدانية .

ـ معك الله .. ليعد الرجال إلى مكـانهم ، ولا تنس أن تشرف عـلى وجبتهم الساخنة والطازجة من الدجاج والفريك . إنها هدية من الجمعيات النسـائية ، قدمن بها خصيصاً للرجال .

ـ لهن الشكر ، ولمصر كل الفداء .

ـ إنها أنجبتكم كما أنجبتهن .

وانصرف المقدم الفاقد ، بعد أن أعطى تمامه واستدار على عقبيه ومضى إلى سبيله وقد دق كعبيه بشدة ، بينما إتجه القائد وأركان حربه نحو ضفاف البحيرة بعربة جيب خفيفة دون أى حراسة ، وما كاد يعبر التل ، حتى عثر على منخفض توقف أمامه ، لقد كان منظراً فريداً ما رآه . إنّ عشراً من دبابات العـدو كانت محطمة على حافة المنخفض ، وفى مواجهتها ثلاث دبابات مصرية إنصهرت مواسير مدافعها من كثرة إطلاق القذائف والمحروقات ، والعجيب أن دبابات الجانبين كانت لا تبعد عن بعضـها سوى بضعة أقدام ، وكانت مواسير مدافعها المحترقة تكاد أن تكون متلامسة ، فاستل نفساً عميقاً وقال للعميد زاهر الريدى :

إنها أبلغ صورة للمعركة .. هل ترى ماذا فعل رجالنا .. هل يمكن أن يتصور أحد أن ثلاث دبابات مصرية تصيب عشراً إسرائيلية ، ولا تصاب إلا بعـد أن تنصهر مواسير المدافع ، ثم تتوقف عن الضرب .. !

ـ إنها ليست الدبابات فقط يا سيادة القائد .. إنظر .. واتجها إلى المنحدر ، ليجدان عشرات العربات المدرعة محترقة ، وأعداداً وفيرة من جنود العدو قتلى بين الرمال ، حيث هبت عليهم العواصف الرملية ودفنتهم تحتها ، وسار الرجلان فى المنخفض تحت ضغط الرياح الخريفية التى تجمد الأطراف ، وراحا يتفحصان القتلى بحثاً عن أطقم الدبابات المصرية الثلاث ، فأحس اللواءبدر قائد الجيش

بحركة تحت قدمه ، فتوقف وسلط أنوار بطاريته اليدوية إلى المكان ، فإذا بوجه محترق تماماً ، إختفت معالمه وتشوهت حتى لا يكاد المرء بإستطاعته أن يلقى عليه غير النظرة الأولى ، فأغمض اللواء وتابعه عيونهما ، ولكن الرجل دمدم بفم برزت أسنانه الملزوزة ، واحترقت شفتاه .. فخفض العميد الريدى رأسه منصتاً ، فإذا به يقول من خلال إنجليزية غير واضحة :

ـ ما...ء ، ما.. ما.. ء ، جر... عة وا... حدة .. فـ.. قط...إإنـ ..نـ..ى ، أ... مو.. ت .

وعندما إنكب عليه قائد الجيش ، هاجمتـه رائحة الجلـد المشوى النفـاذ مختلطة بروائح الدم والعرق البارد ، وكانت تنتابه تشنجات عصبية مصحوبـة بأنين وهذيان ، فانحنى عليه العميد أ . ح زاهر الريدى ، معفياً قائده من هذه المهمة الثقيلة :

ـ عنك ياسيدى القائد ، إنه يحتضر .. ولا يريد سوى جرعة من الماء ، إنه فيما يبدو من أطقم الدبابات الإسرائيلية .

فغمغم القائد الذى تأثر بالجريح ، بينما تناول نـائبه من السيـارة الجيب زمزمية مياة وراح يقطر له فى فمه ، الذى بدا مـلـزوزاً ، ففتح عينيـه التى بدت بيضاوية وبلا رموش من شدة ما يكابده من آلام ، وتطلع إلى الرجلـين بزهـة ، وأشار لهما بأن يطلقا عليه النار كى يرتاح ، فقال العميد بدر :

ـ لا يرجى من حالته .

وتركه مبتعداً ، بينما أخرج العقيد جلال مسدسه من جرابه ، وأبعد نظره فى الإتجاه العكسى وأطلق طلقة واحدة ومضى ، وقد أحس بثقل فى ذراعه ، وهمّ عظيم يجتاحه ، فرغم أنه عدو إلا أنه إنسان قبل إى شىء آخر .

* * *

عند منتصف الليل ، ظهرت أول دبابة إسرائيلية على الطاسه البحيرات ، ثم ما لبثت أن ظهرت باقى الدبابات تتقدمها العربات الخفيفة نصف جنزير والمصفحة (م ١٣ وعربات الصواريخ الرهيبة (س . س ١١) ، وفى المؤخرة عربات حاملات الجنود .. كانت الطوابير تتقاطر فى خطوط متوازية ومتباعدة ، وبحرص شديد ، ومن خلال المنظار زينون إستطاع دانى أن يرصدها من فوق إحدى التباب ، فأحس با نتعاش ، وتاقت نفسه المحبة للسيطرة وإصدار الأوامر ، أن يهيمن على قيادتها بسرعة ، فهتف من خلال اللاسلكى :

ــ هالو عيران ، لقد جئت فى وقتك تماماً ياعزيزى .

فرد الجنرال عيران بطريقة إستفزازية :

ــ هالو دانى . جئت لإنقاذك .

ــ إسمعنى زيفى . لقد إخترتك تحت قيادتى ، عليك أن تخلى دبابة القيادة وتتبعنى .

ــ إننى أقود أربع لواءات مدرعة وميكانيكية كاملة ، وبأمر القيادة هى تحت قيادتى .

ــ لقد حسمت القيادة الأمر . أنا القائد وأنت النائب وان لم تصدع للأمر فسأضربك بالرصاص .

وأخرج مسدسه يؤازره نائبه آمنون ، فأسقط فى يد عيران وتنحى عن القيادة لدانى ، الذى قسم قواته إلى جناح أيمن على رأسه آمنون وآخر أيسر لعيران ، ثم امتطى دبابة القيادة فى القلب تتقدمها العربات الخفيفة فى شبه موكب جنائزى تتلوى فى مسارها خوفاً من المفاجآت غير السارة فى الطريق .

وعندما ما وصلت عناصر الهجوم الاسرائيلى إلى حصن تل سلام (لاكيكان) ، وهو حصن مهجور سابق من حصون بارليف ، يقع على شط البحيرات المرة الكبرى ، كانت بوادر الفجر قد لاحت أنوارها ، فتوقفت القوة المقيدة الأنوار للقيام بعملية التنظيم والتزود بالزخيرة والوقود . وكانت قوافل

الامداد قد وافتهم منذ ساعات ، وفاجأتهم طائرات الميج مع أول ضوء ، وكأنها كانت معهم على ميعاد ، ودمرت لهم طابور المقدمة تماماً ، فأوقفت الحركة على الطريق ، ثم تفرغت لقوافل الامدادات والتموين الاسرائيلية فأتت عليها جميعاً ، واضطر القائد الاسرائيلى إلى أطلاق نفاثات الدخان الكثيفة فوق قواته لتخفيف حدة القصف المصرى عليها ، وكاد أن يبكى وهو يستنجد بالقيادة ، مستغيثا :

ـــ إننى أهلك مرة أخرى ، إلىّ بالغطاء الجوى قبل أن تتدمر جميع القوات .

ونفث الجنرال سحب الدخان بعصبية حتى كاد يحجب وجهه ذى الأنف الأقنى ، وكان واضحاً أن سمات اليأس تعصف به وصاح فى نائبه آمنون :

ـــ لم أعد أفهم شيئاً .

فقال آمنون مخففاً عليه وطأة العملية الجوية المفاجأة :

إن هذا هو ضباب الحرب التى كنت تلقيه علينا فى محاضراتك فى الجامعة العبرية ، ثم ونحن فى كلية الأركان .

فنفخ فوديه فى عصبية وتمتم متململاً فى مقعده الخشن ، وقد أثر عليه ، إفتقاره إلى النوم وآثار الخمر ، فضلا عن الجوع الذى عضه بنابه :

ـــ هل إنتهى الهجوم الجوى يا آمى .

ـــ ليس بعد يا سيدى الجنرال ، وأن خفت حدته .

ـــ الغريب أننا إتبعنا أساليب تعمية وتمويه لم يسبق إليها أحد .

ـــ إنهم يتتبعوننا بالعين البشرية . وفرق كبير بينها وبين الأجهزة التى يمكن تعميتها .

ـــ إنهم يستخدمون عنصر التفوق البشرى بطريقة مذهلة لأول مرة .

ـــ إنهم الصينيون يا سيدى ، وليس أحد غيرهم .

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ أعنى أن هذه الأفكار ، وتلك الأساليب لم يبتدعها غير الصينين .

ـــ تباً للجميع . لا بد أن نتجه فوراً للهجوم على الطالية قبل أن نباد .

فقاطعه عيران متعجرفاً :

ـــ ألست قائد الميمنة ؟

ـــ هو كذلك طبقا للخطة التى وضعتها أنا .

ـــ حقاً . أليس هجومى على الطالية ، أهم النطاقات الدفاعية على الجبهة

ـــ الأهم هو عبورنا إلى الغرب بأى ثمن .

ـــ إذن لابد أن تكون دباباتى فى المقدمة ، فى توقيت يسبق جميع القوات .

ـــ ولم العجلة ؟

ـــ أريد أن أنتهى من المهمة مبكراً لأكون أول العابرين إلى افريقيا قبل آمنون . فضحك دانى ضحكة صفراء وقال له بطرف أنفه كاظماً غيظه :

ـــ يا عزيزى عيرى ، إنها مجرد خطط ورقية ، أشبه شيئاً بموازنات الدولة العمومية ، مجرد أمانى نظرية غير قابلة للتحقيق . أما الواقع فهو دائماً ضرب من المستحيل .

ـــ يبدو أن نتائج المعارك الأخيرة قد أثرت فى معنوياتك . إن طموحى لن يقف أمامه شئ ، ولسوف أبلغ مأربى .

ـــ كيف أيها الجنرال ؟ يجب أن لا تتهور ، لابد أن تضع فى اعتبارك أن غابة الصواريخ المصرية اللعينة سوف تحيد الطيران الإسرائيلى .

ـــ أعلم ذلك

ـــ وأن الرمال تتحرك فجأة من الفضاء الفسسيح ، لتخرج لنا رماة الصواريخ كالصواعق ، لتكتسح كل ماله وجود على وجه الأرض .

ـــ يبدو أنك ياسيدى الجنرال تحدثنى عن نكتة سخيفة ، لقد علمونا فى مدرسة المدرعات أن دبابة العدو هى المشكلة فهى الهدف الأول ، أما المدافع المضادة للدبابات فهى الهدف الثانى ، وبعد ذلك يأتى الدور على فرد المشاة .

ـــ هذا فعلاً ما يجب أن أتوقعه من ضابط رديف . قذفت به التعبئة العامة من الفراش الدافىء والأحلام السعيدة إلى جوف دبابة باتون أمريكية إلى خطوط النار الملتهبة .

ـــ أنا أحتج ، إن ما تقوله ياسيدى تعريض بكفاءتى كضابط مدرعات من الطراز الأول . ولسوف تثبت لك الأيام أننى أول من ينجح فى العبور إلى الغرب .

ـــ هذا هو المستحيل بعينه ، ولا أدرى كيف ستنتهى الحرب بدون تحقيقه .

ـــ إن ما تقوله متناقض ومحير .

ـــ لن اكتمك سراً ، ومن يدرى أينا سيبقى للنهاية .

وتدخل آمنون منهياً الحوار الثقيل بين الرجلين . قال :

ـــ علينا أن نعمل بسرعة مهمال كان الثمن . لقد اكتشفوا وجودنا .

فأعرض دانى عن عيران ، وقال لآمنون فى لهجة مسرحية :

ـــ إذن فاجمع القادة ، واعطهم التعليمات الأخيرة . لسوف نظل فى كمون حتى حلول الظلام . ثم تتسلل الدبابات واحدة وراء الأخرى مقيدة الإضاءة إلى حافة المياه . نريد إن نصل إلى الهدف من أقرب طريق .

فنفخ عيران فوديه نفخة كاذبة ، وجذب نفساً عميقاً من سيجارته وسط نظرات دانى العدائية . وقال :

ـــ إن ثغرة خطيـرة تتخلل هذه الخطة ، لماذا لا نركز قوانا نـاحية الميـاه ونبعثرها على جبهة طويلة من الطالية إلى حصن بتسميد ! . إن الفشل ينتظرنا .

ـــ أنا القائد .. لى الأمر وعليك التنفيذ .

ـــ الحق أنك تريد أن تبعدنى إلى الطالية لتعبر أنت المياه إلى إفريقيا

ومرة أخرى تدخل آمنون ، وسحب عيران معه للتفاهم بعيداً عن دانى .

ولقد كان الجنرال دانى رجلاً فى الأربعينات من عمره ، ضئيل الجسم ، له وجه دقيق القسمات ، لا يظهر عليه أثر للسنين ولكنه قلق التعبير ، لا يعرف لنفسه تاريخاً بعينه ، وكل ما يذكره ، أنه كان صبياً ضائعاً أبحر يوما من على شواطىء نابولى ليجد نفسه فى يافا ، فالتحق بخدمة حان يهودى لبيع العاديات القديمة ، فشك فيه دانى ، لأن ثراء اليهودى يفوق دخل الحان من بيع بضائعه وكراكيبه الأثرية ، كما كان يدعى صاحب الحان .

وسرعان ما استطاع دانى بمهارته أن يصل إلى تجارة اليهودى الحقيقية ، فبعد أن حاز دانى على ثقة اليهودى ، عرف الطريق إلى الحياة السرية لليهودى صاحب الحان ، وكان يدعى يوئيل لاهف ، وبالفعل كان يوئيل يلهف أموال زبائنه عن طريق قطيع من الرقيق الأبيض ، يوظفهن لملاطفة ومضـاجعة زبـائنه من الانجليز وغيرهم ، وإستطاع دانى بحيويته وذكائه مع الزبائن أن يحصـل على عمولة خاصة ، يوماً صحا الناس على خبر حادث اليم ، راح ضحيته يوئيل لاهف نفسه تاركاً كل شىء لربيبه دانى الذى أصبح من أغنياء فلسطين بدون مناسبة ، عاش حيـاة الأغنياء جـداً ، وودع حياة الفقـر ، والضنك والتشـرد ، وسرعـان ما التحق بعصابة الهاجاناة ، والتى أصبحت جيش إسرائيل الرسمى بعد إعلان قيام دولة اسرائيل ، وأصبح دانى أحد جنوده ، حصل على عدة ترقيات متتالية ، وكان آخر ما وصل إليه هو قيادة الفرقة الخامسة المدرعة التى اقتحمت الضفة الغربية لنهر الأردن ، واحتل مدينة الخليل ، أمنية كل إسرائيلى ، ولكنه هذه المرة غير كل مرة ، تأت هزائمه المتتالية أمام الجبهة الجنوبية ، وخسائره التى فاقت كل حد تدفعه إلى الاحساس بالعار ، بل وجعله يفكر فى الإنتحار . وصاح وقد تهدج صوته :

ـــ ليكن هذا هو آخر المطاف .

وقطع بضع خطوات بين همومه وسط الجو الخريفي العاصف ، ولم يدر أنه أصبح بين رجال سرية البريجادير عاموس ، فتنبه حوله ، فإذا بهم ـــ أى الجنود من أطقم الدبابات ـــ قد أخلوا دباباتهم ، واندفعوا ناحية الصخور والكثبان خشية من إصابات قاذفات القنابل الدقيقة ، والتى أعطبت الكثير من الآليات ، كانوا منكبين على وجوههم ، وقد عكس ذلك درجة اعيائهم ومقدرتهم ، ولما تطلع فى وجوههم أحس بالإنزعاج على مدى احتمالهم فى مواصلة الهجوم القادم .

كان الجنرال دانى مرهقاً ، وكان يود أن يخر إلى الأرض مثل الآخرين ولكنه ظل يجول بين جنوده يحاول أن ينسى همومه ، لقد كان قائد الهجوم ومن واجبه أن يظهر مزيداً من القوة ، ولكن الريح الباردة التى كانت تعوى قادمة من البحيرة كانت تلسع جبهته تحت حافة خوذته وتقضم عنقه المتصبب عرقاً فتمنى لو أنه استطاع أن يهوى ويلوذ بحمى الأرض ، وأخذ يطل على مياه البحيرات الزرقاء ، فطرفت عيناه أمام أشعة نور الفجر الوليد ، وكان يقف على الرابية ويتابع بنظره حافة ساحل البحيرات الوعرة حتى نقطة ملتقى القناة وضباب الفجر الساحر ، ورأى المواقع المصرية غير الحصينة المتحركة فى كل لحظة كنقط سوداء تمتد إلى مالا نهاية ، وتذكر أيام يونيو ١٩٦٧ وما حققه من أمجاد فإنتعشت نفسه ، ونسى تعبه ، ولكن منظر الدبابت المتعثرة فى الوحل ، والجنود المنكفئين على وجوههم من شر الريح العاصف ، وأقفيتهم الملطخة بالوحل والسناج بفعل قنابل الدخان والحرائق التى أشعلتها القاذفات ، جعلته يراجع نفسه ويتذكر تحفظات الجنرال عيران زيفى ، ولكن سرعان ما تذكر هزائمه السابقة ، فأيقن أن طريقه هذا ـــ مهما كانت خسائره ـــ أدعى لإلتقاط الأنفاس من أن ينتحر ويلقى بنفسه فى مواجهة قوات الدفاع المصرية المحصنة .

ووافاه البريجادير عاموس ، وهو أشقر ينحدر من أرومه رومانية مشكوك فى يهوديتها ، وسيم وناعم وتنهدل خصلات شعره الأصفر على عينيه ، وقبل أن يعطى تمامه إلى رئيسه دانى ، أمره موبخاً بأن يلبس خوذته ، فانصاع عاموس ، ودق

كعبيه فى شدة ، وعظم فى قد ممشوق ، كما لو كان من رجال الحرس الملكى فى شرف استقبال الرؤساء ، ولكن دانى لم يرتح لهذا القائد الناعم الذى يذكره بالقوادين حين كان فى خدمة يوئيل لاهف ، وأورثه هذا الاحساس غصة فى حلقه ، ولكنه تغلب على شعورة هذا وراح يتفقد خسائره فإذا بها تفوق كل تصوراته فقال متحسراً :

ـ إن هذه خسائر لا تحتمل . إرفعوها بسرعة ، أين الأوناش والروافع ؟ إلىّ بها بسرعة ، حتى نخرج من هذا المستنقع .

وجرى الجنود فى كل إتجاه ، وتعاونوا فى احضار الروافع والأوناش لا خلاء الطريق ، بينما علق عاموس قائلاً :

ـ هذه الحرب طويلة طويلة ، ولم نعهدها من قبل .

فعنفه دانى ساخراً :

ـ ولسوف تضع الأمور فى نصابها ..

وتركه ومضى فبصق البريجادير الناعم فى أثره وقال غاضباً :

ـ إن كنت ذاهباً إلى الجحيم ، وتسعى إلى حتفك .. فليكن ، أما نحن فيجب أن نتحرك بعيداً ، لقد ضللنا الطريق معك ، إنك يا جنرال دانى رعديد رغم ما تتظاهر به من تماسك .

ثم إبتسم عاموس ، ودق الأرض المبتلة الموحلة فى غيظ ، فتناثر رزاز الماء والطين من حوله وأغرق وجهه وملابسه ، فبصق طيناً من فيه لا عناً قادته الأكابر واحداً وراء الأخر ، جزاء ما دفعوه إلى هذا المستنقع الذى يشبه القبر .

ولم يجد عاموس حلاً لازاحة الاكتئاب عن رأسه ، والإحساس بالضياع عن نفسه سوى الشراب ، فأسرع إلى دبابته التى كانت فى موضع حصين بين الكثبان تغطيها بعض الأشجار القصيرة ، فوافته عندها الكابتن لندا أهارون ، وهى فى الأصل نمساوية تعمل فى هيئة مطار تل أبيب ، ثم جندت مع المستكشفين لجرأتها ،

ولكن حقيقتها أنها أحبت جنود الاستكشاف من الطيـارين ، لأنها كـانت تحب ساعات الخلوة الطويلة بعيداً عن المواقع ، والانحلال الشديد بينهم دون رقيب ، ولما أُرغمت على الإنتقال إلى المدرعات ، وجدت فى عاموس مأربها ، وراحت تختلى به كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً ، حتى أنسته الجندية ، وجعلته يفكر فى الهرب ، لولا تلك الصحراء الممتدة بلا نهـاية ، والتى تمثـل لهما رادعـاً يصعب اجتيازه أو مراودته ، وهذا هو السبب فى مواصلتهما الزحف المقدس مع بقية قوة الهجوم حتى تلك اللحظة .

وبينما كانت لندامع عاموس غارقين فى الشراب على الرابية ، سمعا صوت النفير إيذاناً بالتحرك ففزعا وقاما مسرعين ينفضان عن أنفسهما آثار اللقاء المحموم وتراب الرابية والعرق البارد ، ويلعقان آخر ما تبقى فى زقيهما من خمر ، كـانا غاضبين ومتكاسلين ، وراحا يضربان سائق الدبابة لكسله هو الآخر ، وقالت له لندا وهى ثملة :

ـــ بسرعة يا منيّل قبل أن يأتى دانى الملعون ويسّود عيشتنا .

فرد عليها عاموس وقد أفقده الشراب وعيه :

ـــ وهل يجرؤ وأنا فيكم ؟

فعنفته لندا متحسرة على ذلك الزمن الذى الجأها إلى ناعم مثلها :

ـــ وهل تقدر على دفعه عن نفسك وحدك ياجان دارك الزمان ؟!

ـــ بل أقدر ، ولم لا ؟ . إن الحرب ساوت بيننا ، فأى جندى مهما كان حقيراً يستطيع أن يتصيد أى قائد مهما كان كبيراً فى مقتل .

ـــ ولكنها لم تحدث أبدا ، إنك سكير وتهذى .

ـــ لا .. لا لست سكيراً ، وقد أفعلها يوما .

فدفعته لندا إلى مؤخرة الدبابة ، وصاحت فى السـائق أن ينطلق بسرعـة ، ونشرت عليه بطانية وقد راح فى نوم عميق .

وتحركت القوة مستمرة فى سيرها شمالاً على طريق (ناهالا) بحذاء شاطىء البحيرة ، وفى الساعة الحادية عشر ظهراً ، أجبرت العواصف الشديدة والأمطار الغزيرة القوة على التوقف ، بيد أن حولت الشريط الساحلى كله إلى مستنقعات يصعب السير فيها ، فأمر القائد الاسرائيلى آمنون الدبابات بالانتشار ، للاحتماء بالكثبان الرملية والشجيرات القصيرة والأحراش المنتشرة فى المنطقة ، فصاح دانى مكتئباً :

ــ إنه لفأل سىء .

* *

الفصل الخامس

مصيدة الاقتراب القاتل :

أحس المقدم فهمى الترك أن الحاجة ماسة لمفاجأة العدو مفاجأة لا يتوقعها مطلقاً ، وكان على أشد ثقة بأن دانى لن يضيع وقته بالإلتفاف المعهود حول الهدف ، وأنه لسوف يتجه نحو المياه مباشرة ، فهى الهدف الذى بدا واضحاً ، ومن ثم فقد عمد بقواته الصاعقة إلى المياه ، وإحتل حصنى بارليف المدمرين (تل سلام — لا ككيان ـ) عند حافة البحيرة المرة الكبرى وحصن (بتسميد) على القناة إلى الشمال منه ، ثم دفع بقوات أخرى إختبأت بينهما على طول حافة القناة ، كما تقدم المقدم هارون ندا (الباشا) بقواته حملة (ال آر ـ بى ـ جى) إلى احتلال كل الهيئات والتباب العالية التى تشرف على المكان وتسيطر عليه ، وجعل صائدو الرءوس من حملة البنادق الكلاشنكوف على قمم هذه الهيئات ، وشرح لكل فريق منهما التكاليف المنوطة به ، ودوره كاملاً فى المعركة على إختلاف مراحلها . بينما إنهمك الترك فى تعديل أوضاع قواته وتوزيع قواذف اللهب ونفاثات الدخان على مواقع بعينها منسقاً بينها وبين حملة الصواريخ (سام ٧) المضاد للطائرات من رجال الملازم شافعى شاهين الذين تخير مواقعهم بين القوات فى تحفز ، وظل الجميع يتسقطون أخبار الهجوم الوشيك من رجال الإستكشاف أتباع المقدم إبراهيم أدهم بقيادة الملازم أحمد السكاكى الذين إندسوا بين قوات العدو ، وراحوا يرسلون فيض من المعلومات عن اتجاهات الهجوم وقوة تسليحه .

. جلس بعض ضباط المدفعية فى خندق بالقرب من الطريق الرئيسى تحف به المرتفعات ، كانوا ينظرون من خلال التلسكوب الميدانى إلى النقطة التى يختفى

عندها دغل البحيرات ، بين التلال المنخفضة . كانت الدبابات تتحرك كالبط العائم فى بحيرة آسنة الماء ، خلف التلات المترامية على إمتداد النظر ، ورذاذ الماء يتناثر من جنازيرها وهى تتعثر صاعدة فوق التل .

وفكر سيد خميس وهو يهرش رأسه :

ـ أهى دبابات إسرائيلية حقاً ؟

وصاح أحد ضباط المدفعية من رتبة نقيب بصوت أجش فى التليفون :

ـ إستعدوا !

وبينما كان فهيم المنزلاوى يبتعد ، سمع الأمر بتنفيذ التعليمات (ج) .

وتبعت ذلك طلقات تصم الآذان ، كانت الدبابات الاسرائيلية قد دخلت بالفعل نطاقات الرمى غير المباشر ، كانت تتقدم حثيثاً ، تتقدم فى قفزات محسوبة ثم تتوقف ، وكانت هناك طوابير طويلة تقتفى أثرها من الدبابات الباتون اللامعة ، والعربات المدرعة ، فعربات الصواريخ الرهيبة (س . س ١١١) والتى تحمى مائة عربة من حاملات الجنود .

ونظر المنزلاوى إلى زميله محمد بشير وغمز ناحية حاملات الجنود الاسرائيلية ، فتحسس الأخير عتلة مدفعه الآر . بى . جى . وهمس :

ـ إنها صيدنا الثمين هذه الليلة .

ـ إن يدى لا تطاوعنى .

وهم بضربها فأمسكه المنزلاوى وصاح فيه :

ـ لا وحياة أبوك ، فيها محكامة عسكرية هذه المرة ، كله إلا التهور ، العميد الطوبجى لايرحم أبوه .

ـ ربما يسعده هذا .

ـ هل جننت ! إنها خطة معركة كاملة .. وليس مجرد مجموعة سيارات .

ـ إن بها أكثر من ألفى جندى مشاة ومظلات .

ـ ولو

ـ وكلها تسير وراء بعضها كالطابور الجنائزى .

ــ إنك تسعى إلى السجن ياابن العم .

ــ لو صبرت عليها لتفرقت أثناء المعركة .

ــ كلمة واحدة أو حركة ، سأعتقلك بالقوة .

فجلس بشير صامتاً متوقعاً .

وكان الإسرائيليون قد اقتربوا من مركز المراقبة ، وقد إكتشفوا هوائياته العالية ، فأخذوا يمطرونه بوابل من رصاص رشاشاتهم ، وقد بدأت بعض دبابات آمنون تندفع نحو الأرض الواسعة الفضاء التى تلى الأدغال وقد زادت من سرعتها ، كل هذا والجبهة أمامهم صامتة صمت القبور .

كان الرجال ينتظرون ، وهم يكتمون غيظهم ، وتوغلت قوات عيران داخل نطاقات دفاعات الطالية كيلو مترين ، وأصبح الموقف ، كما يبدو لجنود المشاة ــ أكثر تعقيداً ، فلم يحدث للعميد الظوبجى أن سمح للإسرائيليين من قبل ، التوغل داخل المواقع بمثل هذا العمق الذى أدهش الإسرائيليين أنفسهم .

واضطر المقدم حسن عمار قائد مدفعية اللواء أن يتصل بالقيادة ــ المقر الرئيسى للواء ــ بضغط من رجاله ، وصاح فى البوق فى عصبية :

ــ آلو فهد يتكلم .

ــ آلو العرين رقم ١٠ معكم .

ــ إننا نتعرض لضغط من ستين دبابة على بعد مائتى متر .

ــ أنتظر الأوامر لاتتحرك .

ــ إن موقفى حرج ، حقيقة لم يهتدوا لمواقعنا ، لكن هذه المواقع تحت أقدامهم . الموقف خطر أكرر .

ــ سوف نتولى هذا الموضوع بأنفسنا . لكن إذا تجاوز مواقع رجالك فدعهم يمرون بسلام .

ــ فهمت الآن ياسيدى .. !

وأخذت الرموز والإشارات التليفونية المميزة لوحدات المدفعية الإضافية تزداد وتتوالى ، ووصلت إلى الاشارجى متولى القابع على ركبته من خلال أسلاك التليفون الممتدة ، كانت أنفاس وحشرجات المقاتلين ، وهم يتحفزون فى صمت

ودماؤهم تغلى ، واضطر الهادى أن ينهى إلى العقيد الريدى أركان حرب الجيش صوت قائد الصاعقة المقدم فهمى الترك هادئاً متزناً يسأله عن بعض تفصيلات الخطة الدقيقة ، فيجيبه وقد رسم على وجهه بسمة حالمة ، لقد كان متفائلاً ، كثير التلاوة لآيات ذكر الحكيم ثم التسبيح ، متخذاً من كبار قادة الإسلام العظام قدوة له ، وكان دائماً يقول لمستمعيه ، أن النصر دائماً يقوم على ركنين رئيسين هما : الإيمان والتقشف وله وسيلتين : الإستعداد الدائم للاشتباك فى كل لحظة والمباغتة ، وهذا لا يتحقق إلا بشىء هام هو المعرفة : معرفة قدرك ثم قدر عدوك واختيار أسلم السبل الذى يحقق مميزاتك وسلب مميزات العدو . وكان مثله الأعلى هو خالد بن الوليد ، القائد العربى الفذ .

وحضر على التو العقيد ابراهيم ادهم رئيس قلم المخابرات الجيش إلى مقر اللواء بدر للإطمئنان ، وقد نقل له تقريراً وافياً مع تمنيات قائد الفرقة ١٦ وقائد اللواء ٢١ المدرع بالتوفيق فى هذه المعركة ، التى يبدو أن القيادات العليا على طرفى جبهة الصراع يعولون عليها كثيراً ، فلربما يتوقف على نتجتها تطورات الحرب إن سلباً أو إيجاباً للطرفين ، كانت إجتماعات القادة حامية ، مفعمة بالحماس وتتناول أدق تفاصيل الخطة ، وكان الضباط النوبتجيون فى مقر قيادة الجيش ومقر قيادة الفرقة ، وغرف الكتائب المتقدمة يوجهون الأسئلة ، ويصدرون الأوامر ويصيحون حتى تبح أصواتهم .

وبينما كان القادة والجنود فى مخابئهم ينصتون إلى هذه التعليمات والمحادثات ، كانت الأرض تهتز من حولهم بفعل انفجار قنابل المورتر وقذائف الدبابات الاستكشافية ، واتفق أن الملازم الصاروخى محمد بشير قد ضاق ذرعاً بموقف السكون ومشقة الإنتظار ، فزحف حتى وقف بين دغل قريب يراقب تقدم العدو من موقف المراقب ، صحيح أنه هجم عليهم كثيراً ، وقتل منهم الكثير ، ولكنه لم يتوقف لحظة ليرى ذلك اليهودى الذى جاء ليحارب لأول مرة فى التاريخ ، لقد قرأ عن عدوه الكثير ، وعرف أنه لا يحارب أبداً ، ودائماً ما يضحى بغيره ليجنى هو الثمار ، وإذا اضطر للقتال ، فمن خلال الحصون أو وراء جدر ، سبحان الله ، صدق الله فى قرآنه المجيد ، لقد بنوا الحصون والقلاع فى سيناء ، فلما دُمرت ،

جاءوا داخل جُدر من دروع الصلب ، لم ير سحنة أحدهم ، لقد كانوا مختفين تماماً داخل هذه المدرعات الأمريكية ، وإذا أحسوا بالخطر ولوا فراراً ، لايقوون على المناجزة ، ولكن على الجرى والمخاتلة ، لا يدخل موقفاً إلا وكان يضمن له نسبة أمان عالية ، ونظر حوله ، لقد كانت المجموعة الخامسة ساكنة ، لا صوت ولا حركة ، وكانت الفصيلة الثانية تزحف على بطونها لتحسين أوضاعهم لاحكام قبضتهم حول العدو ، وعلى ظهورها مواسير الصواريخ القواذف الواسعة القصيرة ، ثم فصائل المدفعية الآلية التى كانت توجه مواسيرها فى كل لحظة نحو أوضاع العدو الجديدة راداريا . كما تأمل المقاتلين من حوله ، لقد تبددت الأسماء والرتب ، وذاب الكل فى الكل كمجاميع عمل ، كلٌ يعرف دوره فى الخطة يؤديه فى صمت . وأفاق الملازم أول بشير على صوت صديقه فهيم المنزلاوى وهو يهمس له بصوت حميم :

ــ حسناً ، كيف الحال ؟ هل كل شىء على مايرام الآن ؟

ــ الحمد لله ياصديقى ، الآن هدأت الحمية إلى حين .

ــ تصور ياأخى اننا لم نعد نخشاهم .

وابتسم معنياً مايقول ثم إسترسل :

ــ نحن لم نعد فى عام النكسة ، وقت إن كنا نتصور اليهود قوى خرافية ، لقد تغير الزمن . إن ما يدور فى أذهاننا جميعاً هو واحد . الست ..

ــ كُفْ من فضلك . لقد تجاوزوا مواقع الدفاعات الأمامية دون أن يكتشفوا شيئاً ، وأصبحوا فى الأرض الفضاء شرق القرية ، ما هذا القائد الأرعن ، الذى يريد أن يدخل عرين الأسد بالمواجهة ، أنه ما من شك قد جن . هيا إلى المواقع لأننى أحس بأن اللحظة الحاسمة تقترب .

وفى تلك اللحظة لمح الرجلان بضعة من جنود الإشارة ، كانوا يحملون لفات من السلك ، وكانوا يفكونها ويربطون الأسلاك إلى فروع الأشجار ، وهم

يتدحرجون خفية بين شجيرات الأذغال ، وكان على رأسهم ضابط شاب نحيل الجسم داكن البشرة ، كان يحث رجاله على الإنتهاء بسرعة من ربط الدغل بمقر القيادة الرئيسى للواء سلكياً . لكن لسوء الحظ وقع أحدهم فأحدث صوتاً لفت به نظر رتل دبابات سوبر شيرمان للعدو ، فحصدهم بنيران رشاشه ، ورغم هذا الحادث الأليم ، لم يجرؤ أحد على فتح النار على القوة الإسرائيلية ،كانوا يغلون ولكنهم تماسكوا رغم كل شيء . وصاح المقاتل رجب موسى فى كمد :

ــ سيكون حسابهم عسيراً .

وكان عيران ــ القائد الإسرائيلى ــ يشهد هذا الموقف وهو يقهقه فرحاً . وصاح :

ــ أين هؤلاء المصريين ؟

ومن خلال جهاز اللاسلكى كرر العبارة عدة مرات ، محدثاً دانى قائد الهجوم :

ــ إننى فى عمق الدفاعات المصرية ، دون أن أجد لهم أثراً .

ــ هل تظن أنهم إنسحبوا ؟

ــ أكيد ، إننى على بعد ميل من مياه القناة .

ــ عظيم ، هذه أخبار سارة ، إستمر وحاول أن تتقابل مع آمنون .

ــ هل وصل هو الآخر إلى المياه ؟

ــ تقريباً . والآن دعنى فقائد الجبهة الجنوبية على التليفون .

ــ إذن فبشره على لسانى .

ــ هو كذلك ياعزيزى عيرى .

ثم عاد إلى الخط الآخر مع قائد جبهته ، فابتسم وهو يقول :

ــ أخيرا ياسيدى أبشر ، يبدو أن جهدنا السابق مع الفرقة ١٦ لم يضع هباءً .

ــ كيف ذلك ياعزيزى دانى ؟ هل هناك أخبار سارة ؟

ــ لقد إنكمشت دفاعات هذه الفرقة على ماييدو . إننا على بعد ميل من المياه ولاأثر لهم . لقد مسحنا الأرض بالمدرعات ولم نعثر على أحد .

ـــ إسمع ياداني . أريد ـــ قبل العبور إلى أفريقيا ـــ أبادة جميع القوات المصرية التي دخلت سيناء في هذه المنطقة .

ـــ فهمت .. إن تقارير المقدمة تتوالى وكلها أكثر من مطمئنة .

ـــ ومن المهم أن تستمر الحركة إلى الغرب كالتيار بدون توقف حتى تصل إلى متسمد .

ـــ سوف أفعل ، هل من الأصلح أن أستعين بموقع (حزايون) .

ـــ موافق وإذا كان بالإمكان العبور إلى حزايون فمن الأفضل أن تعبر مع وحدة صغيرة لتبقى على الضفة الثانية .

واتفق أن صحفياً فرنسياً كان برفقه قائد الجبهة الإسرائيلية أثناء المحادثة ، وكان الجميع متلهفين لأخبار سارة من الجبهة الجنوبية على وجه الخصوص ، وقد إنتشر نص المخابرة التليفونية السابقة عن إقتراب داني من الخط المائي ومن الجسور في المزرعة الصينية كشرارة كهربائية ، وانتقل بسرعة إلى تل أبيب ، ومنها إلى صحيفة لو فيجارو الفرنسية ، كما نُقل إلى واشنطن بسرعة .

وبعد ساعة إستغاث أحد جنود عيران بعد أن أصبح بدبابته ـــ ضمن دبابات أخرى ـــ على حافة القناة ، وهو يقفز من برجه والنار مشتعلة فيه ، وصرخ آخر وقد حُشرت رأسه في غطاء برج دبابته :

ـــ إن المصريين يطلقون علينا صواريخ ساجر . إلحقونا :

ولم يكد ينتهي من صراخه حتى كانت د بابته تحترق ضمن ثماني دبابات أخرى تابعة لكتيبة عاموس السكير ، وخلال دقائق انفجرت عشرات الدبابات في توقيت متزامن ، واندفع العشرات من الإسرائليين إلى مياه القناة لإطفاء النار من أجسادهم وملابسهم المشتعلة ، ولكن مدافع الميدان في الضفة الغربية كانت تحصدهم حصداً ، وجعلت مياه القناة قطعة من جهنم ، ودبت الفوضى الشديدة بين مدرعات آمنون وعيران معاً ، بعد أن استطاع القائد الحصين المحنك العميد الطوبجي دفعهم جميعاً إلى فم الأسد ، أعني نيران مدفعية الغرب ، وشياطين المشاة في الشرق ، ومع احتدام المعركة دفعت القيادة العليا للجيش ببعض كتائب

المدرعات من الغرب مع تدعيم من المشاة المدرعين إلى أرض المعركة مستخدمين الجسور ، فشطرت قوات آمنون ، كما دفعت بقوات عيران إلى الخلف بظهرها ، الأمر الذى جعلها تحصد حصداً ، مما أدى إلى حدوث إنهيار حاد ومفاجىء فى قيادة العدو ، وكاد دانى أن ينتحر عدة مرات لولا تدخل حارسه الخاص الذى لازمه عن قرب ، ومع ذلك ، فإنه عندما تعرضت دباباته للإصابة ، سارع بالهرب ، مستخدماً دبابات أخرى ، وقد أدى هذا الإنهيار إلىٰ تمرد قواته ، وأخذت تخالف أوامره ، ولا تلتزم بـالاتجاهـات المحددة لهـا ، فطلب فى صوت مهـزوز ومكفهر مساعدة عاجلة وغطاء جوى للإنقاذ ، ولم يفهم عنه قائده فى الطرف الآخر سر هذا التحول والإنهيار المفاجىء ، ومن ثم فلم يسمع له ، ولم يستجب لطلباته .

وكان المقدم فهمى الترك والمقدم هارون (الباشا) ، يشرفان على أعادة تنظيم دفاعات قواته منسقاً فى ذلك مع قيادات الفرقة والجيش معاً ، أولاً بأول ، وكان يصدر أوامره لقواته وهو فى مقدمتهم بالعمل بأسلوب يشبه خطوات الرقص للخلف ثم الإندفاع إلى الأمام أى الإنسحاب قليلاً وخصوصا من بعض التلال لسحب العدو إليها ، ثم معاودة الهجوم عليه فيما يشبه الياى الذى ينقبض ليزداد قوة انقضاضية كما كان القادة على مختلف الوحدات ، يرسلون كتائب المشاة الملحقة عدة مرات وعلى شكل موجات وراء موجات للإلتحام بمدرعات العدو لتحييد قواته الجوية ، ومنعه من تحديد أهداف ثابتة يتحرك نحوها ، فكأنه كالذئب الجريـح الذى وضع وسط دائرة النار ، فلا عقل ولا حركة ، ولكن مواجهة مع المصير القاتل المحتوم .

كما قامت القيادة بدورها الأكيد فى قهر العدو ، بمفـاجأتـين على غـاية من الأهمية ، فعلى مستوى الجو ، قامت مائة طائرة قاذفة مقاتلة ميج ١٧ ! وتى يو ١٦ وسوخوى ٧ فى حماية المقاتلات الميج ٢١ ، بغارة عنيفة على كافة المواقع الرادارية التى أعادت أمريكا بخبرائها تركيبها لإسرائيل وكذلك المطارات مستخدمة فى ذلك الصاروخ المجهول المدمر المسمى (قلط جو/ أرض) ، وقد أهتدى المقدم طيار الوحش عبد العزيز السنهورى أثناء إحدى غاراته على سيناء ، إلى ترددات غريبة

ومكثفة تصدر من منطقة التل حول منطقة مطار المليز ، فدار نصف دورة حول المنطقة حتى حدد مصدر الإرسال وأطلق عليها صواريخه ، فحول الموقع كله إلى قطعة من جهنم .

وعندما إنسحب الطيار عائداً ، لم يدر إنه قد أوقع ضربة قاضية وشديدة بمقر جبهة عموم سيناء ، واضطر قادة إسرائيل الكبار القفز فى هلع شديد إلى المخابىء ويقطعون إتصالاً قائماً ساعتئذ مع قادة فرقة آمنون جنوباً ، واستمر إتصال هؤلاء القادة مع قواتهم منقطعاً طول عشر ساعات كاملة حتى دبروا مركزاً جديداً للقيادة ، ولم يبق أمامهم غير أجهزة اللاسلكى ، بعد أن تدمر لهم كل هوائيات الأرسال والأجهزة السلكية المباشرة .

ولقد أحدث هذا الهجوم الجوى ، الذى جاء فى توقيت قاتل ، إلى إحداث شلل تام وذعر شديد جعلهم مستعدين دائماً للهروب بالطائرات العمودية والدبابات والعربات المدرعة السريعة ، والرابضة دائماً بالقرب من مقر تواجدهم تحت حراسة شديدة ودفاعات مكثفة .

أما المفاجأة الثانية فقد تمثلت فى استخدام المدافع ١٨٠ مم التى وصل تأثيرها إلى مدى أربعة وأربعين كيلو مترا ، وكانت إصابتها دقيقة ومؤثرة والبركة فى رجال اعقدم عادل إسلام ، الذين كانوا يوجهون المدفعيين لاسلكياً ، وهم يتجولون بحرية شديدة داخل نطاقات الطوابير الاسرائيلية المتحركة ، وكذا المواقع الثابتة ، لهذا لعبت المدفعية المصرية دوراً خالداً ومؤثراً فى الإيقاع بالجيش الإسرائيلى وهزيمته هزيمة بيّنة ، ولقد كان هذا النوع من المدافع ، يلاحق الطوابير الإسرائيلية منذ ظهورها على مسرح العمليات فى عمق سيناء ، حتى فيما وراء الممرات ، ويوقع بها خسائر فادحة ، ويعوق تقدمها ، ويفضح سرها قبل الوصول إلى أهدافها .. !

وكان أول إتصال القيادة بعد تدمير مقرها قولهم للجنرال دانى :

ــ إن هذه الحرب قاسية يادانى

ــ إننى وسط الجحيم أحترق . فهل يمكن تدبير قوات جديدة لإنقاذى .

ــ لا أستطيع أن أعدك بشيء ، لكن يحسن لو استطعت الانسحاب بمن بقى حيا معك إلى الجبال ، يجب ترك خط الماء حالاً قبل أن تباد القوات والآليات الباقية ، إن أمريكا لن تنقذنا مرتين يادانى . هل فهمت .

وترك دانى السماعة تتدلى من يده فى يأس قاتل وهى تتخبط بساقه وهو يقول لنفسه :

ــ نعم ياسيدى لقد فهمت !

ــ فنظر إليه حارسه فى جرأة وقال بدون توخى كبير للقواعد العسكرية .

ــ هل يأمر سيدى بشيء .

ــ لاشيء يابريميا ، تستطيع أن تمضى إلى راحتك .

ــ ليس هناك راحة ياسيدى الجنرال .

ــ صدقت يابريميا . أستطيع أن أمضى بدبابتى إلى الخلف سريعاً ، قد أصل أو لاأصل ، لكن مشكلتى أن القوات مبعثرة ، وهناك قوات عيران خلف خطوط المصريين وقد إنقطعت أخبارها ، لقد تعبت من تحذيره دون فائدة .. قاده غروره إلى مقتل .

ــ لقد أسروا عيران .

فجذبه بشدة من خناقه فى عنف وبطريقة عدوانية :

ــ ماذا تقول ؟

فأدار الحارس وجهه إلى الأرض ولم يجب فخفض يده من خناقه وبكى .

وبالفعل فقد شطر رجال المدرعات المصرية قوة دانى شطرين منقطعين فى توقيت قاتل وخرج عليهم المشاة من بين الرمال ، وأمطروها بوابل من صواريخ البازوكا والمورتر والآر بى . جى وساجر وسنابر ، لقد كانت أذرعهم أطول باعاً من مدافع تلك الدبابات ، وحولوا الساحة إلى منطقة إستدارج قاتلة لهذه المدرعات

التى راحت تضرب بعضها البعض فى حركة إرتباك لعينة ، ولقد كان عيران كله تصميم على تصحيح مساره ، وحاول الإندفاع نحو مركز القيادة المصرية بالطاليا ، فى حركة إلتفاف عنيفة ، حاول فيها أن يدوس المشاة بجنازير دباباته ، ولكنه وقع فى فخ قاتل تحت أقواس نيران مدفعية المورتر المباشرة ، الواقعة على هيئات عالية بالتلال المحيطة بالطاليا ، وصبت عليها وابلاً من القذائف الصاروخية التى عرفت كل منها طريقها مباشرة ، وتوالت الإنفجارات ، وفتحت مدفعية السواحل بعيدة المدى نيرانها من أبو سلطان عبر القناة ، وكانت القذائف تخرق المدرعات وتحولها إلى حديد مصهور ، واندفع رجال الترك والباشا نحو مجموعة دبابات المقدمة ، التى حاولت الاندفاع بعيداً لفك الحصار ، وألقوا بقنابلهم الثراميد المضادة للدبابات على الجنازير ، فدوت الإنفجارات ، وإندلعت ألسنة اللهب من المركبات ، وتعالت الصيحات والأنات المتشنجة ، واندفع الجنود يدفنون رءوسهم فى الرمال خوفاً من نار الحريق ، بينما إندفع البعض إلى الجنود المصريين مستسلمين للأسر .

وفى تلك اللحظة سمع دانى صوت عيران متحشرجاً من خلال اللاسلكى لأول مرة :

ــ سيدى إننى لا أصدق نفسى ، إننى كنت أوشك على عبور الماء ..

ــ ماذا حدث ياعيران ؟ ماهو الموقف عندك ؟

ــ المشاة ياجنرال ! لقد حذرتمونى منهم ولكنى لم أصدق . هل يمكن لبشر أن يجن ويتحول إلى ديناميت يفجر نفسه فى دروع الصلب ! ماذا أقول ؟

هذا لعمرى ما رأيته ولا سمعته من قبل .

فإزداد قلق دانى وصاح فيه :

ــ دسهم بالجنازير ياعيران .

ــ كيف ياسيدى ؟ إن المصريين يركضون نحو دباباتنا ويتسلقونها ويفجرونها بقنابل الثراميد التى ترفع درجة الحرارة داخل الدبابة إلى ألف درجة فهرنهيتية ، فيحترق جنودنا مع الدروع الصلب .

فتهدج صوت داني وقد أسقط في يده ، وقال لنفسه همساً :

ــ لافائدة ، إنه يشرب من نفس الكأس الذى شربناه جميعاً .

فصاح صوت عيران مستغيثا مستنجداً :

ــ ماذا تقول ياسيدى .

ــ لا .. لاشيء ، حاول قدر إستطاعتك أن تتفادى هؤلاء الشياطين .

ــ كيف ؟ إنهم يندفعون في موجات لا نهاية لها

ــ وساد صمت كئيب بين الرجلين للحظة ، عاد بعدها عيران إلى القول :

ــ أن أوضاعنا آخذه في الإنهيار .

وفي تلك اللحظة ، عبر صاروخ لوب فوق برج دبابة عيران بسنتيمترات ، وأطاح بالدبابة التي تحمى جانبه الأيمن وقلبتها على جنبها ، وقد أحدثت الإصابة ، إنفجاراً له دوى مروع ، خلع قلوب أطقم الدبابات المجاورة ، ففرت منها وهامت في الصحراء حتى إلتقطتها سواعد المشاة المصريين كالفاكهة الفجة التي سقطت عن أشجارها . فصرخ عيران مغتاظاً في اللاسلكي لآخر مرة :

ــ أذا كانوا يريدون القتال ، فهيا نريهم الحرب ، أنا عيران المقدام .. وإنطلق بدبابته يضرب الهواء بمدافعه كدون كيشوت ، كان يضرب ويضرب دون أن يرى أحداً أمامه ووراءه مجموعة آليات الحماية ، وقد زادت حوله كثافة ، فاشتد حنقه ، ورفع رأسه من برج الدبابة ليوجه النيران نحو الأهداف بنفسه ، وفجأة وجد نفسه يصرخ :

ــ عيني احضروا لي عيني . آه . أين هم ؟ أريد أن أراهم على ظهر دبابة قبل أن يفجروها ويختفوا !! .

لقد أصابه صائدو الرءوس حملة البنادق الكلاشنكوف من رجال الباشا .. وهنا تفرق عنه رجال حرسه وهم يقفزون من مركباتهم مستسلمين وهم يتصايحون :

ــ دعوه ، لقد جن . إن الكل يسلم نفسه . هيا لنبتعد عن هذا الجحيم . ونظر عيران حوله والألم يعتصره ، لقد إستعز القتل سريعاً ، في جنوده ، وأصبح مخيفاً

جداً ، إن كل شيء يحترق ويشتعل ، وحاول أن يجرى نحو عدد من الدبابات الاسرائيلية لإنقاذه ، ولكنها كانت تجرى فى تخبط أمام هجمات المشاة المصريين المذهلة عليها ، دون أن تنتظر أحداً ، كان همها الأكبر ، هو الهروب والهروب بأى ثمن .. إنها الحياة ، وهى أغلى شيء عند أى إنسان ، ولكنها أغلى ما تكون عند اليهود .

وأضطر القائد الصهيونى القح أن يختبأ وراء تل صخرى ليكتم الدم الذى سال من عينه بشدة وهو يكتم غيظه ، ويصرخ من ألمه ، وربط عينه المفقودة بعصابة مزقها من سترة جندى ميت وجده إلى جانب دبابته التى قفز منها وهى دائرة لم يمسسها سوء ، ففرح عيران وقفز إليها ليهرب بها متفادياً مواطن الإشتباكات ما أمكن ، جامعاً حوله أشتاتا من دبابات قواته الهاربة ، وحددوا لأنفسهم طريق قاموس العرضى الموازى للقناة ليصل قبل أول ضوء إلى طريق (ناهالا) الموازى للبحيرات ومنه إلى جبل حبيطة حيث يلتقى بقوات دانى لأول مرة ومضى فى طريقه بسرعة ، وكلما تقدم كان يتعرض فى كل متر للنيران من كل صوب وكانت دائماً هناك دبابات إسرائيلية تنفجر وتطاير أجزاؤها دائماً وفى كل إتجاه فيزداد حزنه وألمه ، وكلما تذكر عينه اشتد كربه ... ولكن أمله فى النجاة والهرب كان يفوق كل شيء .. لقد جاء ليحقق نصراً سريعاً ويعود بمغانم تزيد ثروته وتنمى أملاكه وتعطى له زاداً من الفخار كما حدث فى الحروب السابقة .. ولكنه الآن يتعرض للموت فى كل لحظة .. وفوجيء وقد وقع وسط كمين مصرى من خمس دبابات ، فأسرع يقصفهم ، ولكنه فى لحظة وجد نفسه طائراً فى الهواء يعلو ويعلو كريشه فى مهب الريح !

فى الوقت الذى تحرك فيه عيران نحو الطاليا بقرية الجلاء النموذجية ، كان الجنرال آمنون يندفع بدباباته المكلفة بالعبور إلى غرب القناة ، يتقدمها أفراد الوحدة الاستطلاعية التى إستعان بها وزودته القيادة العامة بها ، وحملتها بالطائرات رأساً من بئر سبع ، لتعينه على مهمته الشاقة ، كما دعمته بعد ساعات من بدء المعركة بلواء من المظليين كاملاً لفتح محاور القتال أمام تقدم المدرعات ، ولتخفيف عبء المشاة على الدبابات .

وبعد نصف ساعة ، جمع آمنون قادة الكتائب وأصدر لهم توجيهاته الأخيرة ، وعاد القادة ودرسوا الطريق التى سيمرون عليها إلى البحيرة المرة الكبرى ، وتخير كل منهم مسلكه وطريقه ، تنفيذاً لتعليمات دانى نفسه فى توجيهاته الأخيرة ، حين حذرهم من المشاة وقال لهم :

ـ لاتجمعوا البيض كله فى سلة واحدة ، فتُبادوا مرة واحدة ، بل أرتالاً يحمى بعضكم بعضاً ويحذر بعضكم بعضاً :

وأنهى آمنون توجيهاته لهم بقوله :

ـ إننى آمل أن نلتقى .

وبدأت السرية الأولى الحركة تحت قيادة الكابتن يوسف سوكيرا ، وكانت الحركة بطيئة ، وحاول رجال الإستطلاع تجنب القنوات القريبة من البحيرات المرة ، وتعثروا بين الدغل الكثيف والمستنقعات الواسعة والعميقة . ومرت ساعات طويلة قبل أن يعلن سوكيرا من خلال اللاسلكى أنه قد عبر الكثبان الرملية ووصل إلى الطريق الممتدة على طول البحيرات المرة ، ونظر آمنون عندئذ فى ساعته فإذا هى الحادية عشر ، فاتصل بالجنرال دانى ليبلغه بأنه على وشك الوصول إلى الهدف عند حافة الماء ، فابتهج دانى وأبلغه بدوره وهو يقهقه لأول مرة منذ إندلعت لعنة الغفران كما يحلو له أن يسمى هذه الحرب الضروس ، أبلغه بأن الجنرال عيران على وشك أن يبلغ بدوره حافة المياه ، وأنهى المكالمة بقوله :

ـ حظ سعيد . إلى اللقاء فى الدفرسوار وأبو سلطان .

ـ إلى اللقاء .

وانتعش آمنون للأخبار الجديدة ، وأمر قواد الكتائب بالخروج شمالا إلى طرف البحيرة ناحية القناة ، حيث الحركة والتقدم يكون أسرع لقد تعجل آمنون العبور ، وتحرك سوكيرا على رأس الرتل ، وخلفه كتيبة الدبابات ، كما تحركت خلف رجال الاستطلاع كتيبة مدرعات من تشكيلة الإختراق ووراءها كتائب من المظلين ومن الجنود ، كان يصعد المظليون حتى يلتفوا فى الطريق مع رجال الهندسة كى يتلقوا منهم قوارب المطاط التى أعدوها للتسلل عليها عبر القناة ، كل هذا والجبهة المصرية أمامهم صامتة ، وتعجب آمنون ، ولكنه مضى فى طريقة

متجاوزاً مخاوفه ، كانت سرية من سرايا الكابتن سوكيرا تتحرك إلى الشمال من موقع العبور ، وكان عليها البدء فى تطهير المنطقة ، وظهر له ولرجاله أن الجزء الشمالى يزخر بالمصريين وثمة عربات كبيرة بداخل حفر عميقة ، بالإضافة إلى مراكز للمدافع والدبابات . وفى اللحظة التى شعر فيها الإسرائيليون بنوع من الإطمئنان ، كان هناك صف من القناصة المصريين ، حملة البنادق الكلاشنكوف ذات المناظير المكبرة ، لايكاد يُرى من بين شجيرات الدغل القريب ، وفجأة إنطلقت رصاصات خارقة حارقة ، مكتوب على كل منها إسم صاحبها من جماعة سوكيرا الذى هبط من مدرعته ليحدد للمهندسين مواطن عملياتهم لرمى أطوافهم فوق مياه القناة ، وكانت أولى هذه الرصاصات مكتوب عليها اسم سوكيرا نفسه الذى سقط دون أن ينبث بكلمة .

وللحظات ساد المرج بين المدرعات الإسرائيلية ، وعمت الفوضى رجال المظليين ، وترك رجال الهندسة معداتهم وفروا إلى الخلف فى ذعر شديد وصاح محمد المنشاوى قائد مجموعة القناصة فى عجب :

ــ أبضع رصاصات تحدث كل هذا فى جيش تسهال ! والله لو نظروا على بعد أمتار منهم لدهسونا بدباباتهم .

فرد عليه مصيلحى الدناصورى ضاحكا :

ــ وما فى ذلك من عجب ! ، إننا منذ أسبوعين ولا شاغل لنا غير قتلهم .

ــ أهذه إسرائيل التى يقولون عنها ؟!

وغير القناصة مواقعهم ، وفى كل مرة يوقعون بصيد جديد .

ووصل الخبر إلى آمنون فأصدر أمره بأن يحل نائبه جيفن محله ، وأن يحاول التقدم ، فامتثل جيفن بعد أن تداوى من جرح فى رقبته ، وكان يصر على أسنانه ونظر حوله يائساً ، وران الصمت على رجال الاستكشاف ، ودفع رجال المظليين يزرعون المنطقة بحثاً عن المشاة بأوامر مباشرة من جيفن ، قالها وهو يرتجف وألغى فكرة طرح الأطواف فى الماء ، وفضل الإنتظار حتى ينجلى الموقف ، ثم أمر المدرعات بعمل حلقات دائرية وفوهات مدافعها إلى الخارج ــ حتى لا يفاجأهم المشاة .

واتضح أن النقيب حامد سلامة من رجال الترك قائد مجموعة المشاة المصرية (٧٧) يلاعبهم ويداورهم ، وآثر فترات الصمت ليحرق أعصابهم ، إنها الحرب التى تدمر النفس قبل الهجوم العاصف عليها .

ومرت نصف ساعة ، حتى إنحل إنضباط المدرعات وبدأوا يشتمون ـــ جيفن ويعفرون فى وجهه التراب لجفاف أسلوبه ، وصعوبة تنفيذ أوامره ، وهكذا إنقض عليهم عبد العاطى سلامة ابن عم حامد سلامة القائد . إنقض عليهم فى مائتى رجل مدرعين ، كل رجل بدبابة ، وأطلقوا صٍواريخهم فى لحظة واحدة مواكبة للحظة وصولهم إلى المياه ، وفى اللحظة ذاتها تعالى دوى الإنفجار فى الدبابات الإسرائيلية ، واخترق صاروخ مباشر دبابة جيفن نفسه ، فلم يعد لجثته على أثر . فى نفس هذه اللحظة توالت عليهم قذائف الدبابات والمدرعات من البر الغربى ، فسقطت عليهم كالمطر . ونظر آمنون إلى حارسه مذعوراً :

ـــ كيف حدث هذا فى مثل هذه السرعة الخاطفة .

أما لواء المظليين فقد تولى أمره القناصة حملة الكلاشنكوف من رجال الباشا فإندفعوا أمامهم مذعورين ، وحاولوا الإشتباك معهم ولكن رجال حامد سلامة وعبد العال سلامة ابن عمه إذاقوهم ويلات الحرب ، وسقوهم من كأس المنون المترعة وسدوا عليهم طريق الرجعة ، ثم دفعوهم إلى أوحال المستنقعات ، وشنوا عليهم تجريدة مسلحة بالخناجر والسنكى ، حتى احمرت مياه هذه المستنقعات بدمائهم المسفوحة ، واشتد أوار المعركة ، ولم يعد الاسرائيليون يفكرون فى تخطى حاجز المياه ، بل انصرفوا إلى الدفاع عن أنفسهم ودفع الموت عنهم ، واشتدت النيران المصرية وخاض الجانبان مقتلة عظيمة ، ودفع العميد الطوبجى بأفواج جديدة من قواته إلى المعركة ، غطت بنيرانها محورى (العنكبوت ـــ الطنين) الممتدين من الشرق إلى البحيرة المرة .

أدى تطور المعركة على هذا النحو المحزن للإسرائليين ، إلى أن دفع آمنون بكتيبيتى دعم من المؤخرة للوائة المدرع تحت قيادة الميجور بريج كومار ، المسمى بالرجل الدموى ، والذى إندفع نحو المعركة بدون روية تجاه قوات الدعم المصرية

التى يتقدمها المقدم المحمدى صادق ، وناور الرجلين بقواتهما ، ثم إنسحب المقدم صادق من مواقعه فجأة ، وكان قد إدخر بطاريتى مدفعية آلية فى طرف خفى من الساحة ، وترك أمامها دبابات كومار الذى انضمت إليه بقايا المظليين وسرية الإستطلاع ، وقبل أن يفطن كومار لخطة غريمه ، كانت المدرعات المصرية تصنع سداً من النيران أمامهم ، فى حين صبت عليهم مدافع البطارتين ، وابلاً من القذائف الشديدة الوبال ، أما رجال المشاة ، فقد احتلوا أعالى الروابى ينفثون فيهم قواذفهم الصاعقة .

وتلقت الضربة الأولى مصفحة بريج كومار نفسه التى تقدمت مدرعاته . فإشتعلت فيها النيران ، ونجح إثنان فقط فى القفز إلى خارجها هما (كومار) الغاضب وجندى معه ، وبقى داخل المصفحة ستة قتلى من بينهم المضمد الذى عالج كومار فى ساقه التى أصيب فيها إصابة بالغة ، وانطلق إسحق أجام مساعده من دبابته لمساعدة المصابين ، وفى اللحظة نفسها إنفجرت المصفحتين ، وكان الجميع مستلقين على الأرض مصابين بحروق شديدة .

وسأل كومار نائبه :

ـ هل رأيت المشاة المصريين ياإسحق ؟

ـ إنهم كالجنى ياسيدى ، فكيف أراهم ؟ إن الواحد يظهر ويختفى ولا يترك أثراً سوى الدمار فى صفوفنا .

ـ آه . إنها مشكلة بلا حل لابد من فترة لإلتقاط الأنفاس حتى نجد حلاً لهؤلاء الشياطين ، إنهم يكبدون إسرائيل أفلاذ أكبادها ، وأموالها ومعداتها ، وفجأة أحس بألم شديد فى ساقه فتأوه عاليا وصاح فى نائبه :

ـ كفى . أنه ألم لا يطاق . إننى أحس به وكأنه فى رأسى .

ـ آسف ياسيدى أن أقول بأن حالة الساق خطرة إلى أبعد حد .

ــ كلا دعنى أعود إلى المعركة بأقصى سرعة إلىّ بالدبابة .
ــ إنها دُمرت ياسيدى .
ــ دبروا لى غيرها .
ــ سوف نفعل حالاً .. لننقلك للخطوط الخلفية . إنك لا تصلح لقتال على هذا الحال .

واستدعى إسحق أجام مجموعة دبابات أمامها مصفحة سريعة فرفض كومار وامتنع عليهم وقال لنائبه :

ــ إنك تزيحنى من طريقك إلى المؤخرة لتتولى القيادة بعدى .
ــ إننى مضطر ياسيدى فليس للجريح أن يقود ، بل عليه أن يضمد جروحه

وأدخلوه المصفحة بالقوة ، فأفلت منهم وصاح فى نائبه :

ــ لسوف أعود أليك حالاً ، لكى أحرمك من ميرة لا تستحقها .
ــ غر . لقد تهورت فأهلكتنا .

فصاح المضمد :

ــ دعه لمصيره ، لقد كسرت ساقه ولن تجبر .

وفى تلك اللحظة دوى فوق رءوسهم صاروخ سنابر على إرتفاع متـرين من الأرض فلطمت وجوهـهم عاصفة من الرمل والطين ، فأخذوا يبصقون دما مخلوطاً بالطين ، واصيب المضمد باسهال شديد وجرى إلى أحد الكهوف يقضى حـاجته الملحة ، كما أصيب أحد المساعدين بقىء شديد وإرتفاع حاد فى درجة الحرارة ، فإستغاث أجام ــ القائد الجديد ــ بالمضمد ونادى :

ــ أين الهباب يعقوب التمورجى .

فضحك الحارس وقال :

ــ لن تجده إنه يغسل نقعته فى المستنقع .
ــ لعنة الله عليك وعليه وعلى ..

ثم بصق وأمسك عن الكلام . وتحسس المصاب فإذا به يغلى وينتفض من الحمى ، فلم يجد مناصاً من دفعه إلى قاع المستنقع بعد أن نزع عنه معطفه ، فأسرع الحارس ينتشله وهو يبكى :

ــ إنه لا يحتاج للماء العفن ، بل إلى أم رءوم تأخذه إلى أحضانها .

فزجره فى جفاء ودفعه من أمامه .

ــ ليذهب إلى داهية ، إننا لا نداعب أطفالاً ، إنها الحرب ياهذا . أفهمت ؟
فتمتم فى ذلة :

ــ فهمت ياسيدى .

وهم أن يلتقطه من البركة ، ولكن قدره كان أسرع منه ، لقد انفجرت تحت أقدامهم قنبلة أطاحت بقدميه وذراعه الأيمن بعيدا ، نحو بركة الماء ، فاندفع نحو أعضاءه من حلاوة الروح ليصطدم بالمساعد المحموم ، الذى كان أشبه بالمذهول فبكيا وقال له :

ــ فضلت أن آتيك طائراً ، لقد سبقتنى ساقى ويدى اليمنى .

ــ لا تحزن ياصديقى لقد بقى لك شىء تعيش به ، أما أنا فالحمى تزهق روحى

ــ ليتنى أموت ولا أعيش عاجزا .

ــ إسمع معى شىء أريد أن أصر إليك به قبل أن أموت .

ــ قد ينقذنا أحد .

ــ إن ابن القحبة هذا (وأشار إلى أجام) لايفكر إلا فى نفسه . وعلى العموم فلن نخرج جميعاً من هذا المستنقع . دعه يحلم بالقيادة ماشاء .

ــ أريد قدمّى ويدى .

ــ لا تحزن . إن إستطعت أن تلحق بدبابة ، فلسوف يزودونك بأطراف صناعية فى ليون ، ولكن من يعوضنى روحى إذا استلبتها الحمى ،

ــ إذن إدفعنى إلى الطريق ليأخذنى أحدهم فى طريق هروبه .

ــ لى شرط .

ــ ماهو ؟

وكان يعانى ساعتها غيبوبة الحمى ، حين أشار إلى جيب سترته ، فمد يده إليه ليجد صورة صغيرة لولد فى الرابعة عشر من عمره ، وقال المحموم :

ــ هذه صورة ولدى ، إقلبها تجد على ظهرها العنوان . إنه يعيش مع أمه فى ليبزج بألمانيا . عليك أن ترسل إليه لحيضر فيتسلم أملاكى فى الجليل ، لى فيها مصنع ومزرعة وبيت .

ولكن الغيبوبة أسلمته لسكرات الموت ، فتركه الحارس وحاول أن يزحف على بطنه مبتعداً ، ولكن انفجاراً دوى فجأة ، واخترقت إحدى الشظايا عنقه فخر . جاثياً على ظهره فى مياه المستنقع ودماه مسفوحة من عنقه مندفعة كالرشاش ، فوق الطين حتى نفق كما تنفق الحيوانات ، ويبدو أنه ذا حظ عاثر إذ أن المعركة كانت قد بدأت فى الخفوت وبدأ رجال المدفعية يرنون إلى السماء فى إنتظار غارة جديدة كما هو شأن العدو معهم فى كل مرة ، فأخذوا وضع الضرب مع ثنى الركب فاصطدم قدم عفيفى مطر بوجه رجب موسى فصاح فيه :

ــ فتح ياأعمى .

فضحك عفيفى وقال له :

ــ آسف يارجب ، ولو أنك لاتعرفون فى البلد هذه الكلمة .

ــ خسئت ياابن مطر ، مطر أبيك قارفنا كل دقيقة .

وأشار إلى قطرات الماء المتساقطة من السماء وضحكوا ، وضحك عفيفى أكثر حتى إستلقى على الأرض ، فقال له رجب مستنكراً :

ــ لِمَ كل هذا الضحك ياابن مطر ، أتضحك على خيبة أبيك ؟!

ــ بل على خيبة أبيك موسى ، ياابن موسى ديان .

ــ إخرس لا كنت ولا كان هذا الأعور اللعين .

ــ إسمعوا ياجماعة ، مرة عم موسى أبو رجب هذا ، جاء له البشير فى الغيط بميلاد رجب ، ففرح ولكن لم يذهب لرؤيته ، أتعرفون لماذا ؟

فأمن جميع الزملاء وسط الضحك :

ــ لماذا ياابن مطر ؟

ــ كانت الجاموسة فى حالة ولادة ، فرفض أن يرى ابنه رجب ، وفضل أن يجلس إلى جوار فحل الجاموسة الوليد ، ولما لاموه الناس : كيف تفضل ابن الجاموسة على رؤية ابنك رجب ياعم موسى قال : البهايم هذه الأيام لها سعر وقيمة ، لكن رجب وأمه ليس وراءهما سوى قلة القيمة .

فضحكوا وراحوا يحاصرون رجب بالأسئلة عن حقيقة الموضوع ، وعفيفى يقسم بصحة الواقعة ، فراح رجب ينحت الوحل بأظافره ويكورها كوراً ويقذف بها عفيفى الذى أخذ يتدحرج حتى وقع فى حجر سيد خميس المدفعجى عند منتهى

إنحدار الرابية ، فرفعه مع بقية طاقم المدفع ودفعوه إلى المستنقع وهم يضحكون .

وعندما وصل القناصون المكلفون بمصاحبة مدافع الرمى المتقدم ، فطن الرجال إلى قرب قدوم الهجوم الجوى فأزاحوا (كرواناتهم) جانباً ودسوا ملاعقهم فى رقاب أحذيتهم ، وفوجئوا برجال الاستشكاف بأحذيتهم السميكة الموحلة ، وبيد كل منهم كوب صفيح كبير ملىء بالعصيدة ، فأحاط بهم رجال المدفعية والمشاة يسألونهم عن الأخبار فدعوهم إلى أكل العصيدة التى أحضروها من الأعراب المنتشرين فى المنطقة ولم يهجروها ، وفضلوا أن يعملوا فى خدمة بلادهم كعيون على القوات المحتلة فى سيناء ، وقال خميس متعجلاً :

ــ لا ياسيدى من الأفضل أن يحارب الجندى ومعدته خاوية إن ذلك يجعله أشد ضراوة وبأساً .

وفجأة وصل المقدم فهمى الترك قائد المقدمة واختلى بالملازم أحمد السكاكى قائد فرق استطلاع المنطقة فأبلغه الأخير أن لواء عاموس ــ وهو مقدمة هجوم العدو ــ ينسحب مبتعداً عن المعركة تاركاً الكثير من قوته الضاربة والقتلى فى أرض المعركة وأن عاموس نفسه قد أصيب فى عينه ، وحالته عصبية جداً . فصاح الترك :

ــ أين هارون ؟ .. إلىّ بهارون .. آتوه من تحت الأرض .

ودوى النداء على كل موجات اللاسلكى ، حتى عثروا عليه عند الطابيا . فقال له الترك :

ــ إلى المصفحات.. وإبحثوا عن عاموس فى كل مكان ولا تدعوه يهرب .

وفجأة إندفع رجال المدفعية الآلية إلى الهياكل الفولاذية العملاقة

وانبعث صوت من أحد تليفونات قواعد المدفعية :

ــ عش الغراب . عش الغراب . عش الغراب .

فصاح الأشارجى وقد ضم سماعة التليفون إلى فمه وأذنه بقوة :

ــ عش الغراب يرد ... نعم ... مركز ١٠١ يتكلم معى ، الغمامة تتحرك .. نعم ، أنا سمعت جيدا ... سوف أحدد البلاغ حاضر ياأفندم .

كان الهدوء يسود الجبهة نسبياً بعد اندحار العدو حيث تجمعت أفراد كتيبة المدفعية الآلية ، حين ذهب الاشارجي بمضمون رسالة القيادة إلى المقدم حسن عمار ، الذى وقف عند حافة الغابة ، وأخذ ينظر من خلال منظاره المكبر فمسح السهل المنبسط أمامه ، والشجيرات الخضر التى تجف المستنقعات الممتدة بطول الساحل الجنوبى ، وإلى الشمال لمح رجال الاشارة يجرون الأسلاك وراءهم ، ويدفعونها وراء الشجيرات والأعشاب ويغطونها بأوراق الخريف المتساقطة ، وعلى السفوح الواقعة إلى الجنوب ، تسلق الرجال الخنادق واندفعوا إلى الأمام فى تحفز ، وقد اعتلت ظهورهم مدافع الصواريخ بكل أنواعها فى تشكيلات رباعية من الآر . بى . جى . وسام (٧) المضاد للطائرات وصاروخ ساجر وسنابر ، وهى تشكيلات متكاملة ضد كل أنواع معدات الهجوم من دبابات وطائرات ، ونقلت الرياح إلى الأسماع إلى العميد الطوبجى ــ قائد اللواء ــ صيحة الله أكبر و لله الحمد فاستشرف بالنصر ؛ واعتلى الطابية ليتبين الخبر بمنظاره الميدانى المكبر ، فإذا هى طائرة استكشاف أسرائيلية بدون طيار تهوى من حالق ، ويتصاعد من ذيلها عمود نفاث من اللهب الأحمر القانى والدخان الأسود القاتم ، بعد أن سدد لها المقاتل شافعى صاروخاً أطاح بمؤخرتها ، ورغم حنكة العميد الطوبجى ورسوخ أقدامه فى العمليات الحربية إلا أنه لم يستطع أخفاء شعور الفرح الذى اجتاحه ، فأسر إلى أركان حربه العقيد جلال همام بثقته الزائدة فى توفيق الله ونصرة جنده ، فأمنه الأخير بكلمات من المصحف الصغير الذى فى يده ، بعد أن فرغ من تنظيم دفاعته حول الطاليا ثم قال :

ــ لقد تأخر الطيران الاسرائيلى هذه المرة .

ــ لاتستعجل الأمور ، إنها آتية ولا ريب للانتقام من هزيمة الهجوم .

ــ لست فى عجلة من أمرى ، ولكن الجنود يتحرقون شوقاً للقائهم ،

ــ ليطمئنوا إن الله معهم ، عليهم بالصبر والإلتزام بتنفيذ الخطة .. وليكن هذا آخر أوامرك لهم الآن ..

وانصرف العقيد ا . ح جلال همام إلى التليفون ليذيع آخر الأوامر المطلوبة ، وفى الطريق رأى العلم المصرى مرفوعاً يرفرف عند مقدمة الطابية الرئيسية للقاعدة فمال عليه وقبله ثم تهدج صوته وهو يتمتم :

ـــ لك الله يامصر . الله أكبر والنصر حليفنا .

ولم يكد يخطو أولى خطواته داخل الملجأ الأم حتى ظهرت القاذفات الاسرائيلية ، وأخذ الجنود يرقبونها بمزيج من حب الاستطلاع والإهتمام وهم يتمنون من أعماق قلوبهم أن تقترب أكثر ، وأخذت تقترب ، وأخذ سيد خميس من موقعه وسط قاعدة الطابية يعدها ، بيضاء لامعة كانت خمس وأربعين طائرة على شكل أسراب تحميها بعض الطائرات المقاتلة ، وحلقت فوق المواقع تريد الاجهاز عليها ، وراحت تفتح بطونها لتفرز الموت على شكل قذائف زنه ألف رطل ، وخمسة آلاف رطل ، وأضرم فى السماء حريق من النار تغلفه غلالات داكنة من السواد ، لقد انطلقت فجأة نيران المدفعية المضادة للطائرات على جميع الإرتفاعات ، ومعها مدافع الدخان للتعمية قد حزمت السماء بأقواس النيران على جميع الإرتفاعات سواء من مدافع ٨٥ م أو ١٠٠ مم وخاصة مدافع ١٤ر٥ مم الرباعى للارتفاعات المنخفضة ، والذى كان يختبأ إحداها بين صخور التل الحاكم يقوده المقاتل الخبير سيد خميس ، والذى تصيد طائرة قاذفة فانتوم منذ لحظات ، فهبوا وكبروا وزاطوا ، فاغتاظ المقاتل عبد المعبود النادى فى القاعدة التى تليه ، وظل يتتبع الأسراب وهى تعبر السماء مارقة فوقهم بسرعة ، لتلقى بحمولتها فى الماء بعيداً عن جهنم التى اشتعلت تحتهم على المواقع ، وأخذ عبد المعبود يحاور ويناور ويداور حتى جاءته قاذفة كانت على ما يبدو تتحاشى إحدى القذفات النيرانية من إحدى القواعد القريبة فتصيدها بدفعة مباشرة أصابت بطنها فهوت داخل الرمال كالصاروخ لتبيت فى حفرة ضخمة فى حجم شارع صغير ، فأسرع عبد المعبود مخرجاً لسانه لصديقه سيد خميس ليكتب إسمه على صيده ورقمها وهو ٢٧ أى السابعة والعشرين من القاذفات التى أسقطها وحده .

أما قواعد الصواريخ الخمس التى كانت تغطى المنطقة للدفاع عنها ، فلم تنخدع لاجراءات التشوش التى زودت بها القاذفات المهاجمة ، والتى قام بتركيبها خبراء أمريكا فى أجهزة الخداع والتشوش ، واندفعت القاذفات إلى أهدافها تروم تدميرها بعد طول إنتظار ، لكن أجهزة التشوش إنخدعت هى ، وهوت القاذفات زرافات وانتشرت الأرض محترقة فى مساحات واسعة .

ورغم الخسائر العددية الكبيرة فى طائرات الهجوم الإسرائيلى ، إلا أن أسرابها كانت تتوالى بأعداد كثيفة ، وركزت هجومها على الجنب الأيمن للفرقة ١٦ فى إصرار عجيب ، يعكس فكر القيادة الإسرائيلية واتجاهاتها ، ونظر العميد الطويجى إلى ساعته : كانت السادسة إلا ثلثا . وسرعان ما توجه وأركان حربه إلى تحصينات اللواء على الطاليا ، وأطمأن على المقاتلين ، وشاهد معدلات استهلاك الذخيرة وأثنى عليهم ، كما متع نظره بمشهد مطاردة أحد الصواريخ سام ٢ الذى اخترق السحاب وراء طائرة فانتوم ، ثم وهو يفجرها إلى أشلاء متناثرة ، كان الطيار يحاول جاهدا الهرب من الصاروخ عبثاً ، كان يدفع أمامه شرائح الألمونيوم وخزانات الوقود الإضافية لتضليله وتعميته ، دون فائدة فابتسم القائد وربت على ظهر الملازم أول محمد بشير وهو نوبى أسمر ، كان يقسم لزملائه ورؤسائه لينتقمن من بنى إسرائيل بكل ما أوتى من قوة ، ولقد أثارت جرأته فى الفرق الخاصة حيرة رؤسائه وزملائه حتى اتهموه بالتهور ، ولم ينقذهم منه سوى بعثة تدريبية إلى الاتحاد السوفيتى للتدريب على إطلاق صواريخ سام ، فتفوق على كل زملائه ، وعندما تسلم قاعدته كان دائماً سباقاً إلى الاشتباك مع طيران العدو حال ظهوره ، وكان دائماً مستعداً له قبل كل ظهور ، وكان زملاؤه يطلقون عليه لقب (القناص رقم ١) ولو أنه لم يكن ليأبه لمثل هذه الأقوال ، بل لم يكن ليشاركهم مزاجهم وكان دائماً يصادق رجال الاستكشاف ، ويستطلع منهم الأخبار أولاً بأول ، يضيق بالفراغ ويغيظه طول الإنتظار عندما تبطء الاشتباكات ، أو يتأخر وصول طائرات العدو رغم امكانياتها الضخمة المتعددة المهام كقاذفه مقاتلة تبصق أكبر كمية من النيران فى دقة متناهية والمدافعون المصريون لا يألون جهداً فى تحطيمها ولا فخر بإمكانياتهم المتواضعة وأسلحتهم المحمولة على الكتف فى إصرار .

كانت المدفعية تقصف بلا توقف ، وخاصة المدافع الآلية الحركة ، التى كانت تنزلق على قواعد متحركة ، تغير وضعها واتجاهها ومكانها بعد كل دفعة ، وكانت أصواتها الحادة الجافة الشبيهة بالسعال الغاضب عالية ، ومر رجال المدفعية بمراكز المراقبة ، وهم يجرون عربات الراكشا محملة بصناديق الزخيرة المغطاة بأفرع الأشجار للتموية والأغطية الكاكية .

وأفادت قوة الصواريخ التى تحرس رأس الجسر . بأنها عثرت على طيار جريح

كان يحاول أن يستنجد بطائراتهم العمودية لإنقاذه ، وإنه بحالة جيدة ويمكن نقله إلى مقر القيادة على وجه السرعة إذا تطلب الأمر ذلك "

وما هى إلا ساعة حتى كان المركز الطبى الملحق بقيادة اللواء بـه أكثر من عشرين طياراً إسرائيلياً يعالجون من جراح مختلفة وخاصة الحروق ولم يستطع أحد أن يستجوبهم مع خطورة حالتهم ، خاصة مع حالة اليأس التى كانت تنتابهم حاول بعضهم معها الإنتحار . وتبرع بعضهم ببعض المعلومات دون سابق سؤال .

وبينما جلس اللواء بدر وأركان حربه يستقبل بلاغات الكتائب الأمامية ، وتقارير الاستطلاعات للهجوم الإسرائيلى المنتظر بانفجار شديد بالقرب من مقر القيادة على الطاليا ، وخرج بسرعة يستطلع الأمر ، فإذا هو صوت انفجار قاذفة ثقيلة فى حجم عمارة ليون بالزمالك . فابتسم وقال :

ـــ لله دركم يارجال الدفاع الجوى .

وماهى إلا لحظة حتى تحولت الإبتسامة إلى ضحكة عريضة ، لقد رأى الملازم الأسمر محمد بشير يدفع أمامه عربة يد (راكشا) مغطاه بمشمع ، ولما استأذن القائد الأعلى فى المثول أمامه ، لم يدر أى مفاجأة يدخرها الجندى النوبى الممتاز ، الذى جاء ليثأر لا ليحارب ، وكان يثور فى وجه كل من حوله إذا ما سمعه يتبادل معه حديث آخر غير حديث المعركة ، وسأله العميد الطوبجى بوجه مشرق :

ـــ ما وراءك يابشير ؟

ـــ هدية الصباح ياسيدى العميد

ورفع الغطاء فإذا تحته يرقد طياران من قواد القاذفات الفانتوم ، مربوطان إلى العربة من خلاف ، فلم يتمالك نفسه من الضحك وهو يفك أربطتهما :

ـــ ولم كل هذا يابشير ؟

ـــ حتى لايهرب أولاد صهيون . إن هذا أقل ما يليق بهما .

ـــ لا .. لا ، لاداعى لكل ذلك ، إنهم يابنى لايبدون أى مقاومة أو محـاولة للهرب ، فهم يسعون إلى الأسر ليخلصهم من العمليات الحربية على الأقل ، إنهم يابنى أكثر الناس فى هذا العالم خوفاً على حياتهم . دعهما يـابنى ، وامض إلى موقعك ، بورك فيك .

وسلم الملازم محمد بشير أسيراه الغاليين سليمين لقائده الأعلى ، وقدم تمامه ضارباً العكبين بشدة ثم إنصرف إلى موقعه ، وكان العقيد همام يوشك على استجواب الأسيرين بعد أن قدم لهما طعاماً خفيفاً وشراباً ساخناً ، لولا وصول المقدم هارون ووراءه كوكبة لحراسة عاموس أسيراً ، أسرته سواعد الكشافين أثناء نوبة سكر دفعته بعيداً عن القوات الأسرائيلية ، وكان وقع هذا الأمر قمة المفاجأة ، لهذا الصباح بأحداثه السريعة الإيقاع ، وكان عاموس نفسه هادئاً ومتوازناً ، وكانت إجاباته صريحة ، ولم يطلب أى نوع من الطعام ، ولكنه كان يدخن بشراهة مسرفاً فى شرب القهوة إلى حد الإدمان . وأخرج حافظة أوراق من صدره وألقاها أمام اللواء وقال فى غطرسه :

ــ هذه هى خطة الهجوم كاملة . ألست تريدها ؟

فتعجب اللواء بدر ونظر إليه نظرة ذات معنى ، فأردف عاموس :

ــ لست مستعداً لأن يستجوبنى أحد وإنكم هزمتمونى وهذا يكفيكم فخراً آتونى بوكالات الأنباء ورجال الصحافة . لأعلن هذا .

فابتسم اللواء بدر وقال له :

ــ أظن أن عينك فى حاجة إلى رجال الاسعاف لا لرجال الصحافة !

ــ هذه نغمة لا أحب أن اسمعها . فأنا شجاع ، أحارب بلا خوف حتى لو فقدت عينى ، عليك أن تعترف بهذا أمام رجال الإعلام .

ــ وماذا بعد إعترافى ؟ ماذا تجنى من ورائه !

ــ سوف أكون بطلاً قومياً مثل موشيه .

ــ لمجرد أنك فقدت عيناً من عينيك ؟

ــ إنها علامة البلاء فى الحرب من أجل الوطن .

ــ أى وطن وأية حرب ياسيد عيران ؟

وتذكر عيران عندئذ فقط أنه ليس فى اسرائيل فتأسف للواء بدر وقد أخذت آلام عينيه تهاجمه بشدة فكاد يصرخ .. فقال :

ــ يبدو أنك على حق ياسيدى .. إننى فى أشد الحاجة لعلاج عينى الضائعة ، واسكات آلامها الفظيعة .

فهتف اللواء بدر فى العقيد الطنانى ، عقيد المعلومات .

ـ خذوا الأعور . ولا تنسوا أن تقدموه أمام شاشات التليفزيون بعد علاجه ليهدأ نفساً .

* * *

الفصل السادس

نفق الموت :

هذا ما كان من أمر قوة الهجوم المدرع الاسرائيلى الذى تدمر تماماً وأنهيت مهمته ، وأصبح أمل القيادة الاسرائيلية فى فتح محاور الهجوم على المظليين ، وكانت جماعات المظليين قد انتظرت بعيداً عن المعركة ، فى انتظار مايسفر عنه هجوم لواءات دانى المدرعة ، ومعهم قافلة العبور من معديات وقوارب مطاطية وبراطيم ، واتصل القائد العام الإسرائيلى بالبر يجادير دافيد يهوناتان قائد المظليين وقال له :

ــ إن فتح المحور يعتبر أمراً حيوياً وخطيراً ، حيث أن النجاح كله معلق به ، وبدون هذا النجاح لاأعرف كيف ستنتهى الحرب .

ورفع دافيد السماعة إلى أركان حربه ليسمعه أمر القيادة ، بل ذلك الرجاء الحار الذى تتعلق عليه سمعة اسرائيل الحربية ، وانقاذها من العار الذى لصق بها ودوى فى العالم كله ، فهتف الأخير فى حنق وهو يختنق :

ــ ليذهب العالم كله إلى الجحيم .. إننا نموت فداء لكبريائهم الزائفة .

وعندما بدأ دافيد مهمته دفع نائبه اليعازر (لفتانت رونى اليعازر) بكتيبة مقدمة لاقتحام ساتر النيران المصرية ، ومعه كتيبتى دعم ميكانيكية ثم كتائب المظليين المطعمين بقوات الإنزال السريع من المشاة ، وفصائل من القوات الخاصة التى حملتها طائرات النقل (س ١٣٥) إلى المعركة مباشرة ، واندفعوا من خلال الطريق الأسفلتى لإزاحة كتائب قوات المشاة ومواقع المدفعية المصرية من عليه واخلائه أمام قافلة معديات البنتيون التى تدمر بعضها من قبل وصولها ، وعطب بعضها الآخر .

وعمل دافيد على تقسيم قواته إلى مجموعات صغيرة للعمل خلف القواعد المصرية بما يشبه حرب العصابات ، مع سرعة الارتداد والتمويه بعد كل عملية ، وطوال الطريق كانوا يُفاجئون بالكمائن المصرية العاصفة التى خاضوا ضدها معارك قاسية ومريرة ، وقبل أن يبلغوا ثلث الطريق ، فقدت قوات دافيد قدرتها على التركيز أو المفاجأة ، كما قتل نائبه رونى اليعاذر بعد أن أبييدت كتيبته التى تقدمت الهجوم .

كانت قوات المقدم فهمى الترك الإنتحارية ، ينقضون على المظليين الاسرائيليين من تحت الأرض ويهبطون عليهم من فوق التلال والمرتفعات ، وفتحوا عليهم مدافع (جور يونوب) عند منحنى الطريق فتجندل الكثير منهم على قارعة الطريق ، وتبعثرت سرايا المظليين وتناثرت جثث قتلاهم ، وأسرع البريجادير الاسرائيلى فى رعب شديد ، يستنجد بكتائب المدرعات لحمل الجرحى وإنقاذ الأحياء ، وسقطت أمامه تماماً قنبلة فاندفع نحو حفرة غير مصدقاً نجاته ثم أخرى على بعد أمتار فقط منه ، فاندفعت من الأرض فوقه عاصفة من الرمل والصخور فطمرته تحتها ، وكتمت أنفاسه للحظات أحس فيها للمرة العشرين بشبح الموت يلازمه ، إلا أنه إندفع إلى بركة ماء غسلته من الرمل وغمرته بالطين ، فأخذ يتدحرج حتى وجد دبابة اسرائيلية من الدبابات الفارة فراح يطرق على بابها ، فاعتقد من بداخلها أن ذلك طرق الشظايا المتناثرة ولم يفتحوا ، فراح يصرخ ويصرخ :

ـــ افتحوا أنا القائد .. افتحوا أنا القائد افتحوا وإلا أصبت إفتحوا الموت من حولى القنابل .. القنابل . افتحوا كى أنسحب بكم ، أليس بينكم جرحى ؟

وتوالت الانفجارات من حوله ، حيث ضاعت صرخاته وسط الصفير وزعقات الشظايا ، واشتد القصف ونالت تلك الدبابة وجبتها من صاروخ مباشر أشعل فيها النار واحترق كل من فيها من الأفراد ، ولم يبق منهم أحدٌ على قيد الحياة ، وأرتطم به عن بعد ذراع أحدهم ، تطاير بشدة واندفع نحو رأس دافييد ولطمه فى وجهه لطمة أطاحت بفكيه وأسالت منها الدماء ، ولما كانت ساقيه لازالت مصابة ويسيل منها الدم ، فمن ثم أخذ ينبوع الحياة يتسلل منه شيئاً فشيئاً دون أن يملك سبيلاً

إلى توقفه ، أو يجد أحداً ينقذه ، ولما كان الألم شديداً جداً لا يطاق ، وعذابه لا يطيقه بشر ، فقد تمنى الموت العاجل الذى ينهى هذا العذاب مرة واحدة ، وظل يحاول أن يحرك ذراعه حتى أمسك بغمده وجذبه من فوق ردفه ، وظل لدقائق ينزع من جرابه مسدسه وحاول أطلاقه على رأسه حتى يستريح ، ولكن أحد الجرحى وكان على بعد متر أو أكثر منه ـــ أشار له أن يطلق عليه هذا المسدس قبل أن يطلقه على نفسه . فأطاع وضغط على الزناد واهناً فمات فى حين جبن هو على قتل نفسه !

مع طلوع الفجر .. كانت خسائر المظليين الأسرائيليين رهيبة ، ولم يبق من قادتها سوى عدد بسيط جداً ، أحيطوا ببضعة عشرات من الأفراد الذين لا يرجى من ورائهم فائدة ، كانوا جميعاً يبحثون عن منفذ إلى الحياة دون فائدة ، وسقطت وسطهم قنبلة مفاجـأة أطاحت بخمسة منهم ، فدب اليـأس بينهم ، وأصبحت المشكلة الآن هى إيجاد مخرج من هذه النيران المصرية ، فوجدوا بعد طول بحث قناة قرب الطريق المؤدى إلى قرية الجلاء ، على رأسها قوة مشاة مصرية ، فكمنوا وراء الأحجار حتى تحركت القوة المصرية من مكانها ، ثم اندفعوا داخل القناة ليحموا أنفسهم من النيران الكثيفة وطلقات المدفعية التى تكنس سطح المنطقة طولاً وعرضاً ، وكانت تلك النيران تتجه اتجاها مسطحاً موازياً للأرض تحصد المظليين خصيصا ، ولم يجدوا ملجأ يحميهم سوى تلك القناة التى حُفرت لرى مزارع القرية وكانت مبطنة بالأسمنت المسلح ، وظنوا أنفسهم فى أمان وكانوا مكدودين ومرهقين ، حفاة ملتاسين حتى جباههم فى الوحل ، ليس فى جسد أحدهم موضع سليم بدون إصابة أو بدون شاظية تسكنه أو طعنة أفلت منها إلى الحياة ، فأخذهم الارهاق وقد ظلوا طول الليل مطاردين من الموت فى كل خطوة وفى كل لحظة ، حيث تساقطوا كالثمار الفجة التى فات أوان قطافها !

ما أن طرحوا أجسادهم المهدودة الحياة فيها ، على أرض الترعة التى جف ماؤها على عمق أربعة أمتار تمتد تحت الأنفاق حتى راحوا فى نوم عميق ، ولم يدر أكثرهم أنها نومة بلا يقظة ، إذ سرعان ماعادت القوة المصرية المرابطة فى الموقع بقيادة المقاتل عفيفى مطر ، فوجدوا المجرى مكدساً بالجثث الأسرائيلية ، ففغر بعضهم فاهاً ، وظن بعضهم أنه مجرد خداع نظر ، وراح كل منهم ينظر إلى الآخر

فى دهشة ، كيف جاءوا ؟ إنهم لا يبدون حراكا ، بل موتى لا حياة فيهم ، وأسرع المقاتل عفيفى مطر وهو جندى مؤهلات من البدرشين جيزة ، كان لديه دفتر صغير يدون فيه مذكراته منذ بدأ ضمن كراديس المشاة فى عبور الحاجز المائى إلى الضفة الغربية بقلم رصاص كان يقضمه بأسنانه كلما حان له متنفسٍ من المعركة ليكتب ما يعن له من خواطر وحوادث ، وكان يوصى كل زملائه بوصية واحـدة هى أن توصل هذه المذكرات إلى دور الصحف لتكون سنداً لهم ومرجعاً عند تأريخ كبار الحوادث على ضفاف القناة ، عندما تقدم عفيفى متسللاً فى عتمة الفجر ، فأصطدم بجثة أحدهم وداس على رجله فقفز الاسرائيلى من رقدته ويده على الزناد يطلق رشاشه مذعوراً ، فكشف ـــ دون أن يدرى ـــ عن وجودهم أحياءً ، فاندفع مطر برأسه فى بطن اليهودى بقوة وفدائية لا نظير لها ، فطرحه أرضاً ثم طعنه فى عنقه بالسنكى فاندفع منه الدم كالنافورة ، وأصدر شخيراً كالذبيحة ، وكبـر عفيفى فوافاه زملاؤه الذين إندفعوا من كل جانب كالقضاء المنزل ، وضربوا حصاراً حول جسور النفق ، وراحوا يمطرون المظلين الإسرئيليين بالرصاص وهم يندفعون من غفلتهم فى كل إتجاه كالفئران المذعورة ، فى محاولة ملحة للهرب من هذا الأتون المستعر ، ظنوه الأمان ، فشاء حظهم العاثر أن يكون الامار !!

إستمر إطلاق الرصاص يحصد رءوس المحاصرين فى قاع النفق ، دون أن يجدوا لأنفسهم ملجأ يسترهم ، كان الظلام شاملاً ، ونداء الحياة ملحاً ، فمن ثم أخذ كل واحد منهم يطلق النار على غير هدى وفى كل اتجاه وهو يجرى فى مكان بحثا عن مهرب ، فاصطـدم بعضهم البعض ، وقتل بعضهم البعض ، فى حـين أبدع الكشافون فى توجيه القذف المدفعى نحو مجرى القناة بدقـة وكثافـة تفوق كـل تصور ، فحولتها مقذوفات المدفعية إلى جحيم نيرانى مستعر ، صهر الأجسـاد وخلفها رماداً بين الرمال ، وزاد الطين بلة انبلاج ضوء الصباح وتقـاطر رجـال الصاعقة من رجال فهمى الترك ، وحملة الكلاشنكوف على اصطياد كل من أفلت من الحريق المشتعل فى جوف القناة ؛ بينما أخذت رشاشات المشاة تتساقط فوق رءوس المحاصرين تحت أقدامهم .

واندفع بعضهم هربا من الموت حرقاً وقد تخففوا من أسلحتهم الفارغة من ذخيرتها مرة أخرى إلى الطريق ، فوجدوا رجال المشاة فى انتظارهم ، واشتبكوا معهم فى معركة بالسلاح الأبيض من أشرس المعارك فى التاريخ الحديث والقديم وسالت الدماء وانبجت من شرايينها حارة ، وبُقرت بطون ، وذبحت أعناق ذبح الشياه وطعنت ظهور واستعر القتل حتى تعالت الاستغاثاتءمات أكثرهم وسلم من تبقى منهم نفسه أسيراً تصرف القوات المصرية . وهكذا كتبت تلك النهاية المحزنة لكتائب المظليين الاسرائيليين عند نهاية طرف هذه القناة العجيبة التى فاضت بالدماء بعد أن جف منها الماء ... إنهم المظليون الذين دفعت بهم القيادة الاسرائيلية لفتح المحاور إلى مياه القناة تعويضاً عن فشل المدرعات فسقطوا فى الطريق جميعاً قتلى ، وعاد الاسرائيليون يفكرون فى دفع المدرعات مرة أخرى لانقاذ المظليين من تحت الحصار . إن عليهم أن يدفعوا عن أنفسهم العار بأى ثمن .

كان ديفيد يهونتان فى إغماءة طويلة بين الحياة والموت مغموراً فى الوحل ، حين عثر عليه أحد قادة الدبابات ، فدفعه من وهدته ، فوجد الطين قد سد جرح رجله وأنقذه من الموت ، فأسرع ونظف مكان الجرح وطهره وربطه ، ثم إنطلق به إلى مقر القيادة عند البحيرات ، ودخل به على آمنون فوق محفة ، ولسان حاله يقول هازئاً : هذا هو قائد الهجوم !

اجتمع كل من دانى القائد العام للهجوم عند طرف البحيرة المرة الكبرى بدافيد يهوناتان قائد القوات المظليين ، الذى كان تحت العلاج المكثف ، واتفق الرجلان على ضورة الانسحاب بفلولهما وأن يرسلا معاً إلى القيادة بضرورة إلغاء عملية الهجوم والمرور عبر القوات المصرية إلى البر الغربى ! ففضلاً عن استحالة عملية زحزحة الفرقة ١٦ عن مواقعها قيد أنملة ؛ فإن التواجد فى الغرب بأى قوات من المظليين سيعرضهم للذبح .

وقبل أن ينفض الاجتماع حضر إليهما كابتن عامى ضابط الاتصال مذعوراً وأبلغهما بأن قوات المشاه المصرية تعمل فى منطقة القيادة وتحاصرها فانطلقوا مزعورين إلى مصفحة القيادة وأطلقوا لها العنان للهروب من المنطقة بأسرع

ما يمكن . كانت قنابل المدفعية تنفجر حولهم فى كل لحظة ، وكانت مقذوفات المشاة من كل نوع تفاجئهم فى كل متر وتمطرهم من كل صوب ، ولم يصدق دانى أنه لازال حياً حتى تلك اللحظة ، حتى عاد مرة أخرى إلى الطاسة ، وكان قد فقد كل إتصال بقادته ، ولم يعد يعلم شيئاً عما يحدث على طول الجبهة ، ولكنه كان شديد السعادة لنجاته ليعاود الهجوم على رؤسائه ، وعندما أوى إلى حاشية له فى الملجأ الأم كان قد فقد كل أمل له فى مواصلة الحرب وصاح فى يهوناتان الذى كان يعانى من آلام ساقه المبرحة ، وزاد اكتئابه عندما أصر الطبيب على ضرورة إجراء عملية جراحية عاجلة وإلا أصيب الساق كله بالغرغرينا مما يهدد ببترها فأصيب بالاكتئاب قال دانى له :

ـــ إن مهمتى على هذه الجبهة إنتهت إلى الأبد . إن مواصلة القتال بهذه الصورة يعد إنتحاراً .

ثم اندفع ثائراً فى يهوناتان كأنه أحد الجنرالات الكبار :

ـــ بماذا يستفيد هؤلاء المعتوهين من سفك دمائنا فوق هذه الرمال الموحشة ، وماذا تعنى كل هذه الصحراوات القاحلة التى لا فائدة منها كى نحتفظ بها ! إنها ليست أرضنا ولهم الحق فى ذبحنا فوقها ...

وبكى فجأة فجلس يخفى وجهه بيديه ، فأمسك يهوناتان رأسه مواسياً :

ـــ لقد أخرج الرب موسى بأجدادنا منها . فلماذا الإصرار على العودة ! .

ـــ إنك تغيظنى ياديفيد ، هل هذا وقت موسى بن عمران ، أم موسى بن ديان ؟

ـــ تمالك نفسك ياسيدى الجنرال ولا تنس أننا لازلنا مسئولين عن بضعة آلاف من الجنود ومائتين من الدبابات ، وعلينا أن ننهى مأمور يتنا بتقرير إلى القيادة .

ـــ ماذا نقول ديفيد ؟ ماذا نقول ؟ هل نقول أن المدرعات غرست فى الوحل حطاماً واستنجدنا بالمظليين لانقاذ رجالها من الدمار ، ثم انتهى أمر المظليين أنفسهم إلى الموت والحصار ، ثم راحوا يستنجدون بدورهم بالمدرعات مرة أخرى للاسراع بإنقاذ المظليين من القتل الذى استغرقهم ..

ثم قام من فوره وقد ركبته حيرة قاتلة ، وصاح فى قائد المظليين .

ــ قل لى ياديفيد ... من منا ينقذ من ! . المدرعات أم المظليون ؟ فحبس الآخر متحسراً وقد استل نفساً بصعوبة شديدة :

ــ لاأدرى . ولكنا فى وحل المستنقع سواء .

وعندما دق تليفون القيادة الجنوبية إيذاناً بلقاء غير مستحب معه ، دفع دانى الآلة بقدمه ، ونفث دخان سيجارته فى عسكرى الاشارة بغباء وصاح فيه فى جفاء :

ــ قل لهم أننى مت . أسرت . قل لهم أى شىء إلا أن أكون هنا على وجه الحياة . قل لهم أننى غرقت فى المستنقع حتى رأسى فى الوحل ، وعلى هؤلاء الأفاضل أن يأتوا لينفذوا خططهم التى وضعوها على موائدهم الخضراء ومقاعدهم الحريرية وهم يدخنون ويشربون ثم يأوون فى نهاية الأمر على أسّرة من الفراء .

واضطر يهوناتان ــ أمام انهيار دانى ــ أن يقرأ تقريراً مختصراً ومكتوبا ــ أملاه على عجل ، وكتبه الكابتن عامى ضابط الإتصال :

ــ سيدى . بإختصار شديد ، كل من تبقى منا ألفى رجل ، أفلتنا من مجزرة بشرية لامثيل لها بمعجزة ، وهؤلاء جميعا جرحى وعجزة لا يصلحون لأى قتال .

وكان الرد الوحيد الذى قاله لدانى الذى كان يصنت للمحادثة فى صمت :

ــ انتظر حتى نستوعب هذه الصدمة ، سنعاود الاتصال بكم .

وساد صمت ثقيل !

توالت تقارير المعركة إلى غرفة القيادة الرئيسية للجيش من الوحدات والسرايا ، كانت الخسائر محتملة ولكن القوات كانت مرهقة فى قتال ضارى منذ أسابيع ليلاً ونهاراً تدفع عنها موجات العدو المهاجمة فى إصرار على تدمير الفرقة ، ورغم أن قوة الفرقة لم تهن ، وأمامها الكثير من العطاء والصمود وكسر موجات هذا الهجوم على صخرتها رغم دموية وشراسة وكثافة هذه الموجات ، إلا أن القائد الفذ اللواء بدر قد رأى ضرورة إستعادة الزمام فى يد الفرقة ، فأمر بإجتماع عاجل

حضره العميد الطوبجى قائد الفرقة ، كما وصل فهمى الترك ، من قيادة المعركة ليلاً وجمع قواد السرايا والفصائل المقاتلة وبطاريات المدفعية والصواريخ إلى هذا الاجتماع الموسع .

كان القواد جالسين بوقار فى كراسى وثيرة من الجلد فى مكتب استراحة الرى الذى يشرف على هيئة عالية محصنة بالقرية ويطل على القناة من ناحية وحدائق القرية من جهة أخرى ، واتخذت منها القيادة العليا مقراً لها ، بعد أن فُجرت بين صخورها غرفة عمليات محصنة ومموهة تمويها جيداً بدغل كثيف وكثبان رملية طبيعية ، ومحاطة بعدة قواعد قوية للصواريخ والمدفعية .

وبعد تمهيد قصير ، بدأ قائد الجيش الكلام ، كان يتميز بقامته الربعة ورأسه الصغير الحليق وعينيه النفاذتين التى تنتقل بسرعة بين الحاضرين ، تشع ذكاء وفراسة ونفاذ بصيرة ، كما كانت كلماته سريعة كطلقات مدفع شديد الانفجار . قال وقد بدا عليه إرهاق شديد ، كمن لم ينم منذ ما يزيد على أسبوع كامل ، قضاها متنقلاً بين مواقع الفرق والكتائب :

ـ ليس أمامنا بعد هذه الوقفة التعبوية من سبيل ، سوى التحرك لا حتلال الطاسة والطريق العرضى أمامها ، لقطع خطوط تموين العدو وتدمير نقط تجمع قواته ، وشل حركته ، ومنعه من المناورة شمالاً وجنوباً على الطرق العرضية لاخفاء نواياه واتجاهات إندفعات هجوم أرتاله .

كان القادة يستمعون فى صمت بليغ وهم يسجلون فى مفكراتهم وعلى خرائطهم البيانات الضرورية والملاحظات العامة ، ولم يوجهوا أية أسئلة ، فقد كانوا معتادين على الطاعة والنظام ملتزمين بالضبط والربط وأخذ القائد الأعلى للجيش يشرح الموقف مفصلاً والتحركات الملازمة وهو يؤكد على كل فقرة من كلامه كعادته بقوله :

ـ هذا ما فعلتموه بسواعدكم أيها الصناديد ، وهذا ما انتظره منكم أيها الرجال . علينا أن نطاردهم هذه المرة إلى العمق واحتلال مثلث الطاسة لحرمانهم من المناورة أو إعادة تجميع فلولهم فيها ، ووقف عمليات التدعيم إليها ..

ثم أعطى الكلمة للعميد الطوبجي الذى كان صوته خفيضا متحشرجاً . قال :

ــ رغم خسائر الدبابات ، لكننا نستطيع أن نوفر ثلاث كتائب مدرعة وكتيبة ميكانيكية دون إخلال كبير بدفاعات الفرقة .. أما العمل الكبير والجهد الأكبر فسيكون على عاتق رجالنا المدرعون (ونظر مبتسماً ناحية الترك الذى أشار إلى رقبته علامة الفداء والاستعداد والتضحية فاستمر) .. الآن على بركة الله .

قام اللواء بدر وإختلى بالترك بعد أن أنهى الإجتماع موصياً وهما يسيران متجاورين ، فطمأنه الترك بأنه سيدفع بقواته الآن دون إنتظار ليعاجل العدو قبل أن يستعيد إتزانه بالكتائب المدرعة تعززها بعض كتائب المشاة والعاصفة فى هجوم خاطف نحو الطاسة مقتفين أثر فلول دانى التى وصلت الطاسة من ساعات .

كان المقدم المحمدى صادق يتقدم الأورطة الأولى على ظهر عربة سريعة نصف مدرعة ، كذلك كان قواد الفصائل فى عرباتهم المدرعة على رأس الفصائل التى انتشرت على طول الطريق فى تشكيل قتالى على شكل مروحة ، وخلف المدرعات امتطت المشاة سيارات سريعة مكشوفة ، يقفزون منها عند التعرض لطيران العدو أو أى خطر ثم ينتشرون ليختفوا عن الأنظار حتى يفتقدهم العدو ، وعندئذ يعاودون الهجوم ، وكان المقدم الترك والمقدم هارون قد استغلا عمليات التطهير التى تقوم بها القوات على المواقع التى تواجد فيها العدو ، وإندفعا بها فى هجوم خاطف نحو الطاسة أثر فلول العدو .

خلف المشاة تقدمت وحدات المورتر وكانت جديدة مجلوة ومتالقة وعنى بها الجنود الذين أتوا بها من المخازن على التو ، أما المدافع الهاو تزر الثقيلة ذات التأثير التدميرى القوى ، فقد بدا مظهرها منذراً بالشر ، حتى وهى مجرورة وفوهاتها موجهة إلى الخلف ، وتبع ذلك قافلة العربات الخفيفة والثقيلة الحاملة الصاريخ المضادة للدبابات ، وأخرى للدفاع الجوى ، ثم أخيرا القافلة الطبية بسيارتها الغطساء ، وستائرها المرخية الموحية بألوانها البيضاء فى بعضها الداكنة فى بعضها الآخر !

وعلى الرغم من أن الجنود كانوا يتوقعون بضع سويعات من الراحة بعد الانتهاء من صد الهجوم الاسرائيلي وتدميره لإلتقاط الأنفاس وتعويض الخسائر البشرية وإعانة الجرحى حتى يشفون ليعاودوا القتال معهم ، إلا أنهم فرحوا بهذه التجريدة التأديبية ، التى تجعلهم يهاجمون العدو ويثخنونه بالجراح ويحتلون أرضا ومواقع جديدة ، الأمر الذى يبعدهم كثيراً عن حرب الخنادق الملعونة .

إندفعت القوات بكل طاقتها ، بينما عربة القيادة كانت مقراً لإجتماع متصل بين المقدم الترك قائد الهجوم ونائبه المقدم هارون وكذا المقدم المحمدى صادق قائد المدرعات والمقدم عادل إسلام رجل المخابرات الداهية ، وأمامهم كانت خرائط الميدان واضحة عليها علامات بمواقع العدو وأخرى لإتجاهات الهجوم .. وفى النهاية كان الإتفاق كاملاً على خطة المعركة .

وعندما إقتربت القوة من المواقع الأسرائيلية أبطأت من سرعتها ، وظل قوس الدبابات الحى ينتشر ويتسع على الجانبين ملتفاً أسفل المرتفعات الحاكمة ، فبينما إمتدت زراعه اليسرى تجاه البحيرة ، اتجه الزراع الأيمن باتجاه المنخفض الذى اخترقه المشاة فى صمت واحتلوا مع حملة البنادق الكلاشنكوف قمم الهيئات العالية وحفروا فيها استحكاماتهم طول الليل وبطنوها بالرمل والصخور ! . أما وسط القوس فكان القلب يقوده العقيد المحمدى صادق وقد قطع خط الطريق العام العرضى الأسفلتى الذى يؤدى إلى الطاسة نفسها ، وقام الدهان ورجاله أثناء الليل بالبحث الدءوب وراء خطوط التليفونات الأرضية التى تصل قواعد الطاسة الأسرائيلية المتقدمة بمقر قياداتهم فى عمق سيناء ، ولم يهتدوا إليها إلا قرب الفجر ، بعد أن قاموا باعتلاء عدة حوائط من قرميد كالجلمود تلتصق بمقر قيادات العدو ومبانيه ، ليتتبعوا السلك منذ خروجه حتى إمتداداته وتشعباته فى الصحراء ، وكادوا خلال تلك العمليات الجرئية أن يتعرضوا للقتل عدة مرات ، ولكنهم نجوا بأعجوبة ، حتى أن بعض القنابل انفجرت تحت أقدامهم ، ولكن العناية الإلهية كانت الرقيب عليهم تحرسهم وترعاهم إلى أن إنتهوا من مهمتهم قبل طلوع الفجر بقليل ، واستطاعوا إتلاف السلك وفروعه ونزعه من الأرض وقصه لمسافات طويلة بحيث لا يرجى معه اى إصلاح !

وعنـدما عـاد الرجـال الأربعة من أبطـال سلاح الاشـارة ، التقو بـرجال الإستشكاف من أتباع الملازم أحمد السكاكى محملين بالمعلومـات الدقيقـة عن المواقع وكل شبر فيها ، فاستقبلهم المقدم الترك بنفسه وهنأهم على فدائيتهم التى أثمرت وأنجزت عملاً عظيماً ومهماً ومؤثراً عند إدارة أى معركـة ، وحمل عنهم جريحاً كان معهم إلى السرية الطبية وظل إلى جانبه حتى إطمأن على شفائه ، ثم أسرع إلى هارون وصحبه لقيادة قوات الاقتحام قبل أول ضوء ، بعد أن جاس ليلاً بنفسه ــ ودون علم أحد ــ بين المواقع الإسرائيلية ، إنه يريد أن يعمل بوصية اللواء بدر والعميد الطويجى ، ويقطع دابر هذه القاعدة التى أعدها العدو كركيزة محصنة لينطلق منها للهجـوم على مـواقع الفـرقة ١٦ مشـاة وأشار التـرك إلى المنخفض وقال لصديقه الباشا :

ــ هل ترى هذا المدق الجبلى ؟

ــ نعم .. إنه وعرجداً . ماذا يرجى من ورائه ؟

ــ إنه يقتحم خطوط العدو . وهو الوحيد الذى تركه العدو دون تحصين

ــ ماذا تقصد ؟.. هل تنوى أن تهاجم منه !

ــ سأندفع أنا بقواتى ، على أن تغطينى وقت اللزوم .

ــ علم . على بركة الله .

وقبل أول ضوء ، إندلعت صواريخ الاشارة وامضة ، وانطفأ بريقها الأخاذ ببطء عند طرفى القوس المتباعدين ، وضجت الوهـاد بهديـر اندفـاع الجنازيـر الصاخب ، ولكن مربعات الدبابات غير الواضحة لم تطلق النار حتى تلك اللحظة ، بينما إندفعت بعض الدبابات الخفيفة إلى مقـدم الطريق تطلق نـاراً تفتيشية ، وكأنها تبحث عن الأهداف فى ثقة ، ولكن العدو كان صمته مطبقاً . وقفز المقدم المحمدى صادق إلى حفرة التليفون غاضباً ، وقال لجندى الاشارة آمراً :

ــ اعطنى المقدم فهمى الترك بسرعة على التليفون .

إنه كان يتحرق شوقاً للقاء العدو ، والإندفاع ليركب مواقعه ، ولكنه كان مقيداً بالخطة التى إلتزم بها أمام قائد الهجوم المقدم الترك ، وهو الآن يريد أن يتحلل منها . إن ضعف العدو يدعوه إلى ضرورة التقدم والإنتهاء من المهمة ، ولكن المقدم

الترك كان مصراً على الإقتحام بالمشاة الصواعق لإحداث الإرتباك فى تجمعات العدو ، ثم إنه كان يخشى من حدوث أية أصابات بالمدرعات التى رأى أن يحافظ عليها سليمة إلى النهاية .

فلم يجد المقدم المحمدى أمامه شيئاً سوى الأذعان .

ولم يكد يضع السماعة ، حتى كان دوى المدفعية الهاوتزر والهاون والصواريخ المضيئة تصك الآذان ، ورسمت فوق المواقع الاسرائيلية قوس دائم من النيران المشتعلة ، فتتبع القصف بنظارة الميدان ، فإذا به يرى قوات الترك وهى تتقافز بين المواقع الإسرائيلية فى خفة عجيبة ، وأصوات الإنفجارات تتوالى داخل تلك المواقع ، فاهتجات نفسه بفرحةالنصر ، وأمر المدفعية بإطلاق غلالات من الدخان لتغطية الرجال وستر تقدمهم داخل المواقع . لقد كانت أصوات جنود توجيه النيران تختلط بأصوات جنود الإشارة مع صيحات رجال المدفعية المتعالية بالتهليل والتكبير مع كل إصابة يحققونها ، غير عابئين بجراحهم من قصفات دبابات العدو عليهم .

فى تلك اللحظة بدأ العدو يفيق من هول الصدمة القوية التى أنزلها به المشاة ، وأسرعوا إلى أسلحتهم ودباباتهم واستنجدوا بالمواقع القريبة لمؤازرتهم فابتسم المقدم الترك وقال لمساعديه :

ـــ إن الخسائر أطاحت باتزانهم . لسوف يرتمون الآن فى أحضان مدرعاتنا بلا فاعلية إنهم دائخون والاستسلام مصيرهم عليكم بمخازن المهمات والزخيرة .

فانطلق الرجال يدمرونها ، فأشعلوا فيها النيران ، وتعالت انفجاراتها وازداد زعر العدو ، وهجر أفراده مواقعهم خشية القتل ، وزاد الطين بله دخول قوات هارون ندا المعركة وإحتلالهم لمخازن الامداد والتموين :

وفى تلك اللحظة بدا العدو محاصرا ، وليس أمامه سوى الموت مكانه أو الخروج إلى الصحراء الواسعة ليقاتل فيها وجهاً لوجه ، أمام قوات مصرية أخذت أوضاعها الجيدة فى مواقع حاكمة ولم يكن أمامه من سبيل سوى الحل

الثانى ، وهنا أحس المقدم فهمى الترك بنية العدو وخروج أول دبابـة له ، حتى صاح فى التليفون :

ــ هنا صخر .. صخر يتكلم . أوقفوا إطلاق صواريخ الاشارة . العدو يخرج الآن بين أقدامكم . تعاملوا معه مباشرة أولاً بأول . انتهى .

وجاءه صوت النقيب شادى مختلطاً بأصوات القصف العنيف الذى كان يهز الأرض هزاً غير واضح وهو يؤمن :
ــ تمام ياأفندم علم .

وانقطعت صواريخ الإشـارات ، وخرجت الـدبابـات من مرابضهـا ، وبدأ الهجوم من كل نقاط التشكيلة المقوسة تحت عـين المقدم صـادق مباشـرة دون استخدام لأى نظارة ميـدان . واستدار الـذراع اليسرى للقـوس فجأة وزادت الدبابات الست المتطرفة سرعتها ، واندفعت إلى الأمام بهدير محركـاتها المهتـز متدحرجة على الرابية التى تواجه منفذ العدو الـوحيد إلى الهـروب ، ويبدو أن القوات الراجلة من المشاة المدرعين قد نجحوا فى اقتحام مواقـع الاسرائيليـين ونجحوا فى تفجير مرابض المدافع والدبابات الحاكمة كما قامت سرية بالهجوم على محطة مياه الطاسة وأسرت من فيها ونجحوا فى وقف فتح المياه إلى المعكسرات الأسرائيلية ثم قاموا بتلغيمها لتدميرها إذا أحاول العدو معاودة الهجوم عليهـا واستردادها ، وكانت هذه هى القشة التى قصمت ظهر القائد الاسرائيلى جاليلى بيلد ، وقرر بعدها عدم استمرار الصمود والخروج إلى الصحراء فراراً بـإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وهو سيموت لا محالة هو وقواته إن لم يكن بالنـار فبتعرضـه للعطش وانقطاع الماء .

وتقدم الجنب الأيمن وأطلق نيران دباباته السريعة المركزة ، فسحقت دفاعات الستره الأمامية بسلاسلها العريضة ، وأصيب لها دبابتان ، واستمـر الهديـر وداست مواقع الرمى الذى كان يطلق نيرانه بتركيز شديد فقضت عليه نهـائياً واحتلته المشاة وأصيبت دبابات ثلاث أخريات ، ولكنها خسائر لا تقاس بأعداد المدرعات الاسـرائيلية المحتـرقة ، بينمـا أشاع المشـاة المرعب فى جنـود العدو

بهجومهم عليهم بالاسلحة الخفيفة والسلاح الأبيض ، وكانت اعداد جنود العدو المذبوحين فى تزايد وقد تناثرت جثثهم بدون رءوس حتى غطت الأرض ، أما الرابية فقد تحولت رمالها من اللون الأصفر إلى اللون الأحمر الدامى .

وعندما استدارت الدبابات مرة أخرى بهديرها الحديدى وتوهج جانبها بوهج أحمر أظهرت موقعاً تحتياً لمربض صاروخى للعدو ، وقعت الدبابات فى نطاق مرمى نيرانه ، فصاح المقدم الترك فى كل الخطوط الموصلة لقواذف الرمى :

ــ أمر عاجل . كل الأسلحة تتجه إلى ٢٠ درجة شرقاً ثم الانحراف شمالاً درجتين اسكتوا الموقع فوراً .

ولم يكد يلقى بسماعة التليفون حتى تلقى الموقع كمية من نار لو دكت بها جبل لدكته وحركته من مكانه ، ولم تطلق القاعدة صاروخاً واحداً على الدبابات وتحولت القاعدة بما فيها ومن فيها إلى كومة محترقة حتى أن صخورها اشتعلت وتوهج لونها باللون الأحمر الأرجوانى .

اتخذ أحد المدافعين موضوعاً حسناً لمدفعه الصاروخى على بعد كبير من الطريق إلى المرء، وجلس فوق قاعدة المدفع وهو يسوق الحكايات المسلية لزملائه، فى ملل وتوتر، كانوا ينظرون إلى المعارك المحتدمة فى عنف يجل عن الوصف، حيث تتصاعد الصواريخ فى عناقيد مضيئة تظل معلقة بلونها الأرجوانى مدة طويلة فتضىء السماء البعيدة وتحرق السحب ثم تهوى إلى أبعاد سحيقة فى الفضاء البعيد ، كانوا ينظرون إلى صدامات الدبابات وقد تشابكت مواسير مدافعها لا يفصل بينها سوى عدة بوصات ، وكان المشاة يبدون عن بعد كنقط سوداء تظهر وتخفى داخل الرمال ، وتقفز فوق الدبابات الاسرائيلية وتدمرها ، ويحتلون الهيئات العالية وينصبون عليها قوذافهم المدمرة ، حيث يفاجأون الآليات الاسرائيلية فى الوادى من علٍ فيساوون دروعها بالأرض ، وكانت هناك فرق التفتيش المصرية من رجال قسم المعلومات ، كانت مهمتهم على جانب كبير من الأهمية ، صحيح أنها ليست قتالية ولكن مهمتها جمع وثائق العدو وخرائطه من المواقع التى يخليها والدبابات التى يهرب منها ، والآليات المصابة فى الميدان

وخاصة دبابة القيادة التى كان المقاتلون يعولون على الحصول عليها سليمة بأى ثمن ، وكـان رجال المعلـومات هؤلاء ينتشـرون وسط جنود المشـاة يبحثون عن صيدهم فى هدوء وصبر حتى يعثرون عليه فيقومـون بتجميعه وضمـه وتبويبـه ومقارنته بغيره من المعلومات المؤكدة ثم كتابة تقريرا وافيـا عن أهداف العـدو ونواياه فى المرحلة القادمة .

كان طاقم ذلك الموقع المدفعجى الفريد ينظرون لأنفسهم كأنهم عواجيز الفرح دون أن يعرفوا سبباً واحداً لوجودهم فى هذا المكان ، كانوا فى نكد وضيق لبعدهم عن نيل هذا الشرف العظيم للاشتراك فى المعركة ، وفجأة قفز قائد القاعدة من مكانه آمراً بعد أن كشف عن حكاياته :

ــ خذوا وضع الضرب فوراً

وراح بنظارته المعظمة يحدد لهم حجم الهدف ومسافته وزاوية ميله هكذا :

ــ النقطة اشارية رقم ٧ يمين ١٢ فوق ١٠٠ دبابات فارة من المعركة نحونا ــ أسكتها نفذ .

وأسرع الطاقم ينفذ الأمر الذى طال إنتظاره ، لقد عرفوا هدفهم ، وها هو دورهم فى المعركة قد بدأ . وعليهم أن يسدوا على العدو كل سبل الفرار ، كان هذا الموقع يحاصر الطريق من الطاسة حيث تحاصر الكثبان الرملية الطريق عند مناطق كثيف وأبو كثيرة والصبحة ، وتمنع المدرعات من المناورة فتصبح هدفاً مضموناً ضيده . وأطلق المدفع أول دفعة نيران ، فإذا بالدبابات ينفـرط عقدهـا بعد أن أنقلبت منها دباباتان على جانبيها ، وتوالت الدفعات الصاروخية حتى انتهوا من تدمير القوة .. ولم يمض النهار حتى تكررت هذه العملية عدة مـرات ثم صمتت المواقع الاسرائيلية إلى الأبد .

وقبل آخر ضوء تعرضت المنطقة كلها لغـارة شديـدة الوطـأة من الطيران الاسرائيلى ، وصل عدد الطائرات على الطاسة فى تلك الغارة ما يقرب من تسعين طائرة ميراج وفانتوم وسكاى هوك جديدة ولامعة ، وعلى الفور بدأت الدفـاعات الأرضية فى التعامل معها ، عـلى جميع الارتفـاعات من قـواعد ثـابتة وعـربات

متحركة ، واندفعت تشكيلات المشاة حملة الصواريخ سام ٧ المضاد للطائرات ، وشكلوا أقواس نيرانية منعت هذه الطائرات من الإقتراب أو المناورة من الهدف ، وبدأ حائط الصواريخ المتحرك عمله ، وبدأ التساقط السريع للقاذفات والمقاتلات الاسرائيلية كالعادة ، وعندما كانت إحدى هذه القاذفات تستطيع الإفلات من إحدى القواعد للمدفعية ، تجد قاعدة أخرى فى انتظارها قبل أن تختفى وراء السحب فى غياهب الأجواء العالية ، لقد بلغ عدد المنصات المجهزة لاطلاق الصواريخ أكثر من عشرين منصة ، كانت تغير أوضاعها بعد كل قذيفة بالإضافة إلى أكثر من مائتى بطارية للمدافع المضادة للطائرات وضعت بحيث تشكل فيما بينها حماية متبادلة ، وقد لوحظ من دقة استخدام الصواريخ أن بعض الطيارين الاسرائيليين كانوا يقفزون من طائراتهم بمجرد أن تشير أجهزة الإنذار لديهم بإطلاق الصواريخ نحوهم ، وكانت أعداد كبيرة من هذه الطائرات تسقط من تلقاء نفسها بعد مغادرة الطيارين لها ، كما سقطت بعض الطائرات ووجد داخلها طيارين مرتزقة مربوطين فى مقاعدها وقد نزع عنها جهاز إطلاق المقعد بالمظلة فى حالة إصابة الطائرة !

ولقد وقع عدد من الطيارين أسرى ، زادوا قليلاً على العشرة علاوة على مساعديهم والموجهين من الملاحين ، وقد اتضح أنهم جميعا مصابين بصدمات عصبية ونفسية لم يصلح معها أى علاج .

وحين صاح قائد فصيلة المشاة :

ــ على الهدف الأيسر جوا . إضرب .

وانطلق المدفع ممزقاً الهواء على المرتفع ، واندفعت فى نفس اللحظة تقريباً قذيفة صاروخية نحو ذلك الهدف ، ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، لقد شق السماء لسان عمودى من نار أعمى أبصار كل من نظر له ، واحس رجب موسى جاويش الفصيلة بإرتجافة شديدة والأرض تتحرك تحت قدميه ، ثم طنين حاد يدوى فى أذنيه ويشل تفكيره وحركته ، ثم يتدحرج هاوياً إلى قاع الخندق وقد صفعته موجة حارة من الهواء الساخن لفحت وجهه والقى شعره على عينيه ، وعندما تحسس وجهه بيده اصطدم بأفراد الطاقم بينما جندى الأشارة قد سال

دم رأسه ، ولما تحسس رأس الجندى كان واضحاً أن المخيخ قد برز ككتلة من اللحم والدم المتجمد خارج الرأس واستقر على قفاه ، كانت يده لزجة ومليئة بدم الجندى ، ولم تمض ساعات حتى لفظ الجندى أنفاسه ، وأتضح أن سقوط الطائرة الاسرائيلية كان فوق القاعدة ، وأطاحت بالطاقم كله واحترقت القاعدة ، وهوت الطائرة من عل إلى الهاوية ، كما تم إخلاء الجرحى وترحيلهم إلى المؤخرة .

وحتى منتصف الليل كانت عمليات التطهير وحصر الخسائر والمثالب التى خلفها العدو على قدم وساق ، وكانت حفرات القنابل على السترة الأمامية ماتزال ترسل الدخان ومازال الطنين يدوى فى كل الأجواء . وكانت هناك فى الصحراء البعيدة وميضات نار كثيفة تطلقها الدبابات الاسرائيلية الهاربة وفى أثرها كانت المشاة تسد عليها كل المنافذ ، وكان اطلاق النار مستمراً فى غير انقطاع ، وبدت المرتفعات كأنها ركام من فئام . ولم يكن أحد يستطيع أن يرى أشخاصاً ولا دبابات ، وإنما غلالات سوداء تكسو الأرض وتداريسها ، بينما كان الكل مغبراً يعمى الدخان عيونهم ويزكم أنوفهم وطعم الرمال والحديد الصدىء بين أسنانهم وعلى لسانهم ، واتجه الملازم محمد بشير نحو البطارية فرأى جندى الزخيرة راكعاً على ركبتيه وقد أسند جبهته فى وهن إلى رافعة المدفع ، وكتفه منهارة إلى المؤخرة . وكانت طاقيته ما تزال على رأسه الكبير يمسكها ضغط جبهته على ترس المدفع ، أما رقبته فكانت طياتها التى أسود لونها من أثر الشمس وعوامل التعريه وكأنها رقبة إنسان حى ملقاة على ياقته ، نظر الملازم حول المدفع فوجد حفر القنابل عميقة وواسعة يصل قطر دائرتها إلى أمتار عديدة ، ولقد أصابته شظاياها التى تنتشر فى مساحات واسعة فى دائرة قطرها يصل إلى حوالى نصف كيلو متر .

وبدأ الملازم المدرب يزرع المنطقة بعد أن صلى على شهدائه وأخلى جرحاه ، بدأ يبحث فى الحفر وفى طوايا المكان وتجاويفه وجيوبه بجهاز الرؤية الليلية (زينون) ووراءه بعض خبراء فحص وتفجير القنابل ، وفجأة وجد جسماً معدنياً قائماً بين حجرين فسلط عليه جهاز فى يده ، فإذا به يصيح فى مساعديه :

ـــ انتظروا لحظة . لا تقتربوا وخذوا حذركم .

وبعينه الخبيرة وبيده المدربة عرف أنه صاروخ لم ينفجر ، فتقدم كبير خبراء السرية يفحصه فأذا به يصيح منزعجاً وهو يرفعه بحرص حتى لا ينفجر :

ـــ صاروخ روك آى

كانت الفرحة غامرة بالنصر الكبير ، وصاح المقدم الترك فى جهـاز الارسال محدثاً العميد الطوبجى واللواء بدر على الطرف الآخـر الذى قلقـين على قـوات التجريدة .. قال :

ـــ لقد تم اخلاء مواقع الطاسة من قوات العدو .

ـــ اهنئكم وأهنىء كل فرد . الحمد لله .

ـــ الفضل لله ينتقم منهم بأيديكم . أتموا الاخلاء .. وعودوا بسرعة .

ـــ غنمنا دبابات على حالتها الجيدة ومدافع وعربات مصفحة .

ـــ عظيم . دعم بعض المواقع والهيئات المشرفة على الموقع ثم عد مع باقى القوات فوراً .

ـــ سأكون جاهز للتنفيذ فى الصباح الباكر .

ـــ على بركة الله . نحن فى الانتظار .

وانتهت المكالمة سريعاً .. وبدأت القوات تأخذ أوضاعها للعودة من حيث أتت وقد أتمت المهمة التى تحركت من أجلها .

* * *

الفصل السابع

الخدعة الفاشلة :

كانت تحطيم دفاعات القوات الاسرائيلية فى الطاسة ، مفاجأة أفقدت القيادة الأسرائيلية اتزانها على وجه العموم ، وقيادة جبهتها الجنوبية على وجه الخصوص ، وذهب بعقول قادتهم جميعاً ، وكان عليهم جميعاً أن يجتمعوا فى مؤتمر يشمل كافة قادة اسرائيل ويدفع بها نحو مجاهل زمن لا يثقون فى نتائجه . إن حجم الخسائر على الجبهة يكاد يكون مستحيلاً تصوره ، سواء فى المعدات أو الأفراد ، وشيء آخر لفت نظر رئيس أركان الجيش الاسرائيلى وأثقله بالحزن المقيت الا وهو ذلك النزيف المستمر فى قادة اسرائيل الكبار من قواد الفرق والألوية الطيارين . واتفقوا أن يكون مقر هذا الاجتماع هو سيناء !

وصل قادة اسرائيل الواحد تلو الآخر بالطائرات العمودية إلى مقر قيادة سيناء لإعادة التوازن لقواتها المنهارة ، وإيقاف نزيف الخسائر الدامى فى أفراده ومعداته لدرجة أفقدتهم إتزانهم أنفسهم ، وكانت الفوضى الشاملة والضياع الذى أفقده كل فرقه العاملة وتلك الأخرى المعززة ، بل أن كل الفيض الذى جلبته امدادات الجسر الجوى كان يذهب إلى جب عميق ليختفى فى أعماقه دون رجعة كان كل ذلك سبباً فى اهتزاز أعصاب قائد الجبهة واصابته بالشلل الرعاش ، وقال معتذراً لوزير دفاع جيشه حين استقبله على سلم طائرته العمودية :

ــ إننى آسف لأن الأمور تردت إلى الحضيض .

كان تشاؤمه كبيراً ومعدياً ، ولم يحاول حتى التظاهر بالتماسك ، وعندما دخل الوزير غرفة العمليات كان ممتقع الوجه ، تلمع حبات العرق البارد فى جفن عينه ، وقال للقادة المقعدين :

ـــ إن الوضع على جميع الجبهات خطير . إنها النهاية أيها السادة .

وأخذ ينقل يده المهتزة على خريطة العمليات مشيراً إلى المناطق التى يجب الانسحاب إليها للتقليل من حجم الخسائر مردفاً :

ـــ لم يعد لدينا ما نقدمه ، وحجم هذه الخسائر المرعبة ، تتحملها دولة صغيرة كأسرائيل ،

ـــ ثم توقف لحظة وقال فى حركة مسرحية :

ـــ أيها السادة . إن وجودنا نفسه يتعرض لزلزال عنيف

ثم أشار إلى قائد الجبهة قائلا :

ـــ عليك أن تتراجع بأقصى سرعة إلى ما وراء الممرات ، يمكنك أن تحصل على قدر من الأمان هنا . فى المثلث الشرقى قرب جبل (مرارة) .

وقام مساعد وزير الدفاع وسأل قائد الجبهة الذى كان يشير إلى خريطة أمامه :

ـــ ما تقديرك للموقف بعد عشرة أيام من المعركة .

فرد بتهافت شديد طالباً اعفاؤه من المسئولية .

ـــ إننى غير واثق من أننا سنصمد . اننا لسنا أمام مصر التى نعرفها ، بل انهم يتقاطرون علينا أفواجاً تلو الأفواج .

ووصل فى تلك الساعة الجنرال دانى موحل الثياب تحيط برأسه وذراعه الضمادات ، وقام باستطلاع وجوه الحاضرين غير مصدق أنه نفذ بجلده دون سلخ ،كان مذهولاً ، وكان متردداً ، واستمع إلى نداءات اللاسلكى كأنه يستمع إلى معزوفة الموت التى تسوقه إلى المدافن ، بإختصار كان مظهره يغنى عن مخبره ، ولكنه أسرع إلى سرير جانبى ورمى بجسده المنهك وصاح باكيا وهو يدفن وجهه بيديه :

ـــ إنها ليالى مرعبة ، بل مجزرة مريعة . إنهم يقتلوننا بالآلاف .

« وإستطلع قائد الجبهة صور الأقمار الصناعية بيج بيرد الأمريكية ، طائرات الاستطلاع الأمريكية (تليد ابن ريان ١٢٤ ـــ ١) وحاول قطع الصمت

الذى ران من حوله بأى شىء ولكن مساعد الوزير قام معتذراً وأبدى رغبته فى النوم وقد بدا عليه الإرهاق والتوتر ، وفى حقيقة أمره لم يكن به رغبة فى متابعة التطورات المحزنة على جبهات القتال ، والتى تلاحقت بشكل مزعج ، وعندما تقدم من أحد الأسرة الخالية تجاهل جندى الخدمة رغبته وصاح فى استنكار مزرى :

ــ يجب أن ينصرف من ليس له عمل هنا ! .

أما قادة الأركان فقد فرشوا فى الحافلات خارج غرفة العمليات وراحوا فى كابوس النوم الثقيل ضاربين بكل شىء عرض الحائط ، أما وزير الدفاع نفسه فقد جلس متقوقعاً على نفسه فى الركن وقد زادت حالته إكتئاباً .

واستطاع أخيرا قائد الجبهة وبعد معاناة شديدة ، تجميع بعض القادة الاحتياط من حوله ، ثم دفع دانى فى جنبه دفعة متوحشة أيقظته من نومته التى بدا فيها كالميت ، وراح يرتجف ويرفع يديه إلى أعلى مستسلماً وهو يصيح وقد تجمع لعابه عندقيه :

ــ لا .. لا .. لا تقتلنى يامصرى ، أنا القائد .

فنهره قائده وقد لطمه على وجهه :

ــ فق أيها الخنزير . إننا هنا فى غرفة القيادة . واجتمعوا حول خريطة ضخمة للعمليات معلقة على الحائط ، وقبل أن يبدأ فى شرح امكانية شق ثغرة من خلال دفاعات الفرقة ١٦ ، صاح دانى فى ثورة :

ــ إلا هذه الفرقة اللعينة ، اذهب إلى آخر العالم ، ولا أواجهها مرة أخرى ، فصمت الحاضرون قليلاً إلى أن صاح قائد الأركان فى هوس :

ــ وجدتها ..

ثم أسند رأسه بيديه ، وعندما استفسروا منه عن فكرته قال :

ــ ليس أمامنا غير الخديعة . إنها الأمل .

فصاح فيه دانى مرتبكاً .

ــ ماذا تعنى ؟ أفصح بسرعة ، إن الصداع يقتلنى .

وابتلع عدة أقراص مهدئة ، وجرع من زورق مياه حتى أغرق سترته ، بينما كان قائد الجبهة يزرع الغرفة بالطول والعرض ويضرب كفيه فى عنف إلى أن قال رئيس الأركان .

ــ هناك عدة عشرات من الدبابات المصرية من غنيمة حرب ١٩٦٧ .

فرد القائد فى استفسار :

ــ إنها لا تصلح لأى قتال !

فقال رئيس الأركان :

ــ ومن قال أننى أدفعها لقتال ؟ . سوف أدخل بها من طريق اعتادته القوات المصرية فلا يشكون فينا ووراء هذه الدبابات المصرية تكون قواتنا مطلية بلون دباباتهم وترفع نفس اعلامهم . وعندما يتنبهون إلى اللعبة يكون كل شىء قد إنتهى !

وأسرع قائد الجبهة مع دانى لتنفيذ الفكرة التى وجدوا فيها مخرجاً يمكن أن يحقق لهم شيئاً لحفظ ماء الوجه أمام المسئولين الأمريكيين الذين ما فتأوا يلحون سياسياً على القيادة الاسرائيلية لعمل شىء يمكن التفاوض عليه قبل وقف القتال ، خاصة بعد عمليات نقل الأسلحة الأمريكية بطريقة عرضت القوات الأمريكية نفسها لخطر الافتقار إلى جميع الأسلحة المتقدمة جداً ، بعد أن أفرغوا لها كل مخازن السلاح الأمريكية .

وعندما أصرّ قائد الجبهة بخطته لوزيره وقد جرى الدم فى وجهه لأول مرة ، أشاح الأخير فى وجهه ومضى دون أن يؤيد أو يبدى اعتراضاً ، وكل ما قاله قبل أن يقلع مع مساعديه بالهليوكبترات هو :

ــ إفعلوا ما بدا لكم .

وتحرك قائد الجبهة مع دانى بخطى ثقيلة ورأس أثقل ، ولم يعد أمامهما من شىء سوى الانتحار . وفى تلك اللحظة انفجرت أصوات القنابل بشدة زلزلت المرتفع الذى يشرف على مقر القيادة ، لقد اشتبكت كتائب فهمى الترك التى أبرتها الهليوكبيرات فى تلك البقعة العميقة من سيناء مع كتائب الحراسة المدرعة لغرفة العمليات الرئيسية وأصبح الموقف حرجاً ، وصاح جنود الأشارة واللاسلكى فى هلع وأغلبهم من المجندات :

ـــ المشاة . المشاة . إنهم يحاصروننا .

وأسرع القادة إلى عرباتهم المدرعة هرباً من المكان ، بينما انهمك مسئولـو الأمن فى جمع الوثائق والخرائط الأوامر لشحنها فى سيارة لتلحق بالمكان التبادلى المعد لهذا الأمر ، وفى تلك اللحظة كانت عدة قذائف هاون و (آر ـ بى ـ جى) تحطم عربة الوثائق وتقتل عشرة جنود وضابطين بها ، كما أصيبت عربة القيادة وانقلبت بعد أن أستطاع بعضهم القفز منها وأصيب البعض الآخر بعد أن أخرجهم من تحتها .

أما كتائب فهمى الترك فقد أوقعت خسائر فادحة بالمعسكرات الاسرائيلية فى المنطقة وأثارت فيهم الذعر والاضطراب ، وكان بعضهم يدخل على النار بصدره محمر العينين من قلة النوم حافى القدمين من الارهاق وهو يصيح :

ـــ أرحنى يامصرى .. هاها . مرحباً بالموت .

كما وقعت خسائر كبيرة جداً فى الكتيبة المدرعة ، وعندما بدأت تنظم صنوفها تعرضت لصواريخ الأفراد وقـواذف ال (آر . بى . جى) من الخلف ، وتلقت الضربة الأولى مصفحة راقى قائد الكتيبة فشقتها نصفين ومات القائد داخلها ، وبعدها إنطلقت الصواريخ والقواذف لتشعل النار فى جميع الدبابات . وقبل أن يفيق العدو لهذا الهجوم الكاسح ، كان القائد المصرى قد أخلى أرض المعركة من جرحاه وشهدائه التسعة إلى حيث تربض الهليوكبترات ليعودوا لقواعدهم فى نشوة ما بعدها نشوة .

وتعمق الشعور بالضياع لدى الاسـرائيليين ، وهم يطـاردون فى كل مكـان كالجرزان الضالة ، دون أن يغمض لأحدهم جفن ، وعندما اتصل قائد الجبهة بوزير دفاعه ليبلغه بالأمر ، وأن العناية الإلهية أنقذته من الموت بأعجوبة قال له الأخير :

ـــ حقاً لقد أفلت بأعجوبة . إن الطائرة تعرضت أثناء الاقلاع لنيران عنيفة ، ولكن الطيار ناور ولم يصدق نفسه عندما وجد الطائرة تقلع بعيـداً عن النيران المشتعلة تحتها ! .

وفتح المذياع عله يسرى عنه حزنه العميق فإذا بأغنية حزينة تتهادى إليه بصوت مطرب شيخ ، يتهدج صوته فيها بالشجن .. تقول كلماتها :

باسم الجنود الذين احترقوا أحياءً فى دباباتهم
باسم الطيارين الذين هبطوا والنيران مشتعلة فى أجسادهم
باسم الحزانى والأرامل واليتامى الذين جفت دموعهم
باسم .. باسم .. باسم ، أعدك ياعزيزتى الصغيرة
أن تكون هذه المجزرة الأليمة .. المعركة الأخيرة .

* * *

كان الضوء الذى انبلج على استحياء وخفر على حافة الشريط الفضى المتناهى البعد فوق الكون يبدو رفيعاً كحد السيف ، وكان انعكاسه على مياه البحيرة رائعاً ومثيراً للإعجاب ، ولم يبرح اللواء بدر النافذة ، ولم يستطع أن يبعد عينيه عن إطالة النظر الى آية الله الرائعة فى كونه ، وتذكر على الفور كلمة رئيس أركانه الهادئ العميد زاهر الريدى وهو يباسطه الحديث : إنى أحسدك ياسيدى ، إن هذه الروابى تطل على المياه ، وتتيح منظراً رائعاً للشاطىء .. إنه لمنظر فريد من كل جهة . أوه لو كنت مكانك ياسيدي !

ولكنه فى النهاية أضطر إلى الإرتداد إلى الداخل ، فقد إتصل به ، منذ لحظات على الخط الحربى ، اللواء دكتور ميخائيل رومان رئيس هيئة الإتصال والمعلومات بالجيش ، وأبلغه تمنيات الرئيس والوزير والقادة الكبار رؤساء فروع القوات المسلحة بالتوفيق فى الموقع الجديد ، وتمنى له أن يقطع دابر العدو ويمنعه من التفكير فى معاودة الهجوم ، كما أبلغه بأن طابوراً مدرعاً للعدو ويمنعه من التفكير فى معاودة الهجوم ، كما أبلغه بأن طابوراً مدرعاً للعدو فى الطريق نحو البحيرات للاستيلاء على الطريق العرضى عند الطاسة التى استولى عليها المقدم فهمى الترك ، وقد تغير اتجاهها إلى مزرعة الجلاء النموذجية مباشرة وأياما كان الأمر فنحن على ثقة من أنك ستتعامل مع معطيات الميدان بكل الذكاء والوعى ، أن القيادة تطمئن كل الاطمئنان على هذه الجبهة تحت قيادتك . فشكره اللواء بدر ،

ونوه على الصداقة الوثيقة التى تجمع بينهما ، ثم استأذن اللواء دكتور ميخائيل على وعد باتصال قريب .

نظر اللواء بدر إلى العلم المصرى الموضوع على قاعدة معدنية فوق مكتبه ، وأخذ يداعبه بأصبعه فى حب زائد ، وتمتم :

ــ كم أنت عزيز علينا ، يخفق لك كل قلب ، كما تخفق فى الهواء مرفرفاً مع الريح ! وألقى بسيجارته فى المطفأة ووقف ساهماً ، ولم يكن مرد ذلك حيرة تدب فى نفسه ، بقدر ما كان تفكيراً حاداً حول نقطة غريبة لم تخطر ببال أحد ، لقد وقف على قصة البطولة التى خاضتها الفرقة ١٦ والانتصارات الدامغة التى حققتها حتى زاعت شهرتها الآفاق ، وأصبح العدو يخشى الاقتراب منها ، كما يخشى اليهودى الموت ، وهذا فى حد ذاته ــ عنده ــ خطر وأى خطر ، فقد عرف ــ ببصيرته الوقادة ـ أن الثقة الزائدة فى النفس ، شأنها شأن الجبن سواء بسواء مهلكة لصاحبها ، وكان يعرف أن الجنود والضباط اعتادوا على فكرة هزيمة العدو فى كل المعارك ، وأن الضعف الواهن والهزائم المتوالية للإسرائيليين قد يدخل شىء من الغرور والثقة الزائدة إلى نفوس القادة والجنود ، الذين شربوا دم العدو وسحقوا عظامه واحرقوا لحمه ، وخشى أن يؤخذوا على غرة ــ تحت تأثير هذه الفكرة المهلكة ــ فيفقدوا توازنهم ! .

وتحدث فى هذا الأمر مع رئيس الأركان ، ورأى أن يبدل بعض المواقع ، ويجرى بعض التنقلات بين القادة الأصاغر فى الوحدات ، ولكن رئيس الأركان إستبعد الفكرة لضيق الوقت ، واحتدام المعارك بصفة مستمرة ، عزز ذلك بطلبه الدائم بتواجد ضرورى لبعض كتائب المدرعات والمدفعية الاحتياطى ، فأقره على طلبه ، وأجل فكرة تبادل القادة بين الكتائب ، وقال وهو يشعل سيجارة جديدة وقد عاد إلى المنظر الساحر من النافذة :

ــ إن الوقت والحكمة والعمل الدءوب لهو الطريق الأوفى فى حل كل أزمة . لا تشغل نفسك ، إلىّ بآخر التقارير عن الاستعداد الميدانى . كلا لاتفعل أريد جولة بين المواقع الدفاعية حالا . أعد السيارة .

وهبط درج القيادة مسرعاً ، فإذا أصوات الطلقات تفاجىء كل الموجودين واضطروا للاحتماء بالسواتر ، ثم انفلت اللواء بدر وهو يصيح فى غضب :

ــ ما هذا ؟ . ماذا حدث ؟

لقد كان هجوماً اسرائيلياً مفاجئاً ، تقدم أمام مرأى القوات المصرية حتى وصل إلى الطالية وأطلق النار فجأة ! . كيف حدث هذا ؟ وكيف دخل إلى هذا الحد من القلب داخل المواقع المصرية ! هل تحققت ظنون وهواجس اللواء بدر ! أم ماذا بالضبط ؟. إنه شىء خطر ومحير ! .

وأسرع اللواء بدر بالاتصال بقادة كتائب المقدمة فى هدوء يسألهم كيف حدث هذا ؟ فصاح اللواء بدر مهموماً وقد تقاطرت أمامه تقارير شتى :

ــ كنا فى إنتظار قوات الطاسة ، ولكن خدعة يبدو أن العدو استغلها ليدخل مكانهم

ــ إن هذا أمر خطير . إنزل إلى المواقع لترى بنفسك وسأوافيك هناك حالاً .

ــ إننى فعلاً أتحدث إلى سيادتكم من الخطوط الأمامية ..

ــ ماذا يدور .. ؟

ــ دبابات روسية فى المقدمة مدهونة نفس دهان دباباتنا وترفع الأعلام المصرية .

ــ نفس الخدعة القديمة ! عموماً سأكون عندك حالاً .

وكانت القيادة الاسرائيلية قد لجأت للحيلة والمخاتلة ، فتحرك الجنرال دانى على رأس قوات جديدة تتقدمها عدة لواءات من المظليين تحت رئاسة مباشرة لقائدهم ديفيد يهوناتان الذين خصصوا له محفة خاصة ، بعد أن طلوا الدبابات بنفس ألوان الدبابات المصرية ، ثم دفعوا أمامهم بدبابات روسية الصنع فى مقدمة الهجوم ، كانت لدى اسرائيل من الحروب السابقة . ولم يتوقف الخداع الاسرائيلى عند هذا الحد ، بل إنهم استعملوا نفس الطريق المقرر عودة القوات

المصرية منه من الطاسة بقيادة المقدم فهمى الترك ، والتى كان ينتظر وصولها بين ساعة وأخرى بل وألبسوا جنودهم الزى الخاص بالقوات المصرية واتجهوا إلى المزرعة مقيدى الاضاءة مع الإلتزام التام بالصمت لاسلكيـاً ، ورفعوا الاعـلام المصرية على وحداتها ، تماماً مثلما فعلوا سابقاً فى محاولاتهم لاقتحام طريق بالوظة /الطاسة عند بحيرة البردويل ، بإحداث ثغرة عند تقاطع الطرق والإفلات منها إلى الماء ، لولا أرض القتل التى استدرجهم إليها اللواء بدر فى أرض سبخة بين القناة والبحيرة (البردويل) وحاصرهم من جميع الجهات ، وقضى عليهم قضاء مبرماً ، ولم يعد لهم قائمة ، وهاهم يحاولونها مرة أخرى عند مزرعة الجلاء وهدفهم دائماً الماء . وصاح اللواء بدر مغادراً القيادة :

ـــ مهلاً بكم مرة أخرى !

ويبدو أن هجوماً اسرائيليا جديداً قد بدأت أنباؤه ومقدماته على الفرقة ٢١ شمال قرية الجلاء ، وكان هذا تكتيكاً اسرائيلياً للفت الأنظار بعيداً عن الهجوم الاسرائيلى الرئيسى جنوب القرية على الجنب الأيمن للفرقة ١٦ .

وتقدم الهجوم الاسرائيلى فى طريقه صامتاً وأفراده يرفعون أيديهم بالتحية ! ويبدو أن المواقع المصرية المتقدمة ، قد تصورت فى البداية ، أنهم بالفعـل أمام قوات مصرية ، حتى مرت نحو الطالية ، بينما اتجه المظليون عن طريق إلبحيرات نحو شط القناة عند إلتقائها بالبحيرة المرة الكبرى ، وهنا دب الشك فى نفس القائد المصرى للمدفعية أثناء مروره على المواقع ، فقام بمحاولة الاتصال لاسلكيا على الموجة العاملة للقوات المصرية فلم يردوا عليه ، فأنذرهم بالضرب إن لم يحددوا هويتهم ، ولكنهم أيضا لم يردوا ، وهنا دب الشك الذى يقرب من اليقين فى هوية هذه القوات المصرية المزيفة ، واتصل العميد الطوبجى وأحاطه بحقيقة الأمر ، فقام العميد على الفور بالاتصال بالمقدم فهمى الترك بالطـاسة فـوجده قـد ترك الطاسة فى الطريق حسب الأوامر . وهنا وقف على حقيقة الخدعة التى لجأ إليها العدو ، فأمر قواته بنفسها على الفور .

وانفتحت أبواب الجحيم على القوات الإسرائيلية ، بكل معـدات الضرب ، ووجد رجال المشاة ـــ أكلة الدروع ـــ فرصتهم السانحة ، ولعبتهم المفضلة حيث

انطلقوا يصيبون الدبابات فى دروعها وجنازيرها ، ويعتلون فوهاتها ، ويركبون طاقمها ، واستعر القتل فى الاسرائيليين ، والتحطيم فى دباباتهم حتى بدت المنطقة كحريق جهنمى يظله القتام والنيران الحمراء والدماء الفائرة ، ورائحة الشواء البشرى .

أكل الغيظ قلوب الجنود المصريين ، وبدوا فى قتالهم على نحو من الشراسة والفدائية إلى درجة أنهم لم يكونوا ليحاذرون الاقتراب من مراكز العدو الخطرة ، واندفعوا — وقد أخذوا على غرة — وانهمرت الصواريخ ودانات الهاون القريبة والهاوتزر البعيدة المدى ، ودبابات الطالية تحصد دبابات العدو ومركباته حصداً ، وكان القادة يسابقون جنودهم فدائية فى اقتحام صفوف العدو ، حتى ظن دانى أنها نهاية الكون ، وأنها الساعة التى تقوم فيها قيامة البشر ! .

وأخيراً انحل عقد القوات الاسرائيلية ، وبدأت فى التراجع ، فتفرقت الدبابات والمدرعات المتبقية تبحث كل منها عن فسحة للهروب ، حتى تباعدت عن بعضها فى الصحراء البعيدة ، وانطلق المشاة فى إثراهم كالعادة يطاردونها فى كل مكان وراء التلال والكثبان الرملية يتخطفونهم كرسل الموت العاجل بصواريخ الكاتيوشا وال (آر . بى . جى) ، وتدمرت الأولوية وأخذت الدبابات مأسورة بأطقمها ومحركاتها دائرة . كانوا يستسلمون جماعات جماعات داخل الدبابات وهم يرفعون الخرائط كأعلام بيضاء ليعلنوا تسليمهم قبل أن يموتوا ... !

وهكذا حصل العميد الطوبجى على إمدادات طيبة من الاسرائيليين ، واقتحم العميد بنفسه المعركة على رأس كتيبتين مدرعتين وثالثة ميكانيكية ليسد الثغرة التى دخل منها الهجوم الإسرائيلى ، وحتى لا يفكر العدو فى أى محاولة أخرى له من هذه الناحية ، كما أسرع اللواء بدر إلى المنطقة بنفسه ومعه أركان حربه ، ووقف على الرابية إلى جانب سرية القواذف اللهبية التى ما فتأت تشعل النار فى مركبات العدو فى قذفات دقيقة ومتوالية ، وجعلت الحرائق تشتعل فى كل مكان تتحرك نحوه مركبات العدو ، فأثنى اللواء على المقاتلين وراح يحثهم على الاجادة ، ثم انتقل إلى مواقع أخرى للقواذف الصاروخية التى كانت ترف فى الجو بالمئات

وتنهال على العدو فوق أم رأسه ، وحدث أن استدارت إحدى مصفحـات العدو وأطلقت صفيراً حاداً من قذائفها الرهيبة (س س ١١) ، فانفجرت تحت أقدام الطاقم نفسه ، وكادت القذيفة تصيب اللواء الفدائى مباشرة لولا أنه قفز بخفة إلى الملجأ المعد تحت قدميه ، وعندما قفز إلى موضعه الأول مرة أخرى ، كان الرجال قد وضعوا آخر كلمة فى حياة هذه المصفحة اللعينة ، فقد أرسلوا لها صاروخا لوب أتى عليها وقسمها شطرين طارا فى الهواء .

كان الهواء يرتج بفعل دمدمة كل سلاح سواء من قنابل الترامبد التى برع المشاة فى قذفها من فوهات الدبابات بعـد القفز عليهـا حتى هزيم مـدافع البـر الغربى ، وبدأت مدافع الدخان تقذف قنابلها نحو دبابات العـدو حتى تصيبهم بالعمى ، بعد أن زادت من نشاطها وقد أغلقت عليها منافذ الهرب ، وبدأ رجال المهندسين فى إشعال فتائل الألغام ، بعد أن إستطاع العقيد أركان حرب جلال همام ــ قائد المعركة ــ أن يدفع ببقايا الهجوم نحو حقل ألغام كان مجهزاً من قبل كمصيدة قتل لإيقاع الهجوم الأسرائيلى فيه ، فإذا بانفجار مروع يهز المكان عندما اصطدمت أولى دبابات العدو بلغمها الأرضى ، ثم توالت الانفجارات ، ففطن العدو إلى المصيدة المصرية التى أندفع إليها بغبائه ورعونته ، فأسرع بالارتداد ، ولكن كمائن المشاة كانت فى إنتظارهم على طريقة اللواء بدر فى تفريغ المعركة من المدرعات المصرية كى يحارب العدو بجنده الخفية من المشاة الذى لايظهر الواحـد منهم إلا لكى يضرب ثم يعود إلى باطن الأرض واختلطت أصوات الأنفجارات وصرخات الاستغاثة مع صيحات وحشية ، واعتلت الجو فى شكل مرعب ومخيف ، وزحف الرجال يتسلقون الروابى ويتقـاذفون عـلى الدبـابات ، وتسـابقوا فى تحطيمهـا فأسرها ، وأخفق بعضهم وأصيب كثير منهم ، ولكنهم أبداً لم يتراجعوا واستمرت أمواجهم تتوالى فى زحف طويل ، وفى اصرار وعزيمة تهد الجبال وسط ألسنة اللهب والوهج ، كان البعض يصاب فيندفع بأحزمتـه الناسفـة نحو الـدبابـة مفضلاً الإستشهاد ، وكانوا يتحايلون على رشاشات الدبابات بضربها من الخلف أو قذفها بالصواريخ فى جنازيرها ، وكانت تلك الدبابات الجديدة اللامعـة تستديـر حول نفسها وتضرب فى جميع الاتجاهات ، ولا تكف عن الضرب حتى بعد اصابتها ،

ولما فحصوها بعد السيطرة على مجموعة منها ، وجدوا أسلحتها تستمر فى الضرب أوتوماتيكيا دون جنود ، فصدرت الأوامر للتعامل مع تلك الدبابات الجديدة بضرورة تحطيم مدفعها أولاً حتى يسكته ثم يدمر الدبابة بعد ، ذلك ، واستمرت المعركة طوال اليوم والليل واليوم التالى ، دون أن تتوقف ، لقد كان تسلل العدو داخل الدفاعات المصرية عميقاً بفعل الخديعة ، واستطاعت بعض الكتائب الاسرائيلية دخول قرية الجلاء لأول مرة ، وأطلقت مدافعها على سرية الشئون الادارية فأبادتها ، ثم احتلت أبنيتها ، فكان قرار العميد الطوبجى بنسفها بمن فيها ، عندما أرسلوا أحدى الجنود المصريين من داخل المبنى للمساومة وتبادل الأسرى ، فانصبت على المبنى حمم من قذائف المدفعية والصواريخ ، ولما تساقط أفراد العدو داخل المبنى قتلى ، أعلنوا استسلامهم بلا شروط واتجه المقدم الترك وزملاؤه الذين كانوا قد عادوا على وجه السرعة بعد أنباء الهجوم الاسرائيلى التى تواترت إليه ، فوجهوه على الفور إلى الطالية حيث خاض معركة ضاربة مع وحدات الهجوم المتقدمة للقوات الاسرائيلية ، وأبلى فى هذا المعترك بلاءً عظيماً حتى أنه أصيب بعدة شظايا ، ولم يطلب العلاج واستمر فى عمليات الهجوم حتى أجبر قوات الهجوم على التراجع وحرر الطالية التى احتلتها القوات الاسرائيلية لمدة عشر ساعات هى عمر المعركة ، وعندما إنسحبت أمامه القوات الاسرائيلية تشتتت داخل مواقع القرية ، فأخذت طريقها إلى الحدائق للاختباء فيها ، فاضطرت المدفعية إلى نسف الحدائق بما فيها من مدرعات ومن فيها من قوات للعدو ، لقد كانت معركة شرسة حتى أن المقدم الشهابى قائد المدرعات استبدل دبابته عدة مرات وهى تصاب جميعاً أثناء إقتحامه التباب لاجلاء الاسرائيليين منها . إنها معركة شرسة بكل المقاييس ، اشترك فيها جميع القادة جنباً إلى جنب مع كافة الجنود ، ومات من الجانبين خلق كثير ، وتشابكت فيها مواسير الدبابات وكانت تصيب بعضها البعض على مسيرة خطوة يخطوها المرء وهو متثاءب ، وأنصهرت مواسير كثير من المدافع من كثرة الإطلاق ، وتحول كثير من المشاة إلى قنابل وألغام بشرية ، عندما ينضب سلاحه من زخيرته ، فلا يرضى لنفسه أن يعود ليتزود بالزخيرة تاركا العدو لحظة واحدة .

لقد كانت أيام المصير حقاً ، إنها أيام العرق والدم والدموع ونهر العواطف الوطنية الجياشة ، أيام التضحية والفداء والجود بالأرواح إلى آخر الحدود . لقد نسى هؤلاء الفتية الحياة نفسها ووهبوا كل أنفسهم وما يملكون فداء وطنهم . إنهم رجالات مصر ولا فخر ، لقد كان رجال الهاون والصواريخ يسجلون كل الأرقام التى يحصدونها من دبابات العدو ومركباته حتى كلت أيديهم من الكتابة ، وأصيب بعضهم ورفضوا إخلاء مواقعهم حتى تنتهى المعركة ، وتناثرت جثث الاسرائليين بغير عدد ، وحاول العدو أكثر من مرة إخلاء جرحاه أو قتلاه ، فارتفعت خسائره ، وأصيب بضربات قاصمة جعلته لا يعاود المحاولة ، وظل أفراده مجندلين بالبطحاء طعماً لكواسر الطير وجرزان الصحراء .

واقتفى الفدائيون أثر العدو داخل مبانى القرية والمزارع والحدائق المحيطة بها ، بعد أن تسلل إليها للاحتماء من نيران المعركة المستعرة فوق الطالية ، وأوقعوا به هزيمة رادعة لم تبق على مركبة من مركباته ، فكانت القرية وضواحيها بمثابة مقبرته الأخيرة !

والخطير فى الأمر أن العدو ــ يبلغ إلى حلقوم القوة الضاربة للفرقة ١٦ ، وعندما أخذت تضرب القواعد المصرية ، أخذ البعض على غرة وصاح الجنود من شدة الغيظ : هل عادت نكسة ٦٧ مرة أخرى ! كيف دخل هؤلاء إلى المواقع ؟ وانتشرت الصيحة إلى المواقع المجاورة لقد كانوا بالفعل أمام قوات مصرية : لون الدبابات . الأعلام . حديث الجنود وهم يلوحون لهم بالعربية .. الخ .. إنها خديعة محبوكة جداً ، ولكن الله سلم وهب الجنود يدفعون العدو بقوة من فوق صدورهم :

بعد الانتهاء من معركة الطالية الدامية ، بدأت القوات تنطلق إلى الساحة فى صفوف ممتدة من ثلاث أو أربع ، وكانت المقدمة دبابات سريعة خفيفة ومدافع صاروخية ذاتية الدفع ، وانطلقت نيرانها بأصوات تصك الآذان وتدوى فى الأرجاء متجاوبة مع المدفعية بعيدة المدى بالضفة الغربية التى استمرت طول الوقت تصب جام غضبها على مدرعات العدو ، التى فاجأها الهجوم الأخير من الخلف فاستدار بعضها وبادل القوات المصرية النيران ، بينما وقع معظمها أسير الإصابة من

الخلف ، كانت الدبابات وأفراد المشاة تزحف تحت سحب الدخان القاتمة كمخلوقات ماقبل التاريخ تنفث ناراً .

وعاد الرجل فى جماعات فوق الرمال المكشوفة ودون مناورة فى مواجهة العدو ، فإذا بقنابل الهاون من مدافع القوات الاسرائيلية تنهال عليهم تحصدهم ، فزحف الكثيرون إلى الفجوات الرملية ، وأسرع بعضهم وهم كثير يتقافزون إلى جانب الدبابات والمدافع حتى امتلكوا ناصية الطريق إلى الدغل المنتشر على طوال البحيرة ، كانت الخطة تقضى بدفع كتائب المشاة إلى الأدغال لحرمان العدو من الانتشار فيها عند تراجعها للإحتماء ، واكتظت الأدغال بالمقاتلين من كل صنف ولون ، وبدأ يخرجون إلى أطرافها ليصطادوا العدو من الخلف ، وأشاعوا الرعب والخوف بين صفوف دباباته ، ووقعت دبابات العدو بين القوات المدرعة من الأمام والمشاة من الخلف ، واستعر الضرب والتدمير ولم تأبه القوات المصرية لخسائرها ، ولكن التدمير كان شديداً وكاسحاً فى صفوف القوات الاسرائيلية ، باختصار شديد لم يكن أمامها سوى الإبادة الكاملة أو الاستسلام ، فدفع دانى مساعده للاستسلام رافعاً الرايات البيضاء ، بينما اندفع هارباً وسط حراسة العربات المصفحة نحو طريق العودة إلى الطاسة هرباً .

وقبل أن يدفع مساعده الرجال بالإعلام البيضاء عاجلته قنبلة مباشرة أطارت البرج واحترق كل من كان معه داخل الدبابة ، وانتشرت الدبابات الإسرائيلية مذعورة ، وأطقمها تندفع منها إلى الخارج تاركة محركاتها دائرة .

وفى حركة بارعة أطبق المقدم مصطفى الشهابى على الجناح الأيمن لطابور اسرائيلى وأقتحم فواصله ، فعزلها عن بقية قواتها ، ودفع بها نحو البحيرات ، وحاصرها ولكن دفعة مباشرة من دبابة اسرائيلية انطلقت نحوه فناور ليتفاداها ثم أنطلق نحوها ، وأمتلكها من المؤخرة ثم أفرغ فيها مدافعه فاشتعلت فيها النيران ، وقبل أن يستدير وجد عدة دبابات اسرائيلية فى مرمى نيرانه فاتخذ ساتراً وراء الدغل وحصدهم بقدائف مباشرة واستدار بالدبابة الاسرائيلية احست بأهمية من فى داخل الدبابة ، فحاولوا الاقتراب نحوه من ثلاث جهات لأسرة ، ولكن الأرض انشقت ، وكشفت عن مجموعة من سبعة رجال من رجال العاصفة ، فاتجهت

نحوهم احدى الدبابات للخلاص منهم ، بينما استمرت الدباباتان الأخريتان نحو هدفهما ، إلا أن الرجال كانوا أسرع وأشد فتكاً ، ورقد كل إثنين منهم فى وضع الضرب من دبابة اسرائيلية ، وأطلقوا فى وقت واحد سبع صواريخ كاتيوشا أطاحت بدبابتين وأفلتت واحدة اندفعت لتصطدم بدبابة القيادة ، لكن المقدم الشهابى عاجلة بقذيفة مباشرة أطاحت بدرعها الجانبى ، ولكن الدبابة استمرت فى اطلاق النار فأصابت البرج ، لكن رجال العاصفة عاجلوها بعدة قذائف نسفتها نسفاً .

وعندما ترجل المقدم الشهابى ، شعر بثقل فى راسه ، وخطى الدغل بخطو ثقيل ثم استند على ساتر ملجأ المدفع الكبير ، وطلب ماء فوافاه المدفعجى بزمزميته ثم عاد إلى مدفعه يشارك طاقمه عمليات القذف الثقيل التي كانت تصك الآذان .

كان يراقب فى قلق الرجال عن بعد ، كانوا يبدون أمامه كنقط وهم يقفزون من حفرة إلى أخرى ، ومن رابية إلى التى تليها ، ومن خلال كثافة الإنفجارات واتساع نطاقها ، وحجم القذائف المتبادلة التى ترف فى الجو كالجمر المتقد ، أدرك أن المعركة طويلة الأمد مستعرة الأوار ، وأن الرجال يصلون أتونها ، ولكن رغم ذلك كانوا يتدفقون من القرية أمواجاً وراء الأمواج ، متلهفين على الصدام العدو وضربه ضربة قاصمة ، ليست ككل ضربة ، لقد سدوا عليه هذه المرة طريق العودة ، وحاصروه من الخلف والواجهة ، والتفوا حوله من الأجناب ، وقطعوا عليه كل سبيل ، فصار يدفع عن نفسه الموت إما بالأسر أو الانتحار ، وبهروب الجنرال دانى من المعركة ـ وهو قائد الهجوم ـ أصبحت تصفية الهجوم وتدمير آلياته مسألة وقت ، وهو ليس على رجال المشاة بعسير !

وأزدادت حالة المقدم الشهابى بعد إصابته اثناء بلائه المنقطع النظير مع دبابات العدو ، فترك رأسه يهوى على الأرض ، إذ لم يشأ أن يرى تتابع هذا المشاركة فيها ، وشعر بالارهاق يستحوذ عليه ، ووضع يده على رأسه فأحس بشىء لزج فعرف أنه النزيف .

ومضت دقائق ثقيلة ، كان يقاوم فيها أى صيحة أو حتى أنه للألم ، وجاء الملازم عبد العاطى سلامة قائد سرية المشاة الخامسة ومعه الطبيب ومجموعة من

المرضيين يرفعون حمالاتهم على إحداها أسيران فى حالة سيئة كان يصرخون فى كل لحظة بصوت ملتاع باللغة الانجليزية :

ـــ ماء . ماء .. الغوث .. الموت ..

فترك المدفعجى طاقمه وبلل ريق كل منهما بجرعة ماء ، فسكتا على مضض وإن حدجه بنظرة خفرة فيها كل أحساس بالانسانية المعذبة واعتراف له بالجميل ، ثم أغمضا عيونهما مستسلمين لمصيرهما أيًا كان بعد هذه المعاملة الطيبة التى لاقياها وهما لا زالا بعد على أرض المعركة ، ولا زال القتال والقتل مستعرٌ بين الطرفين !

وحمل الرجال قائدهم ليستلقى على حمالة نظيفة مفروشة بغطاء أبيض ناصع ولكنه طلب ربط رأسه بالضماده ، فاستجابوا لذلك ، وهنا أحس بإنتعاش خاصة بعد أن زوده رجال المدفعية على الطاقم ببعض العصائر المثلجة ، ثم اعتذر لهم وشكرهم وطلب دبابة القيادة بسرعة ، وحاولوا منعه من مواصلة القتال طلباً لنوع من الراحة حتى يتأكدوا من جرح رأسه ، ولكنهم فشلوا ، وقال لهم ، وهو يقفز إلى فوهتها فى خفة ليريهم أنه بخير :

ـــ ليس هذا وقت التمارض والاستشفاء .

وعاد عن طريق اللاسلكى ، يتصل برجاله ، ويطمئن على سلامتهم ، فسر كثيراً عندما علم بأن ضربات العدو المضادة ضعفت إلى حد ملحوظ ، خاصة من الوسط والجنب الأيسر ، وأن الجنب الأيمن للهجوم الاسرائيلى لازال يهاجم الطالية عبر ثغرة شقوها فى قطاع اليرموك . بحوالى تسعين دبابة ، وأن المدفعية ـ كالعادة ـــ فتحت عليهم وابلاً من الجحيم قطعت عليهم خط الرجعة ، كما بدأت جماعات القواذف الصاروخية عملها معهم من فوق التلال الحاكمة بقيادة المقدم فهمى الترك وسائر الرجال ثم سأل عن حامية الطالية وسرايا الإداريين ، فأجاب الخط الآخر بأنها (جهنم الحمراء) ثم قيل له إن هذه السرية المنكوبة التى تحملت وحدها مقدمة الهجوم المخاتل لم يبق منها سوى عشرة رجال أو خمسة عشر رجلاً فصاح الشهابى لسوف ننتقم لهم ، وحسناً فعلنا ، لن يعود منهم رجل

يقف على قدميه هذه المرة ، لقد كنا فى كل مرة نترك لهم باباً للهروب مفتوحاً ، أما الآن فلا ! جزاء هذه الفعلة الغادرة .

واندفع ينظم قواته بحذاء البحيرة ، فسد الطريق على عودة المظليين الاسرائيليين الذين انفلتوا إلى الماء فى ساعات الهجوم الأولى فى غفلة من القوات المصرية فعل هذا دون أن يدرى ، كان هدفه دفع بقايا الهجوم إلى مصيدة قتل ، وعندما إتصل بالعميد الطويجى بارك خطته وشكره على جهاده وفدائيته وحسن بلائه هو ورجاله ، وشجعه على ذلك ، بل ودفع ببعض كتائب الدبابات لملاقاته على طريق الطاسة ليحكم حصار بقايا الهجوم .

أما ميمنة العدو فقد هربت من قصف المدفعية وضربات حملة الصواريخ من منطقة الطاليا ، بعد أن صفيت تماماً ، ولم يبق منها سوى ثلاثين دبابة بعد أن كانوا تسعيناً ، حاولت أول الأمر التراجع ولكنها قوبلت بقوات صد رهيبة تسد عليها كل منفذ ، فلم تجد أمامها من مهرب سوى الاندفاع نحو الطريق الساحلى عليها تجد هناك لها مهرباً يسترها عن حملة الموت الذين يطاردونها ، داخل الصحراء والكثبان المتكلسة المنتشرة فى هذه المنطقة . وحاولوا بسرعة نحو الغرب هرباً ، إلا أن مدفعية الهاوتزر بعيدة المدى كانت لهم بالمرصاد .

وأسقط فى يد القائد الاسرائيلى ، واحتار أيتقدم أم يتأخر فى هذا الأتون الملتهب من حوله ، وأدرك أنه لا محالة هالك . ورأى وهو فى حالة اليأس الكامل أن يقوم بحركة أنتحارية ، يدفع أمامه بها طابوراً مدرعاً ، ليفلت بدبابته مسرعاً مستتراً بالكثبان ، وعهد إلى البريجادير اسحق آجام بقيادة الهجوم الانتحارى . بينما هو راقبهم عن بعد وراء أحد الكثبان ،

عندما بلغت أنباء إنهيار كتائب المقدمة الجنرال آمنون ، وتوالى قتل القادة على جميع المستويات ، أبرق إلى الجنرال دانى بسرعة استدعاء لوائى نجدة مدرعين ولواء مظلات مع غطاء جوى عاجل وإلا فإنه سيخلى مسئوليته وينسحب من المعركة ، فأجابه دانى ، بأنه فعل ذلك منذ ساعات الصباح الأولى ، ثم أبلغه بأن

أنباء الطالية غير مطمئنة ، وأن جميع الإتصالات مقطوعة بينه وبين قائدها فصمت آمنون وسأله فجأة :

ـــ هل لديك بعض الجرارات الثقيلة ؟

ـــ لم ؟ هل يعوق تقدمك شيء ؟

فضحك باكياً حتى إنخرط فى بكاء حاد . فتعجب دانى وسأله :

ـــ ما هذا ؟ أتضحك أم تبكى ؟

ـــ الاثنين ياسيدى ؟

ـــ لم ؟

ـــ لأننى لاأدرى مصيرى ، إن كل شيء يحترق من حولى .

ـــ عليك أن تكمل الهجوم بأى ثمن .

ـــ لم يعد لدى أى قوات . هل لديك قوات تكفى ؟

ـــ مامعى إلا طابورى القيادة . هل أرسل أحدهما ؟

ـــ أنهما معاً لا يكفيان لتغطية هربى !

فهتف فيه دانى فى إنزعاج :

ـــ أى هرب ياعزيزى آمى ! هل تنوى الهرب من المعركة ، إنها خيانة .

فأردف آمنون فى يأس :

ـــ أنه بالنسبة لى مطلب عزيز المنال .

ـــ إنك أذن فى ورطة انتظر سوف أدبر حلاً .

ورمى آمنون السماعة من يده ، وتهدج صوته وهو يقول :

ـــ أى إنتظار ياسيدى ! وهل تنتظرنا الحرب !

وانفجرت قنبلة بالقرب من مخبأة ، فأثارت عاصفة من رزاز الماء المختلط بالطين ، ودخل المخبأ تيار شديد ساخن ، لفح الوجوه ، ولسع الأنوف والأفواه بطعم الحديد المحترق ، فثار آمنون على من حوله ، وبدا عصبياً وهو يزجرهم :

ـــ هل وصلوا إلى هنا .

فطأطىء الحارس هامته وهو يصارحه بالحقيقة المرة :

ـــ إن المظليين يحاولون دفعهم بعيداً ، ولكنهم يتقاطرون فى موجات متعاقبة كالنمل الأبيض ، يأكل كل من يصادفه .

ـــ إنها إذن النهاية !

ـــ إن أمر هؤلاء المشاة المصريين لعجيب ، لأول مرة أسمع أن فرد المشاة يهاجم الدبابة بصدره غير عابىء ، أو يقف وجها لوجه ضد الطائرات دون وجل . أنها لجرأة مذهلة ، لم تكن فى الحسبان .

ـــ إنها نكتة أن تهرب الدبابة والطائرة من المشاة .. فيطاردها !

وفى تلك اللحظة تحولت المنطقة كلها إلى شعلة من النيران ، وخسرت قوات آمنون معظم قواتها الضاربة من الدبابات دون أن تتمكن من إيقاف موجات المشاة ، وكان أجام يتقهقر ، رغم محاولاته التى اتسمت بالجرأة للوصول إلى الماء ، ولكن فصائل حازم دينار ، كانت دائماً لهم بالمرصاد وافنت منهم خلقاً كثيراً ، فسأل آمنون النجدة السريعة ، فأجابه الأخير بدوره أنه طلبها بصورة عاجلة كما طلب منه سرعة الارتداد إلى التلال محتمياً بالأدغال حتى يقلل من خسائره ما استطاع ، فرد بأنه يقتل من المشاة ويحطم ما يقدر من الدبابات ولكن ما بقى من مدرعاته ـــ وهو قليل ـــ مشتت جداً ، الكل يجرى يريد الهرب ولا يأبه بأى أوامر .

واستمرت المعركة ست ساعات كاملة ، فتقهقر اجام إلى مقر آمنون الذى كان يدافع عنه آخر مجموعة من دباباته ، فالتحم بها آجام ، واستمرت المعركة نصف ساعة أو أكثر ، انهارت فيها دفاعات الوحدات الإسرائيلية وقتل معظم أفرادها ، وراح كل من آمنون وأجام وأركان حربهما وحرسهما يتسللون عبر الأحراش هرباً لينضموا إلى قيادة فرقهم حيث الجنرال دانى ، ولكن الكولونيل عاموس لقيهم فى منتصف الطريق على رأس لواء مدرع ، دفع به دانى لانقاذ آمنون ، ولم يعد لديه سوى طابور واحد إحتياطى وجدانه من الأوفق أن يتخذه ستاراً لهربه وهو يصيح : تباًلدانى . إنه الأسبق دائماً إلى الهرب !

عندما وصل الجنرال دانى إلى مقره السرى بعيداً عن أرض المعركة ، فوجىء بالاتصال الأخير الذى تم بينه وبين نائبه الميجور آمنون الذى حاصره داخل

المزرعة رجال المقدمة الترك ، وتخصص حملة الكلاشنكوف من رجال المقدم الباشا فى اصطياد قادتهم والمترجلين منهم ، شعر بغبطة عجيبة ، وكان مردها أنه لا زال حياً ، بل إنه نجا من الحصار بأعجوبة ، وضرب فخذه انبساطاً وهو يتندر قائلاً لعامى ضابط إتصال هيئة القيادة :

ـــ إننى نجحت من حيث أخفق آمنون ، إن هروبه هذه المرة مشكوك فيه .

فقال له عامى دون أن يرمش :

ـــ إنك لبارع ياسيدى فى الهرب . ولكن هل أعددت شيئاً تقوله للقيادة هذه المرة ؟. إنه لشيء محزن أن ننقل إليهم دائماً أنباء الاندحار والهرب .

ـــ لا تقلق من هذه الناحية ياعامى العزيز . إننا دائماً نحارب وهم دائماً يباهون بالنصر . دعنا مرة نمرغ أنوفهم فى التراب .

وفاجأهما جرس التليفون ، فأسرع إليه عامى وجسده يرتجف واستمع طويلاً ثم قال :

ـــ القيادة ياسيدى على التليفون ..

تناول دانى البوق وقد مدد ساقيه أمامه مستعداً لمنازلة محدثه الذى سأله مباشرة :

ـــ لماذا إنقطعت أخباركم ، هل وصلتم إلى المياه ؟ .

ـــ لقد حاولنا هذه المرة أيضا وبالخديعة ، ولكننا لم نستطع .. يجب إلغاء العملية كلها .. إن المصريين قضوا على كل المدرعات فى أرض المعركة هذه المرة وأغلب الظن أنهم سوف يذبحون المظليين من رجالنا قبل أن يعبروا إلى الضفة الغربية بمجرد أن يطلع الصباح .

ورد عليه قائد الجبهة الجنوبية الاسرائيلية :

ـــ إن هذه حملتك الرابعة الفاشلة ، وقد كلفتنا من السلاح والأفراد مالا يعد .

فرد عليه دانى بجفاء وقد أسخنته الجراح :

ـــ إن هذه مذابح لا معارك ، لم نتعودها ، ولم يشهدها تاريخى الحربى على طوله ، إنها مجازر نساق إليها قصراً .

ـــ هذا لسوء حظك وحظنا جميعاً . لم يكن شيئاً من هذا فى الحسبان .
ـــ لقد عملت ياسيدى فى الجيش ٢٦ عاماً ، خضت خلالها حروباً كثيرة ، لكن ما شاهدته فى هذه الحرب يجعلنى أقول أن المعارك السابقة ليست شيئاً آخر سوى بعض المناوشات المضحكة .

ـــ لقد حذرتهم من هذه الخسائر الفظيعة التى لحقت بنا قبل وقوعها ، وعرضت الانسحاب إلى ما وراء الممرات ، وأيدنى وزير الدفاع ، لكن رئيس الأركان ـــ سامحه الله ـــ هددنى بالرفت والمحاكمة العسكرية !
ـــ ليتهم سمعوا إلى نصيحتك ياسيدى . هذا إذا كنت قد قلتها !
ـــ أو لا تصدقنى ؟

ـــ كيف لا . إن كل شىء جائز الآن بعد وقوع الكارثة .
ـــ لا تنس أنك مسئول مسئولية مباشرة فى هذه الكارثة التى تعرضت لها إسرائيل .
ـــ ليس هذا هو وقت تصفية الحساب بعد .
ـــ لابد أن نتساند ياعزيزى دانى ، قبل أن يجعلوا منا كبش فداء .
ـــ سيدى إننى جريح ، وأعانى بشدة من جراحى إلى درجة الموت ، ولابد من أن تدبر سبيلا للاتصال بالمظليين المحشورين فى مصيدتهم القاتلة على خط الماء .
ـــ من أين ؟ لقد غلبت كل حيلى ياعزيزى معكم ، فأنا أدبر القوات وأضع الخطط دون فائدة ، ودائماً تطلبون المزيد للانقاذ !

ـــ فكر جيداً ياسيدى فيما قلته وإلا طفت جثثهم جميعا على مياه القناة مع نور الصباح هذا إذا أصبح هذا الصباح البعيد .
وانهى قائد الجبهة المكالمة غاضباً :
سوف نبحث الأمر .
ـــ عُلمْ سوف ترى .
ثم وضع سماعته وهو يلعنه ويسبه سباً مفزعاً . ولكنه كان سباً متبادلاً من طرفين ، لا يثق أى منهما فى الآخر ! .

* * *

نظر البريجادير الإسرائيلى ديفيد يهونتـان من حولـه ، فإذا بـه فى موقف لا يحسد عليه ، المياه من أمامه ، والقوات المصرية بخطوطها القتالية الكثيفة التى لا يمكن الارتـداد دون الوقـوع فى أسرهـا ، من خلفه ، وعليـه أن يواجـه أقل الاحتمالين خطراً ، ولم تدم حيرته طويلاً ، إذ تعرض لقصف عنيف من مدفعية الطالية التى لم تكف لحظة عن ملاحقة هذه الدبابات الشاردة ، ففكر فى الهروب مبتعداً عن هذا الجحيم بتخطى حاجز المياه إلى البر الغربى من القناة حيث تختلف الطبيعة الطبوغرافية بتضاريسها الملائمة أكثر لحركة الاختفاء خاصة وأن انتشار المزارع وحدائق الفاكهة والأحراش تُعد سواتر طبيعية للاحتماء والتمويه والتخفى حتى يتوقف إطلاق النار ، وعلى أسوأ الأمور تقديراً ، فـإنهم سيقعون فى الأسر ويضمنون بذلك حياتهم . ولاحت له فكرة الاتصال بالقيادة الاسرائيليـة ، فقد يكون لديها حل ينفذه ، وعلى الفور رفع سماعته وأجرى إتصالا بقيادته فى لهفة :

ـــ القيادة .. أريد تعزيزاً فنحن محاصرون .

ـــ علمنا من الجنرال دانى الموقف ، حدد مكانك وبقية القوات .

ـــ كيف نفذ هذا المخاتل بجلده ! عموماً فنحن على حافة القناة ، أما بقيـة القوات فلاحس ولا خبر ، والمؤكد أنها أبيدت عن آخرها !

ـــ شىء فظيع ، كلها أخبار سيئة .

ـــ أريد إنقاذاً سريعاً ، إنهم فى أعقابنا .

ـــ وماذا تقترح ؟

ـــ ليس أمامى غير الماء ، أندفع إليه إلى البر الغربى كى أبقى حياً .

ـــ هذا حل معقول ، وهل تستطيع حقا ذلك ؟

ـــ سأحاول . فالحياة تستحق المقامرة .

ـــ لو تم هذا ، فسيكون شيئاً عظيماً ، وخبراً سعيداً .

ـــ أنه اضطرار ومقامرة قد تنجح وقد تفشل .

ـــ إنه حل ينقذك من ورطتك ، ففى الغرب لن تجد قوات بنفس هذه الكثافة ، وقد لا تجد شيئاً مطلقاً ، وتقوم باحتلال المنطقة .

ـــ لقد ظننتك تخشى علينا الأسر والإبادة .

ـــ إننا لانلعب ياحبيبى . إنها الحرب وقد فقدنا كل شىء .

ـــ وهل تظن أننى سوف أقاتل ياسيدى الجنرال ! . إننى لا أملك من حطام لواءاتنا المدرعة سوى ثلاثين دبابة .

إننى أفكر فى الاحتماء فى حدائق الفاكهة والاحراش حتى تنتهى الحرب ، أو ربما تعبرون إلينا .

ـــ عبورنا إليك ! لاأستطيع أن أعدك ياعزيزى ديفيد ، حتى ولو تدخلت أمريكا بجيبوشها فى الحرب مباشرة .

ـــ إننا فى مأزق حقيقى ياسيدى الجنرال .

ـــ تماسك . ليس أمامنا غير ذلك مع الإلحاح فى طلب النجدة من العالم الحر .

ـــ أنا لا أفهم شيئاً مما تقول . أريد أن أعرف شيئاً واحداً .. ماذا أنت فاعل فى سبيل إنقاذنا ؟

ـــ حاول من جانبك ، وسنجد لك مخرجاً .

ـــ لابد من فرق ثلاثة كاملة بها على الأقل سبعة ألوية مدرعة ، وعليها أن تتبع نفس طريق كافيش فهو آمن وخال من القوات المصرية ، ولن يكون أمامه سوى لواء واحد مدرع ضمن الفرقة ١٦ اللعينة ، وهو لواء مجهد فى معارك مستمرة ليل نهار طوال عشرة أيام متوالية .

ـــ هذا شىء عظيم .. سنفكر فى الاستفادة من هذه المعلومات القيمة .

ـــ ومتى يكون ذلك ياسيدى ؟

ـــ عليك بالهروب أولاً الناحية الأخرى ، قبل أن يكتشف المصريون أمرك . ثم دع مابقى علينا .

ـــ أننى أقامر بحياتى ياسيدى ، أما أنتم فلا خطر عليكم بعيداً !

وفهم القائد هذا اللمز الخفى من مرءوسه والتعريض بالقيادة وعدم الثقة فأنذره :

ـــ يجب أن تلتزم الأدب فى مخاطبة رؤساءك مهما كان حجم الأخطار .

فاعتذر يهونتان بسرعة ، وقال فى نفسه :

ـــ يجب أن أصانع هذا الدب البولندى ، حتى يفى بوعده ويعمل على إنقاذى .

ثم أردف منصاعا لأوامره :

ـــ هل هناك مكان معين تحدده لنا القيادة ياسيدى فى الغرب ؟

ـــ يمكنك حماية رأس كوبرى يمكن إقامته على وجه السرعة .

ـــ وأين هو هذا الكوبرى ! إنه معطل على طريق طرطور .. ويلزمه ونش ضخم لا نتشاله وفرقة مدرعة كاملة لحمايته حتى خط المياه .

ـــ حسناً سوف نفعل . حدد مكانك بدقة .

ـــ عند عنق الزجاجة بين البحيرة والقناة .

ـــ حسناً إنه موضع جيد للعبور .

ـــ هذا إذا قدر لنا هذا العبور .

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ فشل الافلات من الموت فوق كل احتمال .

ـــ ولو هذا عظيم جداً . جرب ونحن فى أنتظار النتيجة .

وأنقطع الاتصال فجأة .

لقد عثرت ثرية ! استطلاع مصرية ـــ بطريق الصدفة المحضة ـــ على بعض الدبابات السنتريون الضالة لهذه القوة الاسرائيلية المنحوسة الطالـع ، تشتت خوفاً من الإصابة بفعل مدفعية الهاورتزر بعيدة المدى على الضفة الغربية .

وهنا أسرع ديڤيد وقلبه يرف بشدة حتى كاد أن ينخلع من صدره ، وهو يدفع مساعده أمامه ليختبأ ، وقد أنهمر عليهم الرصاص كالمطر حتى أنه حشر نفسه بين صخرتين ، ولكن الرصاص كان يدخل إليه من الشقوق كالرزاز ، فراح يزحف على بطنه حتى عثر على فوهة مغارة صغيرة ، فاندفع إليها وانحشر فى مدخلها حتى خلصه مساعـدة ، وجلسا القـرفصاء ينفضـان عن وجوههمـا الرمـال وسناج الدخان :

ـــ أوه ياعزيزى بريميا .. إنها ليست حرب ، بل الجحيم التى حدثتنا عنها التوراة .

ـــ أما قرأت عنهم التلمود .. إنهم الفراعنة ياسيدى !

ـــ حقيقى يابريميا .. عندك حق ، أحاجى اخترعها القدماء . وندفـع نحن الثمن .

آه لو نجد مخرجاً من هذا المأزق القاتل .

ـــ إنهم لا يكفون عن خنقنا فهم يريدون أرضهم ياسيدى ، ليت شعبنا يتفهم هذه الحقيقة فيستريح ويريحنا .

ـــ بل أرضنا منذ موسى . إنها أرض التيه يابريميا .

ـــ ياسيدى ... هذه ادعاءات لا تقدم ولا تؤخر ، وانظر لحالنا .

ـــ لا حل لنا . إلا ..

ـــ إلا ماذا ياسيدى ؟

ـــ تندفع إلى الماء فوراً . والليل يداربنا .

ـــ هذه عملية تكتنفها المخاطر الفتاكة .

ـــ الماء أو الانتحار ! . ليس لنا خيار

ـــ إننا هنا نستطيع أن نختبأ ولو ضحينا بالدبابات . أما على الماء فستكون الدبابات كالبجع الثقيل الحركة . جاهزة للصيد .

وتذكر إتصاله بالقيادة ، وأمنيتهم العزيزة فى انشاء رأس كوبـرى واحد . واحد فقط قبل وقف إطلاق النار ، وعبور جندى واحد إلى الغرب يمكن الكلام عنه ، فلمعت عينيه ببريق أخاذ وقال منتشياً :

ـــ أريد أن أنفذ إلى أفريقيا ولو هارباً ، إنه فخر وأى فخر ، أن أكون أول اسرائيلى يعبر قناة السويس إلى الغرب . ألا تفهم ياهذا ؟

ـــ أعلم ياسيدى ستدق أعناقنا جميعاً قبل أن نضع أقدامنا فوق الماء .

وأحس بنشوة الفكرة ، الترقية التى تنتظره إن تمت هذه المحاولة مهما كانت النتيجة ، وانتفخ وهو يدوس على ساقه الجريحة التى تماثلت للشفاء . مستصغراً بريميا مساعده أمامه وقال له فى صلف وعجرفة :

ـــ إنك إنسان حقير لا طموح لك . ماهى الحرب ؟ دعنى أيها المساعد أعلمك شيئاً إنها نوع من المقامرة ، والطموح هو وحده المجازف .

ـــ هذا لو كنت وحدك ، أما هذه القوة فما ذنبها !

ـــ نفذ الأوامر .

ـــ على جثتى . فأنا فى كلا الحالتين ميت .

ـــ هذا تمرد . فهل تتحمل نتائجه ؟

ـــ بل تدفعنا جميعاً إلى بحر لا نحسن السباحة فيه ؟

ـــ وهل تحسن السباحة فى ماخور أختك ناهيا ؟!.

ـــ دعنا من التعرض بالأهل ياسيدى ، فكلنا على هذه الشاكلة .

فانتزع كاهان مسدسه من غمده فوق ردفه ، وشهره فى وجه بريميا السمين وراح يدفعه فى ظهره ، وقد أصدر من أنفه شخاراً حاداً معيباً وهو يؤنبه :

ـــ أو ظننت نفسك فى ماخـور أختك فى الجليـل ياابن ال ... تـداعب أحد القوادين !! إصح لنفسك والا قتلتك . نفذ فوراً ما آمرك به .

فانصاع بريميا أمامه ، وراحا يقفزان بين التلال والكثبان ، والقواذف ترف من حولهما كالمطر ، واستطاع بريميا أن يجمع قطيع من الدبابات الهاربة قسراً ، وهو يلعن يهونتان وأجداد يهوناتان واليوم الذى جمعه به فى مكان ، وقبل أن يندفع نحو الماء امتنع كافة أطقم الدبابات عن التنفيذ ، وأبدوا تمرداً شديداً ، بل وسبوا بريميا وهم يختفون بين الكثبان وفى المنخفضات وبين حشائش الدغل متوقفين عن أى إطلاق للنار ، حتى تفى قيادتهم بوعدها وتبعث بقوات جديدة تنقذهم ، كما قذفوا ديقيد بالحجارة عندما تصدى لهم ، فلجأ إلى الحيلة وأبلغهم بأن هذه هى أمنية القيادة التى ألقوها على عواتقهم ، فصاح فيه أحدهم :

ـــ إذن فليأتوا ليحاربوا معك ، وهانحن نرى ماذا أنتم فاعلون .. !

ـــ إنى أنذركم جميعاً . إنكم تجبنون أمام العدو وتمتنعون عن تنفيذ الأوامر فى زمن المعركة . .

ـــ تستطيع أن تقول ما شئت إن بقيت حياً ! أين قائد الهجوم الجنرال دانى ، إنه عاد ليجلب قوات جديدة يودعها المقابر المفتوحة لنا فى الصحـراء أين قوات الهجوم ؟ لم يبق غيرنا ! وهاأنت تريد أن تلقى بنا فى الماء ! أى حمق ياترى أفظع من هذه الحماقة ، إذهب إلى الجحيم وحدك ودعنا وشأننا .

وصاح آخر وهو يقذف دبـابة القيـادة بالـدبش ، وهو عـلى ما يبـدو من المرتزقة :

ــ أو تظن نفسك روميل ، لقد غررتم بنا ، وتطوعنا على أنها نزهة نعود بعدها إلى تل أبيب ، ولم نعلم أنها رحلة الموت الزؤام كفوا عن غروركم .

فصاح فيه يوناتان بصوت كالفحيح !

ــ لقد اشتريت روحك نظير ما أخذت من مال ، وعليك بالطاعة

ــ لو كنت تفهم ألف باء العسكرية ؛ أو لو كنت مكانك ، لعدت أدراجى مؤثراً السلامة ، ابحثوا لأنفسكم عن طريق للهرب قبل أن تُزهق أرواحكم .

ــ لست نبى بنى إسرائيل الجديد ، حتى تفتح لنا .

ــ وأنت لست القائد الذى يدفع جندى إلى الانتحار بأوامره .

ــ إنك متمرد وأجنبى ، وقد جئت لتخون .

ــ أجنبى ! كل من معنا هذا الأجنبى ، أنت تترى نكتة لطيفة .

ــ كيف تكلمنى هكذا أيها الوقح .

ــ بل إنك لمغرور أحمق .

وبسرعة أخرج يهوناتان مسدسه وأفرغ كل ما فيه فى بطن الجندى المرتزق فساد الوجوم الحشد من حوله . وتلاحقت أنفاس قائد المظليين وهو يصيح فيهم

ــ أعلم أنكم جميعاً ، هذا الخائن المرتزق ، وأعلم أن روح التمرد على قيادتى تراود نفوسكم الشريرة ، ولتعلموا أن هذا أمر ستزهق أرواحكم ! البخسة فيه ، هلموا إلى دباباتكم .

* * *

الفصل الثامن

الهروب إلى البر الغربى :

عند المرتفع التل الذى يكمن تحته مقر القيادة المتقدمة للواء ٢١ المدرع التابع للفرقة ١٦ توقف الرجلان ، وكانت أصوات الاشارة تتداخل وتتعالى حتى تصك الآذان ، ولم يتنبه أحد للقائد العظيم ولا لقائد الجيش لشدة إنشغالهما بتوصيل الخطوط وابلاغ الرجال القادة بالتحركات الأمامية ، ثم أصدار تعليمات القادة لهم ، وتوجيههم تحذيرهم حيث اختلطت القوات بالاعداء لأول مرة ، ولم يكن كل واحد منهم متأكد من الهدف الذى يضربه ، حتى ملابس المظليين الإسرائيايين كانت مصرية ، الأعلام .. السلاح .. كل شيء تقريباً ، والأدهى أنهم استخدموا المدقات والطرق التى كان يتحرك عليها المصريون .

وكانت مدفعية اللواء قد أصابتها الكثير من الخسائر فاستعانوا ببطارية الفرقة بعيدة المدى التى كانت تزأر عن بعد ، وأطال العميد الطوبجى النظر أمام المرتفع إلى طبقات الغبش التى تحجب مدافع التلال المحيطة . هذا الغبش المضطرب المملوء بومضات الطلقات من المواقع التبادلية ، وكانت الدبابات تتحرك نحو البحيرة مثل الأشباح ، كانت صلصلة جنازيرها وهديرها المزعج ، وطنين المحركات فى العربات المصفحة واللوارى وعربات نصف الجنزير ، وسحب الغبار الكثيفة والرمال المعلقة فى الجو المملوءة بصفير حاد للصورايخ ودانات المدفعية ، تملأه حماساً ورغبة فى الاندفاع نحو المياه للإطلاق على فلول العدو ، ثم تابع بعينه الخبيرة مدافع الهاون والهاوتزر مقطورة بسرعة لإعادة توزيعها لتكون أكثر قرباً

وأقوى تأثيراً من العدو وتغطية منطقة الشط والبحيرات بنيران مركزة ، كان هذا كله يشق طريقه وسط حطام السيارات الملتهبة والدبابات المحترقة ، وانحرفت ميامن الطوابير جنوباً فى اتجاه مياه القناة ، وكانت بعض دباباتنا المحفورة فى الأرض تحترق ويتصاعد منها الدخان ، وعلى بعد أمتار تقبع مثيلاتها الاسرائيلية محترقة أيضا ، أما الطرف الأيسر من تلك الطوابير فظل مستمراً فى تقدمه نحو البحيرة . كانت حركة سريعة لا تهدأ ، وشعر العميد الطوبجى بأحاسيس مضطرمة من نفاذ الصبر ، لقد أصيب ثلاث قواعد صاروخية وأنفجرت صناديق الزخيرة ، كان الموقف بإختصار يبدو سيئاً وغير واضح ، رغم أن القوات جميعها سليمة ـــ فيما بعض الخسائر التى تم السيطرة عليها ـــ إلا أن ما حدث كان ليزعزع ثقته فى النصر ، وود لو أستشهد فى سبيل القضاء على العدو والتخفيف عن جنوده صحيح أن ظروف النصر الذى حققه المقدم فهمى الترك قد أثلج صدورهم وخدر جنود الاستكشاف مما أعطى الفرصة للإسرائيليين من المرور من الخطوط المصرية على أنها هى قوات المقدم الترك ، وصحيح أنه تم القضاء على تلك القوات عن بكرة أبيها ، ولكنه خلال لحظات المباغتة أستطاع أن يدفع بالمظليين إلى الشط الآخر ، وكان هذا وقعه حسناً خصوصاً وأن المقدم الترك قد بادر وصحب الأسيرة الدانمركية معه وفى إثره رجال الضفادع البشرية بقيادة طائع النورى وراء الدبابات الاسرائيلية الهاربة من النار والأسر إلى الغرب ، ووقف متفكراً ، لكنه كان على ثقة مم أن جنوده قادرين على تصفية هذه المقارز الاسرائيلية ، كما نجحوا فى تصفية مدرعات دانى ، ولكن ماذا تقول فى برغوث تافه تسلل إلى ملابسك على حين غفلة ، وأخذ طريقه بين جيوبها الداخلية ، إن عليه الآن أن يخلع ملابسه جميعا ويحرقها ، كى يتخلص من هذه الحشرة القذرة . وبزغت فى رأسه هذه الفكرة ، وبعد أن راجعها فى رأسه ، بدأت تتضح تفاصيلها شيئاً فشيئاً حتى رسخت تماماً ، وعندما التفت حوله بحثاً عن اللواء بدر لعرض الخطة التى توصل إليها لم يجده إلى جواره ، وإنما سمع صوته بالداخل ، لقد طلبه أشارجى غرفة القيادة إلى رسالة عاجلة على التليفون ، وبسرعة كان إلى جواره حيث جاءه صوت المقدم الترك واضحاً :

ـــ نعم يابحر ... ما الأخبار ؟

ـــ المنطقة نظيفة تماما بطول شاطىء القناة والبحيرة المرة الكبرى ، لكن هناك شيء غريب ظهر على الماء كنقط متحركة وأحيانا ساكنة عند النقطة المقابلة لسرابيوم ومطار أبو سلطان .

فهتف اللواء بدر فيما يشبه الانزعاج :

ـــ حدد بالضبط . هل هو هدف للعدو ؟

ـــ يبدو هذا .

ـــ لا . بل تحقق جيداً ، عليكم بطلقات الإستكشاف . عاجل .

ـــ سنفعل فوراً .

وبدأت صواريخ الإنارة تنفجر فوق المنطقة ، واللواء بدر صامت وإلى جواره العميد الطوبجى فى الانتظار ، أما كتائب فهمى الترك الذى كان مع قائده الأعلى على الخط ، فقد جابت المنطقة طولاً وعرضاً بحثاً عن المظليين الاسرائيلين . صحيح أنها عثرت على بعض أفرادهم جرحى فأسرتهم واستجوبتهم ، ولكنهم جميعاً كانوا ضائعين ويائسين ، وليس لديهم أدنى فكرة عن الطريق الذى سلكه بقية من كان معهم ، وإن حددوا بالضبط المسلك الذى طرقوه إلى القناة وسط المنطقة السبخية والمستنقعات الملحية ، ولكن مدفعية البر الغربى فاجأتهم بشدة وحصدتهم حصداً فتفرقوا فى المنطقة لا تدرى كل فصيلة ما أصاب الأخرى ، والغريب أن كل واحدة من هذه الفصائل كان يعتقد جازماً بأن الفصائل الأخرى تعرضت للدمار والفناء الكامل ، وأنهم فى غفلة أو فلتة من الزمان وجدوا أنفسهم على حافة المياه ، وكان الطريق خالياً على غير العادة فأخذوا طريقهم حتى وصلوا للقناة . إلا أن المدفعية حاصرتهم من الغرب ، وأعمال المشاة والمدرعات التى طوقت قوات الجنرال دانى من الشرق والشمال جعلتهم شبه محاصرين ، ولم يدر كل واحد منهم كيف يكون المصير وقد استعر فيهم القتل وكثرت الإصابات فتفرقوا وكل منهم يبغى الإفلات بحياته ، وعندما وجه لبعضهم سؤالاً محدداً حول إمكان إندفاع بعضهم إلى المياه هرباً من الحصار ، لم يؤكد أو ينفى ذلك ، وظل هذا إحتمالاً مؤكداً إلى أن رجحته بعض الأسرى الآخرين فى أقوالهم ، خاصة أقوال السويدية سيلقيا التى رأت بعضهم ، كما أكدت اندفاع بعض دبابات الميجور حوفى كاهان بقوات من المظليين

على رأسهم ديڤيد يوناثان ومساعده البريجادير بريميا يوفيل إلى المياه هرباً من الأسر ، وبتشجيع من القيادة الاسرائيلية التى حرضتهم إلى هذا السبيل !

وكان لابد من أعمال سريعة واحتياطية لتأمين المناطق المحتمل فيها الاختراق الاسرائيلى ، وعلى الفور صدرت الأوامرلا إلى طائع النورى ببث الألغام البحرية فى مناطق محددة فى القطاع الممتد من الدفرسوار حتى سرابيوم ، ثم نطاقات أخرى تم إختيارها بدقة ، وبدأت القوات الخاصة عملها السريع لاقتفاء أثر العدو أينما كان وتدميره .

واضطر اللواء بدر إلى عقد اجتماع عاجل لبحث خطة سريعة لمواجهة الموقف ابل أن يستفحل ، حضره جميع القادة ، خاصة وقد جاءت أنباء عاجلة فى تقرير مفصل من العقيد الطنانى قدمه له المقدم ابراهيم أدهم فى تلك اللحظة ـــ عن تعرض الجنب الأيسر من ناحية الشمال للفرقة ١٦ والفرقة ٢١ ، لهجوم كثيف كما كشف التقرير عن معلومات خطيرة جمعها خبراء المعلومات عن حجم مفصل من العقيد الطنانى قدمه له المقدم ابراهيم أدهم فى تلك اللحظة ـــ عن تعرض الجنب الأيسر من ناحية لشمال للفرقة ١٦ والفرقة ٢١ ، لهجوم كثيف جدا كما كشف التقرير عن معلومات خطيرة جمعها خبراء المعلومات عن حجم الهجوم وأسلحته وقادته الجدد لقتالنا وعلى رأسها الجنرال الاسرائيلى ديفيد هاكوهين الذى استدعته القيادة الاسرائيلية من أمريكا على عجل بعد فشل الجنرال دانى المتكرر على الجبهة الجنوبية حيث كان يشرف هناك على شحن الأسلحة الأمريكية إلى اسرائيل ، ويبدو أن هذا الرجل الأمريكى الاسرائيلى الذى قاد بعض فصائل الجيش الأمريكى فى حرب فيتنام ؛ لم يأت وحده ، بل جاء معه مساعدوه الأمريكيون ، ولقد كان على رأس فرقة مدرعة كاملة بها خمس الوية مدرعة غير لوائى دعم ميكانيكية ، وكتيبة مدفعية ـــ على غيز العادة ـــ مزودة بالمدفع الاسرائيلى (١٥٥ مم) الذى أطلق عليه الترك اسم (أبو جاموس) لضخامته وقوة نيرانه ومدافع (١٠٧ ، ١٠٩مم) كما استخدمت قنابل كرة البيسبول التى تنتشر ـــ عند انفجارها ـــ فى مساحات واسعة لتملأها بالشظايا لتدمير المشاة ، فضلا عن صواريخ (روك آى) المضادة للدبابات التى زودت بها دبابات حديثة

جداً من نوع باتون (م ــ ٦٠) وسوبر شيرمان (ت . آى ٦٧) ، (ت ٥٤) ، (ت ٥٦ المعدلة) وكذلك صواريخ المافرك التى توجه تليفزيونياً ، ثم عزز العدو الهجوم البرى على شمال الفرقة ١٦ بهجوم جوى ضخم على يمينها ، اشتركت فى هذا الهجوم أكثر من ستين طائرة بعد عدة طلعات استكشافية للطائرات الامريكية بدون طيار (تليد ابن ريان ١٢٤ ــ ا) كما تم رصد مرور القمر الصناعى الأمريكى (بيج برد) فوق المنطقة عن طريق إشعار من مرصد القطامية ، وكانت هذه الطائرات تسقط قنابلها ألفى رطل من نوع (روك ويل) التى توجه رادارياً بالآشعة فوق الحمراء مستعينة بأجهزة (تيسيو) التى تحدد لها أهدافها القابلة للتدمير بأعلى درجة من الدقة ، خاصة الأهداف المتحركة منها خصوصا الدبابات والأفراد ، وتمييزها من إرتفاعات عالية جداً ، وعلى مسافات بعيدة أيضا ، كما استخدمت صواريخ (تاو) و (لو) المضادة للدبابات ، وقد زودت بأجهزة (أ . ك . آى ــ ٢٩) لتضليل الصواريخ .

كانت الغارة حامية الوطيس فى الجنوب ، وأرسل القادة المحليون بتقاريرهم الأولية التى تجمعت لدى قائد الجيش الثانى اللواء بدر قبل أن يدخل الاجتماع . وفى البداية ظل صامتاً إلا من عبارة واحدة نطقها ليلخص بها الموقف كله :

ــ اعتقد أنهم يريدون شل أعمال وحركة الفرقة ١٦ وتثبيتها على الاجناب. وساد صمت ثقيل

وتكلم قائد الفرقة العميد أركان حرب الطوبجى . قال :

ــ ليس الموقف خطير إلى هذا الحد . والفرقة بإمكانها تصفية الهجوم بقدر من الصبر والفدائية ، ولقد تعرضنا لهجمات أكثر شراسة من هذه وتم تصفيتها .

ثم نظر إلى اللواء بدر الذى بدا عليه الاهتمام الشديد :

ــ أعتقد أنهم يريدون لفت الأنظار المصرية عن مظليوهم فى الغرب .

ــ العميد العطار أركان حرب الفرقة : تقصد سيادتك تغطية أعمال التسلل عند سرابيوم / أبو سلطان .

ــ اللواء بدر : هذا ما أريده بالضبط .

— عقيد جلال همام (أركان حرب اللواء ١٦) : يجب أن يتفرغ اللواء ٢١ لأعماله جنوب الجلاء حتى البحيرات .

— العقيد مصطفى الشهابى (قائد المدرعات) : أعتقد أن هذا هـو هدف العدو الرئيسى . ويجب أن يتجه إليه عملنا من هذه الساعة .

— مقدم حسن عمار (قائد المدفعية) : إن النتائج التى حققتها المدفعية على جانبى الفرقة أكثر من مذهلة . على الأقل منعت قوات هاكوهين من الاقتراب من الدفاعات المصرية فى الشمال ، كما قامت بدور بارز حقيقى ومؤثر فى تدمير مدرعات الجنرال دانى فى الجنوب ، كما أفادت الأسرى بإصابات مـروعة بـين المظليين المتسللين الذين يجرى تصفيتهم الآن . وأعتقد أن جثثهم قد غطت مياه القناة وأكسبته اللون الأحمر .

وعلى الفور بدأ كل قائد يقدم أعماله وخططه المرتقبة وتوقعاته .

وعلق العقيد العطار قائلاً :

— إن الجيش الإسرائيلى بـآلة الحـرب الأمريكيـة كاملـة أمامنـا ، ويمده بالمعلومات أولاً بأول بكل التحركات على الجبهة ، وهذا هو الخطر الحقيقى بحق .

ورد العميد فؤاد نصار قائد لواء الميسرة :

— إننا أيضا نواجه آخر أجيال الصواريخ الأمريكية ، ودروع الـدبابـات أصبحت أكثر صلابة وسمكاً عما قبل ، وهذا يتطلب تطوير الصواريخ المضادة للدبابات عاجلاً وفوجىء الجميع بأشارجى القيادة الهادى يدخل بالتليفون ، وناوله للعميد الطويجى :

— بحر مع سيادتكم .

وتركه وانصرف . وتكلم العميد وأنصت الحاضرون .

— تقرير عاجل عن الدفرسوار !

وكان المتحدث على الجنب الآخر هو المقدم الترك . قال :

— سيدى لقد تحقق وجود بعض الدبابات هناك بين الاحراش ومختبأة بين التلال ، كما عثر على بعض المظليين .

ـــ كم يكون حجم هذه القوات .

ـــ الدبابات لا تزيد عن عدد أصابع اليدين ، أما المظليين فهم عدة فصائل تقديرها المبدئى لايزيد عن الثلاثين رجلاً منتشرين من أصل ألفى مظلى حاولوا العبور ، ولقد عثرنا على جثثهم متراكمة على الشاطئين الشرقى والغربى وفـوق المياه .

ـــ عظيم واصلوا عمليات الاستكشاف فى كل جزء فى المنطقة مع الاشتباك مع هذه القوات لتصفيتها .

أعتقد أن المشاة يحاصرونهم فى مطار أبو سلطان والدفرسوار وسرابيوم

ـــ هل انتشروا إلى هذا الحد .

ـــ هذا مانعتقده فقد ساحوا بمنطقة الجناين خوفاً من المطاردة والقتل .

ـــ أرجو الانتهاء بسرعة من تصفيتهم نفذ ، ولسوف أدفع بكتيبتى تطهير فوراً للمعاونة وسرعة الانجاز .

ووضع السماعة وقد تنفس الصعداء ، ثم حاول أن ينقل تقريراً مفصلاً للواء بدر بما حدث ، لكن إشارة من الأخير أسكتته حيث قال :

ـــ لقد سمعت كل شىء على البوق الآخر .

كما جاءت تقارير الشمال ، بتفوق اللواء ، المدرع المصرى على الجنب الأيمن للهجوم وامتلاكه لناصيته حيث دمر له أربعين دبابة فى أول صـدام وأن أعمال المشاة تزعج هاكوهين إلى حد شديد ، وأن حدة هجومه قد خفت حدتها ، كما أن وحداته الأمامية المدرعة قد أصابتها المدفعية إصابات فادحة ، لدرجـة أرغمت هـاكوهـين إلى سحبها ودفـع بغيرهـا من المؤخـرة لإعـادة التنظيم والتسليـح والتعويض .

أما الهجمات الجوية ، فقد خفت عما قبل ، وجاءت التقارير بوقوع خسائر شديدة فى طائراتها بلغت حوالى التسع طائرات ، كما أفادت هذه التقارير ببعض الخسائر القليلة فى قواعد المدفعية والدبابات .

وهكذا أخذت الإشاعات التى تقول بتحويل منطقة عنق الزجاجة بين القناة والبحيرة المرة الكبرى إلى ساحة للصراعات الخطرة بين عدو فقد عقله فى محاولات .. يائسة لا سترداد قواته الهاربة فى الغرب أو الحفاظ عليها من الحصار المضروب حولها بين القيادة المصرية التى فرضت عليهم القتل أخذت هذه الاشاعات تقوم على أساس من الواقع . وأقر القائد العام للجيش الثانى اللواء بدر هذا التحويل منذ بضع ساعات ، وعقب ذلك أصدرت قيادة الجبهة أثناء هذا الاجتماع المشهود جميع الوثائق بالزحف لكى تطبق المشاة والمظليون على الدبابات والأفراد المتسللين ، ورسمت على الخرائط خطوط الإقتحام ، ومراكز التجمع ، وحارات ضرب المدفعية ، والأسلحة الجديدة التى يتسلح بها فرد المشاة ... الخ .

ثم بدأ التليفون واللاسلكى ينقلان أعمدة طويلة من الأرقام والرسائل المنقولة بالشفرة والأوامر والاستفسارات . وتحرك ضباط الاتصال من مقر القيادة بالجبهة إلى مواقع القتال بالسيارات المصفحة والطائرات العمودية ، وأحيانا سيراً على الأقدام إذا تطلب الأمر ذلك فى المواقع القريبة .

وكانت الأوامر تتضاءل فى الطريق من القائد الأعلى إلى الكتيبة إلى الفصيلة حتى تستحيل إلى مجرد كلمة واحدة : إقتحموا ...

وعندما وصلت هذه الأوامر إلى فهمى الترك كان هو فى إجتماع مع مساعديه هارون ندا والملازم شافعى ، أما طائع النورى فقد كان يجلس فى هدوء فوق كومة من الشباك بجوار كوخ للصيد على حافة القناة ، وكان صاحب الكوخ لم يهجره حتى بعد نشوب الحرب فى المنطقة ، كان لا يملك من حطام الدنيا ما يخاف عليه ، فهو صياد عجوز تعدى السبعين منذ سنين لا يعرفها ، وهو لايرجو من الدنيا المزيد ، فلم يجد ما يغريه على الهجرة ، وإلى جانب حرفة الصيد وشباكه التى هجرها منذ بعيد ، لا يملك شروى نقير ، غير ماعز وحيدة ، تحلب له ما يعينه ـــ فى اليوم كله ـــ على سد الرمق ، ولا يتزود بأى شىء آخر غير ألبان هذه الماعز ، أما الماعز نفسه فلم تكن لها من أنيس غير العجوز نفسه فبعد أن ترعى الكلأ الشائك

عند حافة القناة ، تعود إلى مجلس الشيخ فتتمسح به فيحضنها بزراعه ويأخذ برأسها فى حجره ، ويبقى الحال هكذا غدا ساعات الطعام وقضاء الحاجة !

وكان النورى يداعب الشيخ ويقول له فى إهمال وهو يدفع بساقيه إلى الماء فى تكاسل واضح ، لدرجة أن من يراه لا يظن أنه عائد لتوه من معركة شرسة مع العدو ، وأنه أطاح ببعض الأطواف التى ألقى العدو بها إلى الماء للعبور :

ــ ماذا لو أصبت معزتك ياشيخ عودة

ــ هذا فأل سىء . بشر ولا تنفر .

وعندما قدم له شايا ساخنا داعبه النورى :

ــ عجيبة من أين لك بالشاى ! هل تحلب المعزة شاياً ؟

ــ إنه متعتى الوحيدة فى هذه الدنيا .

ــ وكيف حصلت عليه ؟

ــ من بيع ولدة عنيزة .

ــ اللهم بارك فى عنيزة ولبن عنيزة وشاى صاحب عنيزة .

ــ اللهم بارك فيك ياولدى .

ــ أدعو لنا ياشيخ عودة .

ــ الدائرة عليهم انشاء الله .

ــ ومن يأتيك بحاجتك ياشيخ عودة ؟

قالها النورى ، وهو يرشف الشاى بنهم ، فرد الشيخ :

ــ لى حفيدة من إبنة لى متزوجة بالاسماعيلية تجيئنى من الحين للحين .

ــ متزوجة ؟

ويبدو أن النورى قد سال لعابه لمجرد أن أشتم رائحة النساء فقال له الشيخ :

ــ إنها لازالت صبية صغيرة .

وابتسم الشيخ وكأنما تذكر شيئاً سار ، فواصل حديثه الممتع :

ــ إنها تحبنى كثيراً ، ورغم أخطار الطريق فإنها لا تكف عن زيارتى .

ثم غاب الشيخ قليلا داخل الخص (الكوخ) وعاد سريعاً وهو يمسح صورة صغيرة فى طول الأصبع ، متسخة وقديمة ، وناولها للنورى فى سعادة بالغة على أنها

الحفيدة ، ولشدة الإحباط الذى أصاب النورى ، فلم تكن صورة صبيبة بالغة كما تخيلها بل طفلة فى السادسة ، فصاح فى الشيخ مؤنباً فى لوم :

ــ إنها طفلة ياشيخ عوده !

ورماها عل طول يده ، فزحف الشيخ حتى التقطها مبتسمـاً وهو يمسـحهـا بطرف كمه ليزيل عنها ما علق بها من تراب وقال :

ــ كانت يابنى .. كانت طفلة من حوالى عشر سنوات . ولكنها الآن كبرت وهى الآن فى المدرسة التجهيـزية بـالاسماعيليـة ، وقد خطبهـا من والدهـا كثير من العرسان ، ولكنها كانت تشترط موافقة جدها .. أنا يعنى .

واحتضن الصورة باعتزاز وواصل حديثه :

ــ كثيراً ما تزورنى مع بعض صديقاتها ويجرين ويستحممن على الشط فى سعادة مع عنيزة ! . وفى آخر النهار يعدن .

مصمص النورى ريقه وقد تذكـر شهد حبيبـة القلب ووالدهـا عم يوسف الداؤودى التى خطبها لنفسه فأرجأ الخطبة حتى نهاية الحرب واعلان النصر على الصهاينة ، فسال لعابه ، وتذكر أنه فى خضم المعركة قد نسى كل عـاطفة نحـو الأنثى ، فسأله محاولاً اخفاء مراميه الوضيعة :

ــ وهل مضى عليها وقت طويل بعد آخر زيارة ؟

شهر ياولدى . ولا أدرى ما المانع ، إنها لم تتعود هذه الغيبة عنى

ــ ربما الحرب ياشيخ عودة .

فغضـب الشيخ نافياً عنها أن يحول دون رؤياه حائل حتى ولو كان الحرب :

ــ لا .. كانت صغيرة فى هـوجة اليهـود الأخيرة ولكنهـا لم تكن تكف عن الحضور

ــ تقصد حرب يونيو ؟

ــ لا أعرف اسمها .

ــ اسمها النكسة ياشيخ عودة .

ولم يبد الشيخ أى إهتمام وإنما لاذ بالصمت ، وتدثر بالسكون ، ولم يبد أى استجابة للنورى عندما ناوله كوب الشاى بعد أن فرغ من إحتسائـه ، فلم يجد

الأخير مفراً سوى أن يعيدها إلى الداخل ، وفتش فى أرجاء الكوخ عن شىء يسترعى النظر فلم يجد سوى حاشية من العشب فوق سرير من أغصان الشجر ، ثم قلة ماء مدلاة عصب خشبى بالسقف وسلة من الخوص المجدول مدلاة أيضا إلى جوارها ، وهدمة نظيفة للعجوز أشبه بالقميص الداخلى معلقة على الحائط ، وفيما عدا ذلك لا شىء البتة سوى غلاية سوداء من الصفيح فوق كومة هامدة من الجمر !

كان برد الليل شديد الوطأة ، وكانت الأشجار عارية لا أثر للحياة فيها اللهم إلا بعض البراعم الصغيرة ترتجف بشدة وانعكس على صفحة الماء الملساء أشعة النجوم البعيدة ، وفى الجو رائحة البارود تخبو فى مكان غير بعيد .

تحرك شخص بجوار النورى ، فرفع رأسه فإذا به فهمى الترك الذى بادره :

ـ كيف وجدت صيدك هذه الليلة ؟

ـ لم أجد غير غاندى هذا بعنيزته .

وأشار ناحية الشيخ عودة . فكاد فهمى الترك يبتسم لولا دقة الموقف الذى يعانيه :

ـ أتخلط الجد بالهذر دائماً ، ألا تخلص لوجه الله يانورى أبداً !

ـ وهلا تكف أنت عن مطاردتى أبداً .

ـ إنى أشم ريحة الحريم .. قل أين يابن النورى ؟

ـ نقبك على شونة .. ولا الهوا .

ـ طيب هلم إلى الوحدة فيه تحركات .

ـ أوامر جديدة ؟

ـ طازجة .

ـ ألا يكفون لحظة عن الأوامر .

ـ قدرك يابن النورى

فهتف فى غضب محتجاً :

ـ اسمى طائع .

ـ المقطع الأخير انسب .

فقفز من مكانه غاضباً ومودعاً للشيخ عودة وعنزته قائلاً :
ـــ سلام ياعم غاندى .. أقصد عودة .
وابتسم ثم اختفى بعيداً مع فهمى الترك .

كانت الإشتباكات فى البر الشرقى قد وصلت إلى درجة الإلتحام التام ، وتداخلت خطوط الطرفين ، واستحالت المنطقة كلها إلى جحيم مشتعل ، وانصهرت مواسير المدافع والدبابات من كثرة ما بصقته من مقذوفات ودانات نارية ، ومن فوقها كانت الطائرات تحلق من الطرفين فى معارك متواصلة مزيرة ، تتقلب وراء بعضها على إرتفاعات واطئة وفيما وراء السحب الداكنة التى كانت تظلل سماء المعركة ، وقنابلها تتساقط على الجيوش كأنها كرات الثلج المتفجرة ، بينما انفجاراتها فى الجو تحدث دوياً إلى مسافات بعيدة ، وكان المتتبع لصراعاتها الدامية يرى أحاداً منها وقد انفجرت فى الجو العالى وتناثرت أشلائها المحترقة فى الهواء ، ثم سقطت على الأرض لتفترش فوقها مساحات واسعة مختلطة بالجثث الآدمية المحترقة . وانتهز العدو الفرصة ودفع بالجرافات الإسرائيلية لتقوم بإزالة الساتر الرملى على شاطىء القناة ، وتسوى الأرض فى موضع الجسر ، بينما الأطواف العائمة والقوارب المطاطية تنطلق ذهاباً وإياباً بين شاطىء القناة حاملة الأفراد والعتاد للمعاونة فى إقامة أول معبر مفصلى لجسر معدنى أسرائيلى عبر القناة عند عنق الزجاجة الذى يفصل بين البحيرة المرة الكبرى وقناة السويس شمالاً وهو موضع نائى وخال بمنطقة سبخة لا تصلح لقتال أو مرور قوات ، تخيرها الهم قمر المعلومات الأمريكى بيبج بيرد ثم دفعوا بطابور من المدرعات المقيد الاضاءة ، تحرك بسرعة من الطاسة فى العاشرة مساء تحت قيادة مباشرة من الجنرال دانى بعد اعفائه من قيادة المعركة وأمر بالاتجاه إلى حصنى إسرائيل القديمين المسمى (بتسميد) فى مواجهة الدفرسوار ، وأمر بعدم الاشتباك وتفادى أى نوع من التحرشات لنجدة قوات يهونتان وبريميا التى حوصرت فى الغرب للعمل على إعادتها إذا كان ذلك فى الاستطاعة ، وفى الطريق وجد دانى أمامه قافلة المعديات البونتون عند حصن تل سلام (لاكيكان) ، وتعرض دانى فى طريقه لغارات قوات الصاعقة حتى أن أحدهم أطاح ببرج دبابة فقفز منها هو والسائق

فوجد النار تشتعل فى قلنسوته فرماها أرضاً وقد بلغ بـه الضيق مبلغاً عنيفـاً ، وصاح :

ــ لماذا يصرون على استعمال قائد فاشل مثلى !

وحاول السائق أن يطيب خاطره فقال فى تلقائية :

ــ لأنك الوحيد الذى يعرف الطريق جيداً ، أو قد لا يكون هناك جنرال آخر غيرك !

فازداد حنق دانى وامسك بعنقه حتى كاد يقتله ، فصاح الأخير مستنجداً :

ــ دعنى ياسيدى . إنى أموت .

فبصق دانى فى وجهه ، واعتلى دبابة أخرى ومضى فى طريقه .

وكانت الدبابات الاسرائيلية تتسرب وراءه فى طوابير طويلة .

وعندما إقترب دانى من هدفه اثناء احتدام المعارك بعنف شمال وجنوب قرية الجلاء أحس بأن الحظ قد لعب لعبته الشامخة معه ، وأن نجاته بأعجـوبة من الموت ، لم تكن إلا مقدمة لهذا الانفلات إلى هذا الموضع دون أن يتعرض له أحد ، وقبل أن يصل إلى الموضع المحدد كان عليه أن يتخلص من قاعدتى مدفعية مصرية على هيئات مرتفعة تشرف على المكان ، ومن المستحيل أن يتقـدم خطوة وظهـره لهذين المدفعين ، فترك لهما تشكيل من ثمانى دبابات لركوبها من الخلف ، واستمر فى طريقه نحو المياه .

وما كادت الدبابات تستدير ، حتى وقعت فى حقل الغام ، ورأى الملازم النوبى بشير المكان ، وقد تطايرت السنة النار الطويلة فى مختلف الاتجاهات ، لقد دخل الطابور الاسرائيلى الطريق مستديراً على عقبية دون روية ، فانفجرت الالغام فى جنازيرها ، وتعالت من كتلة الطابور المدرع قرقعة أشبه بقرقعة تكسر أشجار الغابة فى حريق مدمر ، وكانت سحب الدخان القاتم السام تتعالى فى الجو كالبالـونات الضخمة تنبعث فى نهاياتها السنة اللهب الأحمر القانى ، ومن خلال انفجارات اللهب التى كانت تضىء المكان ، رأى المـلازم محمد بشـير مدافـع الهاون ذات

المواسير الست تطلق النار على المرتفع من الخلف ، حيث اختفى مدفع سيد خميس فى الضباب الرمادى فصاح فيه عن طريق التليفون :

ـــ القاعدة تتعرض للضرب من الخلف ، عند النقطة الاشارية رقم ٧ يمين ١٣ فوق .. ! دبابات معادية ـــ أسكته .

ومرت بضع ثوان ، وتعرف خميس على الهدف وقدره بمسافة نصف ميل ، وأمر بسرعة فتح النار ، وأنطلق الصاروخ الأول ، ورآه ينفجر أمام الطابور الذى حاصرته النيران ، فأصدر تصحيحاً لها ، فأنفجر وسط دبابتين فأطاح بمقدمتهما وهكذا نشبت معركة حامية الوطيس ، لم يبق من تلك الدبابات سوى ست كانت تناور فى المواجهة ، وانفجرت صناديق الزخيرة بقاعدة خميس ، حيث بصقت فيها إحدى الدبابات لسانين من اللهب ، فأجابها خميس بنفسه بقذيفتين وانطلق إثر القذيفتين إلى أسفل ، ولمعا أمامه يوهج بنفسجى وسط الظلمة ، وأحس أنه أصاب الهدف أكثر مما رآه ، وانقضت على جسم الدبابة نار بنفسجية خاطفة كالبرق وتناثرت ، واختفت سريعاً ، ودون أن يمسح العرق الحار الذى اختلط بالطين على وجهه ، ودون أن يرى ما حدث للدبابة الأولى ، حول جهاز التسديد باحثاً وراء هدف آخر . ومرة أخرى وقع بصره من خلال فرجة فى الدخان على جسم دبابة حى متحرك ، كانت تتجه نحو المرتفع فى حركة إلتفاف خادعة ، وكان برج الدبابة يدور باحثاً بسرعة عن مدخل القاعدة المحصنة تحصيناً قوياً ، ثم إرتعشت الماسروة الطويلة وتجمدت ثانية واحدة ، واتجهت عين فوهة المدفع المستديرة الفارغة السوداء بالضبط ، وفى تلك اللحظة ضغط سيد خميس على الزناد وهو يحسب الثوانى من عداد ومؤشر ، وأمتد أثر القذيفة مثل سلك أزرق حار بين مدفعه والفراغ المميت المتجه إليه ، وفى نفس الوقت صمم أذنيه دوى الانفجار ، وخدش الحديد ماسورة المدفع وتناثرت الشظايا ، وخيمت غمامة من الدخان الأصفر المثير للغثيان ممتلىء برائحة مادة ال (ت . ن . ت) المحروق فوق ترس المدفع ، كما لاحظ خميس فى دهشة حفرة قنبلة على بعد أمتار أربعة من عجلة المدفع اليسرى ، وباندهاش من بقائه حياً ، أجال بصره فيما حوله ليرى ماذا جرى لطقم المدفع .

أكان الجميع غير مصابين ؟ كان جندى الزخيرة أحمد النارى يقف بين أظـرف الدانات الفارغة منتصب القامة ، وقد أمسك بيده دانة يلقمها للمدفع ، وقد أحنى رأسه محدقاً فى الدبابات فى عناد وتحدى ، دون آن يأبه لأى مخاطر ، فصاح فيه المقاتل خميس :

ــ لا تنحن . ضع القذيفة على ركبتيك . ثم اختف .

ولكن الأخير كان إنتهى من مهمته وتراجع ليقترب قائده من جهاز التسديد مرة أخرى وهو يضغط على فكيه فى غيظ . ورصد الدبابة التى ظلت تنفث اللهب نحوهم وهى تناور فى إصرار شديد ، حتى أن صخور القاعدة التهبت من شدة الانفجارات وتواليها ، وصاح فى غيظ شديد :

ــ أما أنا أو هو . أنا أو هو لايمكن أن يكون هو إنها أرضى أنا ... وضغط على الزناد ، وانفجرت فى آن واحد مع ضربته قذيفتا الدبابة فى وقت واحد ، وتصاعد عمودان من العواصف والدومات الترابية الرملية مختلطة بالنيران والدخان أمام السترة الأمامية ، ولفحت وجه طاقم المدفع موجة أخرى من رائحة غريبة نفاذة وسامة ، إلا أن أحداً منهم لم يتململ ، ولم ينتـزع خميس عينه عن المـلاحظة الدقيقة للحركة . من أمامه ، إنه يتعرض لهجوم كثيف من الدبـابات الحـديثة المعدلة ذات الحركة السريعة والدروع السميكة صحيح أن الملازم محمد بشير يتعرض لنفس الهجوم ، إلا أن إصرارهم على مهاجمة القاعدتـين الحصينيتين للصواريخ والمدفعية يخفى هدفاً دنيئاً ، وكلما دمر هدفاً تبادل التهانى تليفونياً مع بشير ، وهكذا كان الحال مع بشير نفسه ، وفى تلك اللحظة كأن كل عضلة فيـه تختلج وتضطرب من الانفعال ، ومن شدة ضيقه تصور أنه لم يبق شىء فى العالم أمامه إلا هذه الدبابة اللعينة ، وذلك الاسـرائيلى داخلهـا بحركـاته ومنـاوراته السريعة المضبوطة ، ويتخذ أوضاعاً سليمة ، عند كل قذفة ، وتمتم خميس مرة أخرى وقد أخذه التحدى :

ــ إما هو أو أنا . بل أنا كما كررت مراراً . بسم الله توكلت ..

وقبل أن يضغط على ذر الاطلاق ، بصقت الدبابة لسانين من اللهب ، وفى هذه اللحظة استدارت الدبابة لمعاودة الضرب ، فامتلكها المدفعجى الخبير وأطلق قدفتين متتاليتين لمعابوهج أخاذ فى الظلام ، وأحدث إصطدامهما بالدبابة انفجاراً مروعاً فكبر خميس مع رجال الطاقم :

ـــ الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، النصر لنا .

ولم يشعر خميس بسعادة طوال أيام الحرب قدر سعادته باصطياد هذه الدبابة ، وخطر له خاطر ، لماذا لايقتحمها ويأسر طاقمها إن كان على وجه الحياة ، وراقت له الفكرة ، فقفز نحو الدبابة ومعه سلاحه الشخصى والحزام الناسف الملىء بالقنابل حول وسطه ، واقترب من الهدف ، وعلى ضوء الإنفجارات المتوالية من زخيرة الدبابة رأى شبحين يتعثران على بعد أمتار منها ، فإقترب فى حرص متخفياً ، ويبدو أنهما أحسا به ، فاستدار أحدهما وأطلق عليه مسدسه ، فلم يجد خميس مفراً من أنه ينزع صمام الأمان من إحدى القنابل اليدوية ويسقطها بين الشبحين فقفزا إلى حفرة قريبة وضحت لهما على ضوء الانفجار ، وهنا أطلق عليهما الوحش خميس مسدسه فانزعجا ، وأحسا أنهما لا محالة ميتين ، فصاح أحدهما بلهجة عربية ركيكة :

ـــ لا تقتلنا يامصرى بربك .

ورفع الثانى قميصه مُعلناً الاستسلام .

وقادهما خميس إلى مقر القاعدة وقيدهما من خلاف فى الملجأ الكبير .

ومن خلال التليفون أخبر الملازم بشير بما تم ، فضحك الضابط الأسمر ضحكة هادئة رغم أنه كان يواجه فى تلك اللحظة هجوماً من دبابتين فى وقت واحد ، وكان مساعده صفوت العسقلانى يرصدهما عن بعد وهما يطلقان النار الأوتوماتيكية على القاعدة من خلال جهاز التسديد ، وأزت قذيفة شديدة الانفجار أزيزاً حاداً على يمين القاعدة ولفح هواؤها الحار اللافع صدغ العسقلانى الذى

نجا من الحرق بسنتيمترات ، وانفجرت هناك أعلى التل مباشرة ، وسقطت الشظايا أمام الخندق وكان الملازم الأسمر يتابع حركة الدبابتين حيث انضمت إليهما أخرى ثم رابعة ، ويبدو أن الجنرال دانى شعر بحرج موقفه فعزز الهجوم بطابور مدرع آخر من عدة دبابات ، وأصبح من فى القاعدة فى خطر ، ولكنهما لم يطلبا من القيادة أى تعزيزات ، وكان التقدير المبدأى أنها بضع دبابات تائهة يجرى تصفيتها ، كانت الدبابات الاسرائيلية تطلق النار بسرعة متواصلة نحو القاعدة فى محاولة للإلتفاف من حولها ، وعلى بعد مائتى متر تمكن بشير من إصطياد الدبابة الأولى التى اقتربت منه أكثر اللازم فكبر العسقلانى وتبعه بقية الطاقم ، ولكن الدبابة رغم إصابتها ، كانت لا تزال على إطلاقها للنار فعاجلها العسقلانى بصاروخ مرق كالسهم وهو يتراقص فى الهواء ووراءه ذيل طويل من اللهب الرفيع أسكتها إلى الأبد . وكانت هناك دائماً كركبة دائمة وعالية تحدثها جنازير الدبابات التى يخفيها الظلام وغلالات كثيفة من التراب ، أما القذائف المتبادلة فكانت آثارها تتقاطع فى الهواء فوق الرءوس منفثة رائحة الفسفور النفاذ ، وأسرعت الدبابات بعيداً عن القاعدة فى وقت واحد ، فأبعد بشير عينه عن النظارة المزدوجة لحظة ، وتابع الطابور وهو يبتعد ، وقد استشعر الخطر ، إنهم يناورون ، وأمر العسقلانى بالضرب عليهم ، وصاح :

ـــ أطلق النار فى غلالات لمنعهم من الاقتراب من الأجناب أوالالتفاف ، نفذ وأمام عينيه تحول الطابور إلى الجنوب ناحية القاعدة الأخرى ، جهة خميس ، ثم أنقسم على نفسه ، وعرج أحد القسمين شرقاً يريد أن يمتلك ظهر القاعدة ويهدد الجناح الأيسر للقاعدة الأخرى ، وشعر بشير بإرتياح لذيذ لأنه فهم نيتهم واستعد لهم ، ورأى تحذير زميله ملازم سيد خميس ، فصاح مبتهجاً :

ـــ أريد الملازم خميس على التليفون لأحذره .

ولكن نيران الدبابات فرشت المكان كله ، ووجهت عدة قذفات متتالية إلى صدر القاعدة غيظاً وكمداً . فلقد حاصرتها نيران القاعدة ، ومنعتها من الالتفاف ، وتابع المساعد العسقلانى الطابور الأيسر لدبابات العدو وهتف فى سعادة .

ـــ لقد نقصت واحدة . لقد أصبتها .

ثم أحس بانقباض واحباط :

ـــ لكن أين هى ؟ لابد أن الظلام يخفيها !

تعلل بهذا وواصل تلقيم المدفع بدانة فى يده ، ومن خلال النظارة التلسكوبية حدد بشير هدفاً واضحاً ، وتابعه حتى هدأت حركته نسبياً ثم أطلق عليه قذيفة ، مرقت القذيفة ترف فى الظلام ، ولشد دهشته أن الدبابة لا تصاب إلا إصابة خفيفة فى شيكتها الأمامية ، ولكن انفجاراً شديداً يعقب ذلك ، وترتفع بعده سحابات اللهب المغطى بالدخان القاتم ، لقد أصابت القذيفة دبابة أخرى ! وهرول شبح رجل من أمام الدبابات متلوياً فى جرية ساقطاً زاحفاً ، ثم ناهضاً ومندفعاً وراء أحد الدبابات التى كانت تطلق بغير توقف ، كان الشبح يصيح دون جدوى وسط هدير الدبابات المزعج ، ويبدو أنه إقترب من الدبابة أكثر مما يجب فأصيب إصابة مباشرة ، أطلق بعدها صيحة مزعورة شقت الفضاء ، ولم يلتفت إليه أحد ، لقد ضاع الشبح كما ضاعت صيحته فى الفراغ الممتد إلى ما لا نهاية !

وهتف بشير فى ضيق :

ـــ أين التليفون ، أنهم يناورون حول القاعدة الأخرى . أريد خميساً فوراً .

ولم يسمع رداً فصرخ فى حدة :

ـــ هل أأذن فى مالطة ! إنها ليست حرب إذن ! أين الجرجاوى ؟ إلىّ بالجرجاوى . ولا مستجيب ، فصرخ فى غضب :

ـــ سأحاكمكم جميعاً . إن القاعدة الأخرى تتعرض للخطر . أين الأشارجى اللعين . ونظر من خلال كوة فى الملجأ حيث يعمل جندى الاشارة صادق الجرجاوى ونادى :

ـــ ماذا هناك ؟ أين التليفون ياجرجاوى ؟

ورفع الجندى عينين بائستين ، أجهدهما التعب وقال فى صوت لايقوى على الارتفاع :

ـــ إنهم لا يجيبون ! لقد إنقطع الخط . لا فائدة .

وخفض رأسه وبدأ ينهض فى الخندق ببطء ، منفضاً عنه التراب . فزجره بشير ..

ـــ دع نظافتك الآن !

ثم أوقفه أمامه غاضباً وأشار ناحية القاعدة الأخرى :

ـــ سر بمحاذاة الخط التليفونى متخفيا ومنحنياً ، إياك وأن تظهر رأسك عن جسمك ، فالرأس دليل المرء ، وحذارى أن يرصدوها ، أترى ؟ هذه دبابات العدو إلى جنوب الحقل تأثير رمياتهم شرقاً ، دع اتجاه خطورة جنوباً ، وتحسس السلك أينما سرت . هيا .

وهز الجرجاوى كتفيه فى هدوء ولا مبالاة ، ورفع رشاشه وأدخل حمالته فى كتفه ثم دفع مساعده بيده نحو آلة التليفون وقال له بعينين ذابلتين ساكنتين :

ـــ اجلس هنا وراقب الحرارة حتى أكلمك أيها النفر .

ـــ أريد أن آتى معك .

فغمز له لاهياً عنه :

ـــ لم أقرر بعد أن أصحب أطفالاً !

ـــ لقد خرجت معك مراراً . فهل كنت معك طفلاً !

ـــ كانت نزهات يانظرى ... أما هذه فنار موقدة . إنتبه أمامك .

كان بشير يستمع من بعيد إلى الحوار ، فضحك ثم تدخل بينهما :

ـــ خذه معك ياعريف جرجاوى .

ـــ الأرض خطرة .

ـــ هذا أمر .

وحمل المساعد رشاشه وحقيبته مكتظة بمواد ومعدات الصيانة تحت إبطه ، فضحك السنارى منه وصاح فيه :

ـــ هل تنوى أن تمارس مهنتك مع الاسرائيليين !

وبالفعل فإن المساعد كان حلاقاً قبل تجنيده . فتسلل الضحك على غير العادة إلى الجميع ! كان بشير قلقاً . فخذلته قدماه وجلس فى قعر الخندق قرب آلة التليفون الصامتة ، وأخذ ينفخ فى السماعة فى جهد غير ضرورى ، وكان واضحاً أن

الدبابات قررت التخلص من القاعدة الأخرى أولاً لشدة تحصين قاعدته هو ، وحتى يعود الخط إلى العمل تابع فى ذهنه حركة الدبابات ، وقدر المسافة بين مدافع خميس وكتلة الطابور الزاحفة ، وعرف أن هذا هو الزمن الميت الذى لابد فيه من تعامل مدافع القاعدة مع هذا الطابور المتحرك ، وفكر حين تبدأ دبابات الاسرائيليين تبادل النيران أن يستعمل هو مدافع القاعدة بعيدة المدى ليفتح النار على جناح الدبابات الأيمن فيثبتها ويمنعها من الحركة ما أمكن . عندئذ ستصبح هدفاً ثابتاً صائغاً لرجال خميس ، استحسن الفكرة . ولكن أين له بالتليفون لينسق ويحذر ! فى تلك اللحظة سمع بشير صوت أطلاق النار من بعيد فهتف :

ـــ لقد بدأوا . أسرع ياسنارى إلى قاذف الصواريخ أريد إصابات محققة . دقق فابتسم السنارى برموشه المرتعشة ، ودفع كرتونة البسكويت التى كان يأكل منها من أمامه ، وانتصب واقفاً ، واستدار نصف دورة ورفع الغطاء المشمع من فوق القاذف ثم تحسس جسده البارد وقبله وربت عليه وكأنه يحدث إنساناً :

ـــ أعلم أنك تعانى من البرد القارص . الآن فقط حان وقت العمل لتدب فبك الحرارة والحياة حتى تحمر وجنتيك من شدة اللهب !

وادار عجلة القاذف ونادى بالملقم الذى جاء على عجل ودفع بجسم الصاروخ فى ماسورة القاذف ، وبدأ فى تشغيل التجهيز الآلى وضبطه على الزاوية المطلوبة ، وانتظر الأمر بالضرب ، ولما جاءه الملازم الأسمر بشير كان هدير القصف مستمرا والسماء ترعد وتلون باللون الأرجوانى وسط الظلمة والضباب الرمادى ، فعرف من اتجاه القصف أنهم ـ أى الأسرائيليون ـــ يريدون أعتلاء التل من الغرب واصابة القاعدة فوقه ، وابتسم مرة أخرى ، لقد حسبها قبلهم ، وراجع حسابات القاذف ، ففرقت عن وضعها درجتين فعدل وضعها ثم ضبط ذراع القاذف وضغط الذر وعينيه داخل النظارة البانورامية وواصل الضغط فاندفع لهب أزرق أعقبه صاروخ أنفصل عن مظروفه وقد غلفه اللهب ، ورف فى الجو فى مسار منحنى ، ومرت الثوانى بطيئة قبل أن يسمع رد الفعل ، الانفجار فرقص السنارى ، وبادل بشير التهنئة ، ومضى فى رصده للقذفة الثانية من خلاا جهاز التنشيق (الليلى زينون)

وتبع الصاروخ الأول بصاروخين ثم بثالث ، ثم عمد إلى المدافع الهاوتزر والهاون بعيدة المدى ، فأصدر أمره إلى المساعدين بالعمل ، وأخذت تضرب على الطابور الاسرائيلى بكل معدات الضرب ، حتى أرغم الطابور الاسرائيلى على الارتداد عن القاعدة ليتقى هذه القصفات ، ثم تتفرق دباباته فخفت حدتها النيرانية على القاعدة الأمامية .

كان بشير مسروراً لهذه النتيجة ، وكاد العرق يتساقط على عينيه دون أن يملك إزاحته ، ومن خلال نقاط الملاحظة ، رأى الدبابات الاسرائيلية مثل كتلة سوداء تستدير وتتفرق وقد تباعدت المسافات فيما بينها فى الأرض الوعرة ، وكان بعضها يترنح من الاصابة ، كما وضح فى مقدمة الطابور ثلاث دبابات تحترق .

وعندما عاد عريف الاشارة سالماً إلى مكمنه ، كان الخط التليفونى قد بدأ يسرى فيه تيار الحياة ، فسر بشير وأسرع بالاتصال بزميله سيد خميس ، الذى كان أكثر سعادة منه بعودة الخط ، وطمأنه بأن الطابور إلى تراجع ، أصرله خميس بشكوكه فلأول مرة يصر العدو على المواجهة رغم خسائرة الفادحة دون أن يحاول الهرب ، وقال :

إنهم يغطون شيئاً مريباً .

فرد عليه خميس بعد صمت قليل :

ـ إننى أشم نفس هذه الرائحة !

* * *

الفصل التاسع

الصراع على البر الغربي :

أرسلت قنابل القاعدتين نوافير الماء حول الأطواف الاسرائيلية ، فأغرقت بعضها وأتلفت البعض الآخر ، وإرتفعت غمائم طويلة في الجو المحيط وسقطت أجزاء من لوريات وكراكات التطهير في الماء بعد إصابتها ، ولكن بقية اللواري التي كانت تتراص عند نقطة تجميع رأس الكوبري لم تتراجع ولم تنصرف عن الشاطيء ، وإن توقفت حركتها ، وسكن الجنود عن متابعة العمل في دفع الأطواف ، بينما كانت الجنود التي كانت تعبر من خلال قوارب المطاط تغرق في الماء تحت قصف متواصل أشد عنفاً وأعظم كثافة بكل معدات الضرب من الضفتين وفوق جميع الروابي في حشد مدفعي لم يعرف له مثيل من قبل ، اشتركت فيه مدفعية الطالية ومدفعية الجيش الثاني والجيش الثالث بعيدة المدى ، كماتخندقت الدبابات وأرسلت طوفاناً من القذائف الثقيلة ، وكذلك عربات قذف الصواريخ المدرعة ، وكانت هذه جميعاً تتجمع في غلالات نيرانية كثيفة أشعلت النار في منطقة التجمعات عند رأس الكوبري الإسرائيلي ، الذي حاولوا دفع عدة دبابات عند مقدمته لإثبات قدرتهم على وضع أقدامهم على مياه القناة !

واشتد حرج الجنرال داني الذي نقل على محفته إلى موقع الكوبري ، لقد كانت دانات المدفعية ، وقذائف الدبابات ، والصواريخ ، وقنابل الطائرات التي أسرعت إلى ضرب المنطقة ضرباً شديداً في طلعات مستمرة ودائمة حتى أنها غطت السماء فوقهم ، كان هذا القذف المركز يدق أعناق الإسرائيليين ويشوي أجسادهم ، ويشعل النار في معداتهم ، فأرسل داني بصفة نهائية إلى القيادة

الاسرائيلية بسرعة إلغاء العملية أو أن ينسحب على مسئوليته . ولكنهم رجوه كما رجوا مساعده بالثبات حتى يتدبروا الأمر .

ورغم دقة وكثافة القصف إلا أن المهندسين الإسرائيليين ظلوا على إصرارهم فى إنزال جسم الطوف الكبير ، فصاح بشير وهو يضغط وجهه فى العين البانورامية مغتاظاً :

ــ هناك مخرج واحد لهم ، أن يحترقوا حتى آخر جندى . نعم هذا هو الحل .

وترصد الأطواف ، وبعض الأجزاء المعدنية التى ألقي فى الماء تحت قصف المدفعية بعيدة المدى ، وضغط على الذر فإذا هى قنبله مباشرة ، سقطت وسقط معها الثقل المعدنى بمن فيه !. فصفق وكبر ثم أردف وهكذا دواليك ، وفجأة فتحت الدبابات المعادية نيرانها على المرتفع من جهات عديدة ، وتبع ذلك سلسلة من ألسنة النار القصيرة الباهرة إرتفعت عمودية إلى السماء ، وكان إصرار العدو واضحاً فى تدمير القاعدة ، ولكنها كانت حصينة لدرجة يصعب اختراقها ، خاصة وأنها تشرف على هيئات عالية ، ومسلحة بكل معدات الدفاع الجوى والأراضى ، وبها رجال أشداء أكثر صلابة من كل جيش تسهال !. كيف لا وهم يزودون عن أشرف أرض وأشرف قضية !.

وعلى الفور فتحت القاعدة نيران الهاون ذات المواسير الست بهدير كالرعد . وكان كل شيء يبدو قد ذاب تحت تأثير تلك القرقعة وهذا الهدير ، حتى أنا المرتفع الصخرى الذى تقوم عليه القاعدة كأن يبدو كمن تصدع ويهتز كجسم حى !

ومرت قنبلة مباشرة تحت قاعدة المدفع الكبير ، وانفجرت فى الملجأ الملحق بجندى الاشارة ، فسقط هو ومساعده إلى مقر الخندق ، وغاص من القعر بهما ، وكأنما انحشر فى آذانهما قطن حار ، وصبت فى رأسيهما نار كالحديد المسبوك وهب عليهما هواء سخنته الشظايا ، وكان كل شيء يبدو أمامهما غير مستقر . وصرخ فيهما الملازم أول بشير :

ــ هلم أنهضا ، ماذا أصابكما ؟ ها هو المقذوف لم ينفخر !.

إنها عناية الله ولا شيء آخر ، وتحقق قوله تعالى : « ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم » .

وفرك جرجاوى عينيه بظاهر يده متثاقلاً ، ونهض على ركبتيه واهناً نحيلاً وجفناه لا يفتآن يطرفان ، وأزاح الغبار عن آلة التليفون الاحتياطية بكمه ، ووضع زمامها فوق كتفه وتأوه ممدداً قدميه ، وصرخ متشنجاً مثل صبى وقع فى خطأ وقال لقائده معتذراً :

ــ ظننت أنها النهاية .

فضحك بشير ومسح على منكبيه وطيب خاطره :

ــ عمر الشقى بقى .

أما مساعد جرجاوى ، فلم يصدق أنه نجا ، وقال لجرجاوى :

ــ إذ مت ، فادفنى حيث أكون ، وأخبر من يسأل عنى بأننى سافرت بلا عودة !.

ونهض ، فضحكوا عليه ، وبسرعة غير متوقعة صعد إلى منصة الضرب دون أن يلتفت وراءه وصاح :

ــ سأخذ بثأرى . لن أقبع كالولايا جنب التليفون . سأصلى أولاد الهرمة ناراً بيدى .

وبالفعل فقد مكنه الملازم الأسمر بشير من أمنيته ، وضمه إلى طاقم مدفعى هاون لاصراره ، وظل يخدم عليه حتى إعلان الهدنة ، وقبول المفاوضات ، ولقد سجلت له القاعدة ، أكبر معدلات الضرب ودقة الاصابة من بين أقرانه ، حتى أنهم أطلقوا عليه : « العسكرى موس » لأنه كان يرصد الهدف ، فلا يكف عنه حتى يجعله حطاماً وينهى كل أثر له فى الوجود ، فكأنه الموس الذى لا يترك أى أثر للشعر على صفحة الوجه ، وكان الملازم بشير يداعبه بقوله :

ــ إسم على مسمى !.

وظل هذا الاسم « موس » أو هذه الكنية ملازمة له حتى بعد أن عاد إلى الحياة العامة ، وافتتح صالوناً للحلاقة ، مهنته فى قريته سنديون !.

وبعد دقيقة واحدة سمع جرجاوى زعقة عبر الأسلاك كنبش الحشرة ، ورن فى أذنه صوت سريع محموم :

ـــ فهد يتكلم ، نحن فى الطريق إليكم . إوقفوا الضرب على حارة المرور ١٠١٧ ، نحن نمر عليها إلى رأس الأفعى . أى معلومات جديدة منكم تنفعنا ، حددوا لنا مناطق الاقتحام . هل تتعرضون لأى هجمات ؟. إنتهى .

وعلى الفور عرف أن المظليين المصريين ، كتيبه الملازم أول راضى الملا فى الطريق للاشتباك مع الاسرائيليين عند رأس الكوبرى ، وأنهم فى حاجة إلى استطلاعات القاعدة ، فرفع السماعة عند أذنه وصاح :

ـــ تليفون عاجل . المظليون على الخط .

وكرر النداء عدة مرات حتى سمعه الملازم بشير ، كان دوى المدافع عالياً ، وكان هناك عربتان متخندقتان فى موقع حصين من القاعدة ، تطلق صورايخهما فى اتجاه رأس الكوبرى بصفة آلية مستمرة ، حيث كانت الصواريخ تأز أزاً مخيفاً بأشعتها النارية ذى اللون البنفسجى ، وكان الصوت الذى تخلفه عند الاطلاق يشبه غمغمة ديناصور ! . وصاح بشير :

ـــ جبل يتكلم . نعم يا فهد . علم ، ما حددووا مواقعكم ، هناك كمائن اسرائيلية ودبابات أمام المواجهه لجبل وصخر . تعاملوا معهم قبل أن تمروا ، نحن فى سبيلنا إلى تدميرهم .

ـــ سوف ننقسم إلى جماعتين ، كل جماعة معاونة أمام قاعدة ، سندخل عندكم ظافرين بإذن الله . حددوا لنا حارات الضرب .

وأخذت الاسلاك تنقل بين الطرفين عدة ارقام واتجاهات ، حتى تحركت القوة . ترك بشير خندق الاتصال ، وصعد إلى نظارة الميدان البانورامية كيما كانت

المدافع المضادة للدبابات مشتبكة مع العدو ، وأخذ يجـول بنظره عبـر الطريق الرئيسى والمدقات الفرعية ، لقد كان قلقاً بشأن مصير الملازم راضى ، والرجـال الثلاث الذين يقتفون أثره ، ولما لم يجد لهم إثراً ، حاول أن يخفى قلقه بالاشتراك مع المدافعين ، ولكنه لم يكن كالعهد به مسريا عن الرجال شاحذاً لهممهم ، بل كان صامتاً طول الوقت ، وفجأة لمح يتحرك عن بعد ، فنهض هاتفاً فى فـرح دون أن يدرى ما يقول :

ــ لقد عادوا أخيرا !.

وانفرجت اساريره ، ولكنه لاحظ أنهم يتجهون فى الاتجاه غير الصحيح فأخذ ينادى عليهم صائحاً لتغيير الاتجاه ، غير أن صوته ضاع فى ضجيج الانفجارات المبعثرة لقذائف الهـاون والمورتـر والهاوتـزر والقذائف الصـاروخية . ولم يكن ليستطع أن ينزل إليهم ولا قادراً على توصيل صوته إليهم .

كان واضحاً أن الجنود تحمل محفتين ، وخشى أن يقعوا فى طريق الدبابات المعادية، كيف وصل الاسرائليون إلى هذا المكان النائى المتربع فوق أرض ملحية مليئة بالمستنقعات وبعض الدغل والعشب الجاف ! لم يكن ليصدق هذا لولا أنه رآهم مرأى العين ، وهـا هى اللحظات تجـرى والفناء يـدب فى أوصالهم بفعـل المدفعية ، وعما قريب ستأتى المدرعات والمشاة والصواعق ليكتبوا آخر سطر فى نهايتهم ، لقد فكر فى هذا كله وهو يبحث عن وسيله لنجدة جنوده أسفل القاعدة ، وما لبث أن صفق بيديه لقد وصلت الإمدادات ، قافلة التموين تتقدمها فصائل القوات الخاصة والمشاة والصاعقة ، وفى وسط هذه الفرحة لم يلتفت بشير إلى تلك الصيحة التى ترددت فى موقع الرمى من الخلف :

ــ قنابل ، قنابل !

وفى تلك اللحظة تعـرضت القاعـدة لهجوم بشـرى من العدو ، لقـد دفعوا بمظليمهم تحت ستار النيران لتدمير القاعدة من الداخل ، بعد أن استعصى على المدرعات إسكات مدافعها التى دكت ولا تزال تدك رأس الكوبرى بنيران مركزة

عنيفة ، واضطر المدافعون إلى الدفاع عن أنفسهم وقواعدهم بـالسنكى والمدى والسلاح الأبيض ، وصاح جرجاوى وهو يفتح رشاشه على ثلاثة يهمون بمهاجمة المدفع :

ــ إلى أين يا ابن صهيون .

وجذب العتلة ثم انبطح على أسفلت الملجأ وضغط على الزناد ، وكل ذرة فيه ترتجف ، وانطلق الرشاش ، وأصاب أول ما أصاب مساعده الاشارجى السابق (موس) ، ولما وقع على الأرض والدماء تنزف من ذراعه ، نزل الأمر عليه وقع الصاعقه ، واندفع نحوه وشده نحو صناديق التعيينات ، وشدكم سترة قديمـة وراح يربط موضع النزيف ، وفوجئا باسرائيـلى يندفـع نحوهمـا بظهره وبيـده سلاحه الأبيض ، فمد موسى رجله بين قدمى الاسرائيلى فألقـاه على الأرض ، وعندئذ عاجله جرجاوى بقصعة كاملة من ثريد العدس ، جفت بقاعها وجبـة سحبها بيده ، وضرب رأس الاسرائيلى ، فلم تهتز القصعة فى يده ، وإنما تقعرت وتبعجت ، وعندما رفعها لم يستطع أن يميز ملامح اليهودى ، لقد انفجرت شرايين رأسه ، وبنجس منها الدم فى خيوط طويلة سالت على وجهه وجسمه وشهق شهقة كسقاطة ضرب النار ، ثم تدلى لسانه ورغى زبداً كثيفاً عند شدقية ، وقبل أن يضع قلبه ، تصلب جسده وارتعش إرتعاشة عنيفة ثم همد مرة واحدة ، همدة القبر ، فجره موس بيده السليمة ودفعه خارج الملجأ بقدمه ، ثم قبض على رشاشه ، بيده الواحدة ، وظهره إلى قاعدة المدفع ، وقبل أن يطلق رصاصة فوجىء باثنين من الأعداء وقد أقبلا نحوه بالمدى ، ويبدو عليهما من طريقة دخولهما عليه أنهما على درجة عالية من الثقة والتدريب العالى ، فأيقن هلاكه ، ولكنه بدافع غريزة حب البقاء ، قدر أن أطلاق الرشاش يستلزم جزء من الدقيقة ، هى فى الواقـع فارق الحياة من الموت ، ولما كانت قدراته قدرة نصف رجل لإصابة زراعه ، ومن ثم فقد عول على الاستشهاد ، ولكن بعد أن يصيب من أحدهم مقتلاً ، وبالفعل فقد قفز عليهما بطريقة لم يتوقعاها ، وضرب أحدهما بالرشاش فى وجهه ، وقبل أن يتلقى طعنة من الآخر ، وهو يطلق لسانه بالشهادة ، سمع صوتاً تحت أقدامه ، ونظر أول تحته فإذا بالاسرائيلى منطرح أرضاً وطعنه نجلاء فى صدره من يد الملازم بشير !.

لقد أرسله القدر إليه فى آخر لحظة لانقاذه ، فنظر إلى قائده نظرة إعتراف بالجميل ، فربت عليه بشير قائلاً :

ــ مرة أخرى يا موس ، عمر الشقى بقى . خذ طريقك إلى المضمد فوراً للعلاج .

ــ ليس وقتها .

ــ إنك إن فعلت ستساعدنا بصورة أفضل .

ــ فهمت .

وابتسم ثم انطلق نحو الخندق الكبير حيث عكف طبيب الموقع والمضمدون فى عملياتهم السريعة البسيطة للمقاتلين .

كانت رشاشات المدافعين تنطلق على جنود العدو المهاجمة للقاعدة من مسافات قصيرة لا تعدو أمتاراً فى بعض الحالات ، وفى ركن منها كان هنالك جندى برتبة رقيب مدفعجى ، لم يمض عليه فى القاعدة سوى أسبوع واحد ، ومنذ وصل وحتى ميعاد الهجوم الاسرائيلى كان الصمت هو ديدنه المكين ، لم يروه يلفظ لفظاً زائداً عن حدود الأوامر المتداولة ، والتى كان يتناولها فى صمت مكتوبة من قائد القاعدة ، ثم يمضى بعض الوقت ليعود بنفس الورقة مكتوباً عليها بخط ردىء « تم التنفيذ » ودون أن ينبث كلمة واحدة . وضاق به زملاؤه واشتكوه للقائد الذى كفهم عن مضايقته ، ولكنهم كانوا يمازحونه رغماً عنه ، ويروون عنه النكات والترهات دون أن يبدو عليه أى رد فعل لتغيير عادته ، وهذا الأمر أغلق تماما عليهم حياته ، ولكنهم كانوا يقدرون له شهامته ، ومجازفاته الخطرة التى كادت تكلفه حياته فى كل مرة ، ولكنه إبداً لم يتراجع أو يفرط إو يتوانى وكان فى إقدامه وحشاً يكشر عن انيابه ودائماً تخضب بدماء العدو بعد أن يهشم له ضلوعه ، ولهذا كان مثار إعجاب زملائه قدر ما كان مثار تندرهم .

كان دائماً وراءه سراً خفيفا ، وكان عجيباً ، قليلاً ما رأوه يأكل أو يتسلى كغيره من الجنود ، وكان شديد الضبط والربط ، صلباً فى تنفيذ الأوامر

العسكرية ، وكان كالعهد به صامتاً طول الوقت ، حين هو جمت القاعدة تحت تأثير نيران كثيفة من الدبابات الأسرائيلية ، وهو أمر وارد ومعلوم فى الحروب ، ومقدر له دفاعاته ، وكان جوهر الدردنيلى وهو اسم صاحبنا ، قد ركن إلى زاوية صغيرة غرب القاعدة ليصلى الظهر ، وقبل أن يسلم فى نهاية صلاته أحس بالغارة فقبض على زمام رشاشه ، وجلس إلى جدار الزواية وكان ممتداً إلى نهاية الهضبة ، تشغله نفايات القاعدة فى ركن منها وخاصة صناديق الزخيرة الخاوية ، والمظاريف الفارغة ، فاتخذها ساتراً ، وافترش الأرض ، وأحكم تصويبه عند مدخل القاعدة الشرقى ، وكلما مر عليه جندى اسرائيلى أطلق عليه طلقة واحدة مكتوب عليها أجله وساعته ، وكانت ضحاياه عند المدخل عشرات ، عشرات ، مجندلة ، وانضم إليه عريف متطوع سمير الؤنانى من بلدياته وراجا يتبادلان الاطلاق ، وكلما سقط إسرائيلى بصقا عليه وودعاه باللعنات :

ـــ إلى الجحيم يا ابن الملعونة .

وتنبه إليهما مجموعة معادية مهاجمة ، فزحفوا على بطونهم عند حافة الهضبة يريدون مفاجأتهما من الخلف ، ولكن الدردنيلى ليس هو المقاتل الذى يسلم ظهره إلى عدوه ، إذ سرعان ما لمح ظلهم يتحرك على الرمل ، فزحف على بطنه بسرعة وطلب من سمير أن يحمى له ظهره ، على أن يستمر فى اطلاق النار إلى الأمام حتى لا يلفت نظرهم ، ثم كمن لهم وانتظر حتى أصبحت الشمس فى عيونهم عندما استداروا ، ثم أطلق عليهم رشاشه ، كان يطلق من مدفعه وابلاً من الرصاص ، ولم يستطعوا استيعاب الصدمة ، وقبل أن يعدلوا أو ضاعهم كان قد أتى على أربعة منهم وأصاب إثنين وتبقى ثلاثة راحوا يبادلونه إطلاق النار ، ولكن الرعب صور لهم أنهم أمام مجموعة دفاعية يغطى بعضهم بعضا ، فاستسلموا ، ورفعوا قمصانهم إلى أعلى بعد أن رموا سلاحهم ، وعندما أمرهم أن يستديروا وربطهم من خلاف ، أكل الغيظ قلوبهم وقد تبينوا أنهم كانو فى مواجهة فرد واحد .. فرد واحد قتل منهم من قتل وأصاب من أصاب ثم أسر الباقى !. أى فرد هذا ؟ إنه الجندى المصرى الجديد ، الذين لم يصادفوه من قبل فى كل حروبهم .

وقبل الغروب كان الموقف قد إنقشعت غمائمة ، وانسحب المظليون الاسرائيليون مثخنين بالجراح بعد أن تركوا أكثر من خمسين قتيلاً وأكثر من هذا الرقم بين جرحى وأسرى ، وفشل الهجوم فشلاً ذريعاً ، والأنكى من هذا أنهم ما كادوا يبعدون ميلاً من القاعدة حتى وقعوا فى صدام مع كتائب المظليين المصريين ، الذين كانوا يزرعون المنطقة بحثاً عن هؤلاء المظليين من الأعداء الذين دفعهم الخوف إلى التخفى ، ولم يعثر بعد على مواقعهم !

كان هناك مصريون بقمصان غير مزررة ، تخلوا عن شداتهم الشتوية ، تخففوا من كل شىء إلا من العزيمة على دحر العدو ، والإصرار على طرده ، وحمل السلاح وأكبر كمية من المتفجرات والسلاح الأبيض ، وكانوا قد تخندقوا بسرعة فى حاشية الشط بعجالة ، وكان التراب الملقى من الخنادق يشكل أقواساً فى الهواء ، وكان المقدم الترك قد دفع بالنورى وسيلڤيا إلى طريق إحدى الدبابات الإسرائيلية للتعرف عن طريق الإتصال اللاسلكى بالمواقع الاسرائيلية أولاً بأول ، سواء داخل منطقة الجناين فى الغرب أو مخاضات الملح التى تسربوا منها ، والجيوب التى يختفون جواها ، وكان لابد من عين راصدة واعية من داخلهم تعد عليهم أنفاسهم وتنقلها إليه ، ولم يكن هناك أصلح من سيلڤيا الدانمركية الأسيرة ، والتى أبدت إستعداداً تلقائياً ، وحماساً فياضاً عندما عرض عليها الأمر ، فقام الترك بمصاحبتها ودفعها فى طريقهم كجريحة يمكن إلتقاطها من إحدى دباباتهم على أن يراقبها طائع النور عن بعد لحمايتها ورعايتها وتأمين عودتها إذا استوجب الأمر ذلك ، وفوجىء الترك بأن الدبابة التى استوقفتها سيلڤيا كجريحة لانقاذها ، نزلت منها مجندة اسرائيلية .. إنها لندا أهارون عشيقة البريجادير عاموس رومانى الذى هرب إلى الغرب خوفاً من الموت ، فصاح الترك فى صاحبه : « إنه لفأل حسن . إن النساء لا تكف عن الرغى وستعرف منهما كل شىء !.

كان جنودهم فى خوذاتهم الفولاذية ، وكانت وجوههم مهزولة وغير حليقة وبلون الشمع وقد نظروا إلى عربتين من حاملات الجنود المدرعة تسرع بالجرحى

إلى مدق تقف خلف سواتره طائره عمودية إلى اسرائيل فى حقد وحسد ، وكان أحدهم فى كمال السن ممتلىء الذقن منتفخ الوجه ، فى فمه سيجارة أمريكية يدخنها فى نهم يقال له إيفان ، وكانوا يلقبونه إيفان الرهيب ، والحقيقة أن أسمه الحقيقى شارلى ، ولأنه كان روسياً من باكو ، وكان عدوانياً ، مثيراً للشغب سواء مع زملائه فى الجيش أومن قبل مع جيرانه فى مستعمرة كريات شمونه فى الجليل الأعلى ، حتى مع سائر القادة الذين يعملون معه ، مستأثراً بأعظم قدر من خيرات العم سام ، الذى زاد كرمه عليهم عن كل حد وخاصة فيما يتعلق بالأغذية ، وكان يبصق فى وجوههم ويقول :

ـــ إننى لم أجيىء من روسيا لأجوع ، وأحرم الشراب من أجل عيون جولدا ! .

وكان ينتزع ما يريد إنتزاعاً ، وكان إيفان هذا قد إنتهى على التو من معركة القاعدة المصرية فوق التل ، ورغم جسارته إلا أنه نجى من الذبح بأعجوبة شديدة ، ولسوء حظه فقد اصطدم بجر جاوى ، الذى عاجله بضربة بمقبض من مدفعه فوق ظهره ، وكانت ضربة قوية أحس بعدها أن ضلوعه تحطمت ، وانخلع قلبه عن موضعه ووقع السنكى من يده وأظلمت الدنيا أمام عينيه ، واندفع إلى الأرض بقوة ، أفقدته الوعى ، ولولا ظنوه فى عداد والموتى ما تركوه ولأجهزوا عليه ، إلا أنه ـــ لقوته الجسمانية ـــ سرعان ما استرد عافيته بسرعة ، فوجد زملائه يجرون هرباً فخشى أن يتخلف وحده ويقع فى الأسر ، فأسرع يجرى وراءهم وهو يصيح :

ـــ لقد أو قعتونا فى مقتل يا سفلة بغبائكم هذا .

وظل حانقاً على جاويش أحمر الشعر أصفر الوجه أزرق العينين هو لندى الأصل طويل الأذنين ترابى البشرة ، مسئول عن جماعته فى الفصيلة يقال له رينان ويلقبونه برينان الغبى لشدة ضيق أفقه وغرابة تصرفاته معهم ، فكان إيفان يهدده كل حين عندما يتعرض له ، فيعرض به هازئاً :

ـــ لقد أو قعتونا فى مقتل ياسفلة بغبائكم هذا .

ـــ أيهايا وحيد القرن .. يامجمع الأفكار، ماذا أنت فاعل بنا .

وكان رينان يستمر فى تهديده دون مبالاة :

ـــ سوف احاكمكم جميعاً ، إنكم تنابلة غير محبين للحرب ولا لاسرائيل ،

ولسوف ترون حين نعود واقدم عن أعمالكم المخزية تقريرى ! .

فيهزأون به ساخرين :

ـــ هذا إذا عدت أيها الوغد رينان ، لسوف يدق المصريون عنقك .

فيصبح فيهم :

ـــ تبالكم جميعاً . اتبتأ سون وتخافون المصير إلى هذا الحد ؟

وهنا يصير النقاش عديم الجدوى ، فيصيح فيهم إيڤان بغلظته :

ـــ كفوا . وكفانا نصائح من هذا المأفون . وانظروا أمامكم حتى لا تقتلوا .

ولكن رينانا لا يكف عن اعطاء الأوامر واسداء النصح ، إلا بعد أن يقوم إليه إيڤان ويلوى ذراعه ويدفعه داخل الملجأ بعيداً عن الجميع !

كانوا جميعاً متعبين ، ومجهدين ، ومثخنين بـالجراح ، وكـان اصطدامهم بالمظليين المصريين شر لابد منه ، وبدأت المعركة بالرشاشات من الجانبين ، وعاجل المصريون أعداءهم ، ونصحت سيلڤيا فى أول أتصال لاسلكى ، بالتركيز على قلب المظليين الاسرائيليين ، ففيه معظم قـادتهم ، فضلاً عن أنـه أضعف كثيراً من الجناحين ، وعمل الترك بالنصيحة ، وهب مع الزملاء هبة عنترية ، ناوشوا فيها الجناحين بقوات رمزية ، فى حين جعل قوته الضاربة فى الوسط ، فلم يتحمل الوضع الاسرائيلى الهجوم المباغت وترنح التماسك الاسرائيلى وتفسخت خطوطه ، واقتحم الترك ومن خلفه خنادق الإسرائيليين بعد أن تحول المكان إلى أتون ملتهب ، وأصبح الاشتباك بالأيدى وبالسلاح الأبيض ، قتال رجل لرجـل ، حيث تُمتحن معادن الرجال ، وتقاس صلابتهم ، فهل يتساوى اللص بمن يزود عن العرض كلا وألف

كلاّ ، لقد تبدت للاسرائيليين فى تلك اللحظة دماء العرب الحارة ، وكيف يتحول الرجل المسلم الحالم راوية الشعر وحافظ الأنساب ومنظم العروض ، إلى مارد جبار متمكن من فنون الحرب والنزال . مهلك للعدو أينما كان ، دفاعاً عن عرضه ونفسه وماله .

وكانن يڤان ينظر إلى رقاب زملائه وهى تنحر على مذبح الرمال التى اصطبغت بنوافير الدم المتدفقه ، ثم الأجساد المطعونة المتراصة فى كل شبر ، ينظر إليها بحزن دفين ، ووجد أن لا مفر من الانسحاب السريع بمن تبقى معه وهم لايزيدون عن الثلاثين بقليل من أصل مائتى مظلى تسللوا لتدعيم وتجميع الشتات الهارب فى الغرب .

ويحث عن رينان فى كل مكان حتى يصدر أمره بالانسحاب ، ولكنه لم يعثر له على أثر ، وأخذ حفرة بعيدة يقلب فى الجثث الواحدة تلو الأخرى دون جدوى ، وأخيراً سمع صوتاً يتأوه داخل حفرة بعيدة ، فاسرع إليها ليجد رينانا متكوماً على نفسه ممسكاً طرف قدمه بلا حذاء وهو يبكى ، فأقام على رأسه للحظة وهو يقول :

ــ أخيراً ضبطك تبكى يـا رينان الكلب ! أتحـرق أكبادنـا بالمـواعظ وأنت رعديد .

فانتبه الأخير ، ونظر إلى إيڤان فى رعب :

ــ من ؟!. إيڤان ؟

ــ نعم أنا إيڤان . هل ضايقك ظهورى وانت تبكى كما النساء ؟

ــ إنك قاس جداً يا إيڤان .

ــ بل مسكين أنت يا رينان .

ــ دعنا من هذا . كيف الحال فى المواقع الأمامية ؟

ــ وهل يعلم القتال مثل قائد المعركة !.

ــ أنا لست القائد ، إنما رائد لمجموعة صغيرة فحسب .

ــ حسناً يا رائد . إذن لتعلم أن قادتك هربوا بالعربات المدرعة ، وجندك قد

ذبحوا ذبح الشاة .

ـــ وما الحل ؟.

ـــ ليس من اختصاصى هذا الذى تقول .

ـــ كم بقى حياً ؟

ـــ ثلاثون .

ـــ عظيم . يمكننا أن نعود بهم سريعاً .

وما الذى يسكتك حتى الآن يا رينان الحزين . أسرع وإلا فلن تعثر لهم على أثر .

واسرع رينان وايڤان يجمعان أشتات بنى صهيون من الآفاق ، ولكن حدث فى تلك اللحظة ما لم يخطر لهما على بال ، لقد وقع عليهما فى كمين أحكمه لهما طائع النورى ورجاله ، ثم إقتادوهما إلى مقر القيادة المتقدم لرجال الضفاع البشرية ، وفى حين بدا رينان طيعاً أليفاً ، كان إيڤان متمرداً مزعجاً ، لا يكف عن السباب والصراخ بصوت عال ، وحاول أكثر من مرة الإعتداء على رينان وضربه وهو يصيح فيه :

ـــ أوقعنا غباؤك فى الأسر أيها الأحمق .

فعزل النورى بينهما وشدد عليهما الحراسة ونقلهما إلى الخطوط لا ستجوابهما .

دهش المقدم فهمى الترك عندما رأى الضفدع الفاقد ، خفيف الظل طائع النورى بسترته المطاطية والقنبلتين المتدليتين من حزامه ، دهش لرؤيته على رأس رجال الاستكشاف ومعهم كوكبة من رجال الضفادع البشرية المدعمة برجال البحر الأشداء : الذين جاءوا التحطيم أطواف العدو ووصلات معبره المعدنى بساله :

ـــ كيف حال الصيد معك يانورى ؟

ـــ عال .

فالها وقد إنهمك فى استبدال ملابسه المبلولة وهو ينشرها على حبل معلق بين جدارى الخندق ، كان مقطب الجبين ، ولم تفلح الابتسامة التى حاول رسمها على شفتيه أن تخفى هذا العبوس النامى على سحنته التى تخمرت بفعل التواجد تحت الماء المالح طول الليل ، واقترب منه الترك وخلف هارون ندا وسأله فى حيه :

ــ قل لى . ماذا رأيت عند نقطة تسلل الاسرائيلين ؟

ــ لست متأكداً تماماً .

فرشقه بنظرة تندفع منها الشرر :

ــ ومتى إذن ستتأكد يا نورى !. أبعد الحرب أم متى ؟

ــ لا تؤنبنى ، لقد اقتربت ما استطعت من الأطواف ، ودمرنا كل ما وصلت إليه أيدينا .

ــ وما منعك من الاقتراب من منطقة العمل الرئيسية ؟

ــ المدفعية .

ــ مدفعية دبابات العدو ؟

ــ بل مدفعية اللواء بدر ! إن غلالات النار وأقواس اللهب تغطى المنطقة كلها .. كل المنطقة ، كل شبر فيها يشتغل بنيران المدفعية والدبابات .

ــ إننى أريد أن أصل إلى مواقع العدو بأى ثمن .

ــ عليك أن تقتحم الجحيم .

ــ ما العمل إذن ، إن الأمور هكذا تزداد تعقيداً .

ــ وهل مع هذا الرمى الدقيق سيمر منهم أحداً !

ـ بل المعلومات تؤكد وجود دبابات ومظليين عند مطار أبو سلطان ، وقاعدة الصواريخ بها .

وهنا أفرد النورى خريطة ، وأخذ يثرد عليها ما رآه فى كلمات مقتضبة ، مبيناً مواقع إطلاق النيران ، وحركة العدو على جانبى الشط ، ولاحظ الترك أنها الخريطة نفسها التى أعدها بنفسه ، وسره أنه وضع عليها مراكز الإطلاق صحيحة كما أن العدو استعمل مخاضات فى نقاط حددها هو بدقة من قبل ! كما سره النتائج الباهرة التى حققتها فصائل القناصة على الروابى وصاح :

ـــ لقد اتخذوا مواقعاً حسنة ، وامتدت أقدامهم فوق أكتاف العدو .

وطوى الترك الخريطة ثم قال :

ـــ اهبط التل واستمر فى أعمال المراقبة .

ـــ هل نويت الهجوم الليلة .

ـــ بل الآن فى عز الظهر .

ـــ وما الحكمة فى ذلك ؟

ـــ إننا نبحث متسللين . والمنطقة مليئة بالأعشاب والأشجار ومخابىء التلال .

ـــ فأخذ طائع نفساً عميقاً وتمتم :

ـــ إنها مهمة شاقة . سأعاود عمليات الهجوم فى القناة حسب الخطة .

ـــ هذا مهم جداً . عليك بالاتصال بصفة دائمة بالدهان وهارون والسكاكى والشافعى على البر ، لابد من تبادل المعلومات طازجة أولا بأول ، وعليك بإبلاغ ما تراه ، كل ما تراه حتى ولو كان تافهاً . فقد يكون للمعلومة التافهة فى نظرك ، شأن آخر ، ويترتب على معرفتها نتائج خطيرة . حذارى من الاستهتار أو التهاون أو الاستقلال بالرأى ، تشاوروا لتصححوا وتصوبوا ثم سددوا . على بركة الله .

وقال أحمد السكاكى بهدوء واصرار :

ـــ لا عليك يا سيدى المقدم ، لسوف تنطلق إلى المهمة ، إنك بحاجة شديدة إلى النوم ولو قليلاً ، فكم ليلة قضيتها ساهراً !.

وانضم إليه شوقى الدهان :

ـــ هذا صحيح . لابد أن تنال شيئاً من الراحة . لابد من الراحة . هذا مصلحة الجميع . وأجاب فهمى الترك مكابراً :

ـــ لقد نمت . لا تشغلوا أنفسكم بهذه القضية .

ثم سحب القايش وهم بالخروج من الملجأ وهو يحيط به خصره ، ويحكمه بشدة حول وسطه ، ثم يتحسس جراب المسدس بعد أن عدله فوق ردفه . قال :

ـــ من يأتى معنا ؟

خرجوا وراءه ، وكانت الجنود تنتظم فى صفوف لم تستكمل بعد ، وكل واحد يصحح للآخر جاكت الزخيرة والقنابل الذى يرتديه فوق سترته المخضرة اللون ، وكانت السماء ترسل رزازاً خفيفاً ، فضلاً عن الريح الخفيف القارص البرودة التى تفت العضد ، وكان الخندق يقسم أحد التلال الصغيرة ، قسمين ، فوقف الجميع فى الجانب الشرقى منه . ووقف فهمى الترك ـــ الذى خانته الابتسامة ، ولازمه العبوس منذ فقده رضا ـــ وافتقد زملاؤه فيه مرحه وقدرته على رواية القفشة والنكتة ، وكسبوه كقائد جاد ، ومخطط تكتيكى بارع ، وفدائى لا يشق له غبار ، وكان الدهان كلما وجده يخطب فى الجنود قبل الخروج للقتال ، يكتم ضحكة وهو يناوئه فى اعجاب :

ـــ لا يا ولد . مقدام والله ، تربية اللواء بدر !

فكان الترك يغافل الجنود ويشتمه بلهجته الصعيدية المحببة :

ـــ تربية نافعة . أحسن من دهن أبوك الخالى من الاسم .

وكان الدهان قد تخلى عن عمله فى الإشارة مع بدء المعارك ، والتحق بالمشاة ، فكان فهمى الترك يراه يحمل المدفع (البرتا) فيضحك ملء شدقيه مضطجعاً وهو يداعبه :

ـــ إن قدك مبروم كما سورة البرتا من الداخل . أحسن وسيلة يابلدياتى نستعملك طلقة خارقة حارقة ونستريح !

ويزداد ضيق شوقى الدهان ويضرب الرمل بقوة قدمه اليمنى نحو الترك فى ثورة واعتراض ومتهكماً :

ـــ الصعيدى لمّا يفلح ، يجيب لأهله اللعنة .

ويغرق الجميع فى الضحك ، وهكذا كانوا يقضون أوقاتهم فى الراحات وحول القراوانات والتعيينات ، ثم يكتشف الدهان فى النهاية سرقة تعيينه فيقذف قراونته فى وجوههم وهو ثائر :

ـــ بالسم الهارى .

ولكنهم فى النهاية يراضونه ويطعمونه العدس بالجبة ، فيلفظه مغمغماً :

ـــ هذا لايطحنه ضروس البنى آدميين ، يطحنه وابور ظلط !

ثم يدس يده فى مخلاته مخرجاً علبة من علب شركة قها للأغذية المحفوظة ، ويفتحها محاولاً إفراغها فى جوفه وهو يصيح على الملأ :

ـ تحيا قها . النصف ضحكة ..

ولكن النصف ضحكة لم تكتمل ، لقد ظنها عصير جوافة فطلعت فولاً مدمساً !. فبصقها مغتماً وهو يغمغم .

ـ من أبو جبه (يقصد العدس) إلى المدمس يا قلبى لا تحزن .. كله ديناميت ، سريع الانفجار !.

وغرق الجميع فى الضحك

كانوا رفاق السلاح ، جمعهم على حبه ، وأيضا كانت أيام الانتصار وافراز الحلم إلى الواقع ، أما الآن فقد شغلهم حادث التسلل الذى بدأ تافهاً فأمسك به اليهود ، لقد كانوا يمسحون المنطقة طولاً وعرضاً ليعثروا فى النهاية على دبابة فيفتكوا بها ، أو مجموعة من فردين أو ثلاثة من المظليين فيدفنونهم أحياءً . كانت الأخبار تتوالى عن حالات عبور للعدو ، ولكن أحداً لم يعثر لهم على أثر فى الضفة الغربية ، وكان الجحيم الذى أطلقته المدفعية يفرض حصاراً شديداً على الطرفين فى الوصول إلى مياه القناة ، وكانت مياه القناة تندفع كالنوافير بفعل انفجارات قنابل المدفعية والصواريخ مختلطة بأجزاء معدنية محطمة من الأطواف ووصلات الكوبرى ، وكانت الجثث أكثرها للعدو وقليل منها مصرى ممن اندفعوا بغير تروى ، وكان دافعهم الغيظ من هذه الكلاب الضالة التى تسللت وسط الملاحات ، كانوا لا يريدون للمدفعية أن تقضى عليهم حرقاً عن بعد ، بل أن يفتكوا بهم بأيديهم ، فأصابتهم المدفعية التى كانت تعصف بالمياه ومن فوقها عصفاً .

واتخذت فرق الاستكشافات طريقاً وسط الملاحات غير ممهد وغير مطروق ، ووراءهم كانت القناصة فالعاصفة على الأقدام ، فالأرض لا تصلح إلا لقدم يوضع بدقة وعن حرص ، ووصلوا إلى مفترق طرق قريب من أبو سلطان ، كان المطار صامتاً ، يبدو عن بعد بلا حركة ، ليس كالعهد به دائماً ، وكانت الأدغال والغاب البرى يترامى وراءه على امتداد البصر حتى الدفر سوار ، فى تلك اللحظة توقف فهمى الترك فجأة وصمت ثم صاح :

ـــ إنظروا . إن الاسرائيليين يتحركون !

كان من الممكن رؤية أشباح صغيرة لجنود اسرائيليين يجرون ثم يختفون جوار القناة .

وصاح الترك فيمن يليه من القادة :

ـــ بلغوا المدفعية المعاونة فوراً .

واندفع شوقى الدهان إلى أقرب خندق واستعمل التليفون بنفسه بصورة ملحة وعاجلة ، وما هى إلا دقيقتان من القلق وطول الانتظار ، حتى كان الترك ومن معه يستمع إلى صوت المدافع تضرب على الاسرائيليين عند ابو سلطان والدفر سوار من الغرب لأول مرة ومن الشمال ، علاوة على الشرق والجنوب من مدفعية الجيشين الثانى والثالث بعيدة المدى ، كان الضرب كثيفاً وشديداً ومركزاً وسديداً .. هكذا قال المقاتل العظيم هارون ندا الملقب بالباشا لجمال صورته ، ولكن المقاتل المخضرم الترك كان القلق يعصف به ، فمع كل هذا الضرب الشديد ، لم يرد العدو ، ومعنى ذلك أنه يريد أن يتكلم ، أن يفصح عن وجوده ، أن يحدد موقعه ، وكان هذا يغيظه ، إنه لايريد أن يحارب طواحين الهواء ، إنه يريد أن يهجم على مواقع محددة معلومة الموقع والقوة !.

كانوا على مبعدة مرمى حجر من الإسرائيليين ، وكانت هذه المسافة أقل مسافة يمكن الاقتراب إليها ، وأخذت مجموعات الهجوم تأخذ تشكيل الاشتباك السريع والهجوم المباغت ، وكان كل واحد يشد قايش الوسط بشدة فى حزامه ، ويحشوه بالقنابل والزخيرة الإضافية ، ويتأكد من صيانة مدفعه وامتلاء مخلاته تماماً بالزخيرة ، ثم يحكم رباط حذائه (البيادة) برقبته العالية ، كما إنهمك أكثرهم فى حفر خنادق المشاة كنقط إرتكاز ، وبطنوها بأكياس الرمل والصخور وخاصة خنادق الزخيرة ، وفرضوا عليها الحراسة المشددة حتى يعودوا إليها لإعادة التموين والسلاح ، كان التجهيز لمعركة عنيفة وشرسة يجرى على قدم وساق .

وبينما كان فهمى الترك منهمكاً فى محادثة هاتفية مع قائد الجيش وقائد الفرقة ، سمع فجأة ما كان يتهافت إلى سمعه ، فاستأذن من القائد العظيم صائحاً :

ــ آه .. ها هو العدو يتكلم . أخيراً نطق ورد على المدفعية بالمثل .

فصاح فيه اللواء بدر فرحاً ومحذراً :

حذارى أن تندفع فى غير ترو وحذر وعلم أكيد بموضع خطاك ، وحذارى أيضا أن يتأخر الهجوم لحظة عن موعده ، فكلاهما مميت وقاتل .

ــ ربنا يستر يا سيادة اللواء . المولى قادر على أن يملكنا أعناقهم ، عندها سوف أفعل الأعاجيب .

فضحك اللواء بدر ليطمئنه وقال له :

ــ لقد فعلت من قبل يا فهمى .

ــ لا . هذه المرة فعلوا المحذور ، ودخل الذئب إلى مصيدته مختاراً وكنت أظنه أذكى من ذلك .

ــ فى الحروب توقع كل شىء . فالساسة هم الذين يقودون الحروب ، والسياسة غبية كما تعلم ، لعلهم علموا بقرب وقف اطلاق النار فاندفعوا إلى هذه الهوة لمجرد حفظ ماء الوجه .

ــ لسوف نقطع دابرهم ، فلا يبقى لهم وجه ولا ماء . أقسم على ذلك .

ــ معك الله .

وانطلق فهمى الترك إلى المنحدر ، كان يلاحظ وميض الطلقات ، وينصت إلى صوت المدافع ويحسب قوة الانفجارات ، ويستخلص من ذلك قوة مدفعية العدو ، وعدد دباباته ، ومواقعها ومداها ، وليس هناك من يضارعه فى ذلك ، وقد إعتاد رجال المدفعية أن يأخذوا رأيه فى مثل هذه الأحوال ، واخذ يتمتم بهدوء وهو يراقب وينصت :

ــ نعم ٧٥٠٠ ملليمترا .. حسناً قذيفة (س س ١١) صاروخية .. ياه .. لقد غاصت فى الأرض السبخة ، عملت بئراً ضخماً امتلأ بالمياه . هذه قذفات من مدافع

الدبابات المتخندقة .. انبطحوا جميعاً ، إن الضرب من مسافة قريبة جداً . فلتستعد الصفوف الخلفية .

ومال إلى الأمام ، وملأ الجو صفير مخيف ، انفجرت على أثره قنبلة ثقيلة خلف الخندق وقرقعت شجرة عجوز وحيدة لا تبعد كثيراً عن خندق شوقى الدهان ، وكان إلى جواره الضفدع البشرى طائع النورى ، الذى لا يدرى لماذا تذكر على الفور الشيخ العجوز عودة وعنزته ، ولا يدرى لماذا أحس بغصة سرت بين جنبيه كادت تتوقف لها دقات قلبه ، وقفز من مكانه ، وتمنى لو أن هناك فرجة من الوقت حتى يخطف زيادة سريعة إلى عشة الشيخ ليطمئن عليه وعلى عنزته العزيزة الذى روته لبناً لم يذق مثله طازجاً منذ أمد ، وتذكر حفيدة الشيخ فطار قلبه شوقاً ، ولم يفق من خاطرته التى استولت عليه إلا عندما صاح فيه الدهان :

ــ انبطح يا طائع أرضاً وإلا مت ، مالك كالمسطول !

وكانت أجزاء الشجرة العجوزة قد تناثرت أجزاؤها ، وطارت قطع الخشب المتفحمة فوق رءوسهم .

كان النورى يقف على مرتفع صغير وهو يدخن ، وقد برزت رأسه وكتفاه من الخندق ، وأخذت ترتسم على وجهه النظرة الهازئة المستهترة الساهمة ، وابتسم الدهان إبتسامة تجمع بين معانى الاعجاب والسخرية ، يا له من متهور ، وأيضا شجاع غير هياب ، ثم اقترب منه وأشعل لفافة كليوباتراجاعلاً جزوتها مختفية فى كف يده مثل النورى ، وراح يسأله كأنما يكلم نفسه وهو يتمسح فيه بجسده ملاصقة :

ــ نورى .. أو تظن أن الاسرائيليين حقاً قد أقاموا جسراً على القناة ! أو تصدق هذا ؟

وتطلع إلى النورى الذى كان صامتاً كأنما الأمر لا يعنيه فاسترسل قائلا :

ــ أنا لا أتصور هذا مطلقاً ، إنهم يعانون من جراح الأيام الماضية بمعاركها القاسية ..

من أين لهم بالجنود ،، لقد قتلناهم كلهم ، ومن أين لهم بالسلاح .. لقد دمرناه لهم .. يقولون أن الأمريكان وجنوب أفريقيا يقدمون لهم هذا كله . شيء عجيب !

ثم توقف قليلاً ، ثم عاد إلى حديثه :

ـــ ترى متى نبدأ الهجوم ؟. هل تظن أنهم تجحوا فى تحديد مواقع الإسرائيليين ؟

ولكزه فى جنبه ، إنه صامت صمت القبور ، وصاح فيه :

ـــ قل شيئاً . أو تظننى مجنوناً !.

ولم يرد النورى ، ولكنه إلتفت إليه فجأة وسأله فى برود :

ـــ هل تشرب شاياً ساخناً ؟.

ونظر إليه الدهان مشدوهاً ، وهل هذا وقته ؟ ومن أين له بالشاى والسكر والموقد والغلاية وما أشبه ! وظنه يخرف أو اختلق أى شيء يقوله حتى يبتعد عنه . ولم يخرج عن حيرته من أمر النورى ، حتى فوجيء به فوق رأسه بكوز من الصفيح يدفعه إليه ليشرب شاياً ساخناً ، داعبت رائحته النفاذة المحببة إلى النفس خيا شيمه ، التى طال شوقها إليه طازجاً من مدة طويلة ، فالتقطه منه بسرعة وراح يرشف منه رشفات سريعة متلاحقة ، خشية أن يصدر الأمر بالهجوم قبل أن يأتى على بقية الكوز ، وكان النورى قد اختلس شيئاً من تموين العجوز الشيخ عودة أثناء زيارته له الأخيرة ، واحتفظ به لنفسه ، فلما توقفوا على مقربة من مواقع الاسرائيليين ، عمد إلى عمل الشاى على نار موقدة فى أعماق الخندق الداخلية دون أن يحس به أحد !

وانتهت مبارزة المدفعية فجأة كما بدأت فجأة .

وجرى الجنود الاسرائيليين فى خنادق الاتصال المقابلة ، وهم يظهرون بين الحين والحين من خلال ظلالهم وخيالاتهم على التلال . وصاح الترك وهو ينظم حارات هجوم المشاة كلمة واحدة ، ترددت عبر الهواتف إلى جميع القوات .

ـــ هجوم .

وساد السكون لحظة ، وتطاولت أقدار الرجال وهاماتهم عبر الظلال التى تدافعت فوق المنحدر ، فبدوا كسياج غريب صنع من ألواح شامخة ، كانوا يتدافعون عبر ممرات السكون المدفعى إندفاعة شلالات المياه من علٍ ، ثم يختفون عن بعد !.

واستطاع النورى أن ينفذ إلى سيلڤيا فى الخطوط الخلفية الاسرائيلية ، ويستقلا سيارة اسرائيلية للقاء المقدم فهمى الترك بعد إلحاح شديد — لا سلكياً — من سيلڤيا نفسها ، وعندما إلتقيا كان لقاؤهما حاراً حافلاً بالتقدير والمودة الضافية ، قدمت فيه سيلڤيا للترك حافظة الخرائط وتقارير العمليات الخاصة بعاموس وبريميا والاشارات المتبادلة بينهم وبين القيادة الجنوبية الاسرائيلية ثم أجابته عن بعض الأسئلة الهامة . حيث إتضحت مواقع رأس الكوبرى الإسرائيلى عن ذى قبل ، لقد احتلوا مطار الدفرسوار والمنطقة المحيطة بمطار أبو سلطان ، كما دمروا قاعدة صواريخ أبو سلطان فى غارة كثيفة بالطيران وهجوم مركز بثلاث دبابات ، وكانت هنا لك بضع عربات تجر مدافع ثقيلة ١٥٥ مم التى أطلق عليها المصريون مدفع أبو جاموس ، وكان الاسرائيليون ، لا زالوا يجرون عمليات تحصينات ملاجىء لجنودهم وتحصينات مدفعيتهم ، وفيما عدا ذلك لم يكن المرء يجد لهم أثراً ، وكان الجنود يتسلقون العوائق والمرتفعات ، ويتخذون ساتراً أمامهم ليضمنوا مفاجأة العدو ، وكانوا يتوقفون كلما انفجرت قنبلة وينبطحون أرضاً ، ووصلت طلائع جنود الميسرة بقيادة الباشا ، وبدأوا هجومهم مبكراً فى دقائق ، ودوى انفجار تحت أقدامهم ، وسمع الباشا هدير محركات !، وتوقفت دبابة اسرائيلية خارج ملجأها فجأة ، وأخذت تقذف قنابلها ، واحدة بعد الأخرى فى سرعة مخيفة ، وتوارى المهاجمون وراء التل ، وهم الدهان بمواجهة الدبابة فأمسك به الباشا ، فتقدم النورى فأشار إليه أن « كما كنت » ثم صاح وهو يقفز وراء التل :

— أنا لها .. فوراء هذه الدبابة ما وراءها .

واصطفوا أمامه يمنعون قائدهم من المغامرة أمام هذه الدبابة السوبر شيرمان ٤٠٠ ت آى ٥٦ المعدلة ، التى تلفظ الصواريخ المدمرة روك آى كما يتجشأ المرء رزازه ، علاوة على دروعها التى لم تزود بها دبابة من قبل ، وكان على المشاة المصريين أن يتقدموا على مبعدة متر أو مترين فقط حتى يتم ميرها على غير العادة ، واحتكم الباشا إلى الرهان على عمله معدنية ففازبها الباشا الجسور ، واندفع ناحية الدبابة وهو يتقلب على جنبيه متفادياً الفجرز وانفجارات القنابل ، كان يتدحرج بسرعة مندفعاً فى غير وجل نحو المدرعة ، إنه فى هجومه هذا ليس ككل هجوم ، لقد كان فى كل مرة يتقدم جسوراً ليزعج العدو من أمامه ، أما هذه المرة فيشعر أن العدو قد تجاوز حدوده ، ودخل موضعاً لا يجوز أن يطأه بقدمه النجسة ، كان كل ذرة فى جسده تنتفض من الغيظ ، إن كل الهزائم التى تجرعها العدو ، وكل الضربات الماحقة المدمرة التى اقتلعت جزوره من سيناء كاملة ، فكيف لها أن تخترق ؟ إن وراء هذه العملية سر دفين !، وهذا السر هو أمريكا ، وعلينا أن نواجهها مهما كان الثمن !

وإقترب حتى لم يعد أمامه إلا أن يصطدم بها ، ودفن مؤخره مدفعه (آر . بى . جى) وجذب العتلة وقد وضع نظارة الميدان نصب عينيه حتى أصبحت الدبابة فى مرمى مدفعه المؤثر ، فضغط على الزناد ، ومرت لحظات طويلة ، قبل أن ينفجر فيها الصاروخ وتنقلب المدرعة على جنبها بشكلها الكئيب ، وقد اشتعلت فيها النيران ، ورغم كور النار التى تنقذف من الدبابة فى كل إتجاه ، بعد أن إنفجرت الزخيرة بها ، وتدحرج القائد الفدائى وراء حجر بسرعة ليكتشف ملجأ للأفراد على بعد أمتار ، حسناً ، إنهم المظليون الاسرائيليون ! وبسرعة نزع قنبلة يدوية من حزامه ، ولقمها بفمه ليزيح عنها فتيل الأمان ثم قذف بها داخل الملجأ وأخفى رأسه للحظة ، ولسوء الحظ مضت اللحظات منتظراً الانفجار دون جدوى !، وتمتم فى غيظ وهو ينظر إلى موضع القذف :

— خيبت ! لا بأس ، لنجرب الثانية .

وجهز القنبلة الثانية وكبر ثم قذف ، وكتم أنفاسه ، ومرت لحظة وأخرى ، وجاء الانفجار أخيراً ، فاهتز له قلبه ، إنه انفجار عنيف يصم الآذان ، وأثار

عاصفة من الغبار والنار ، ومن خلال هذه الزوبعة ، وجد أشباحاً تجرى هلعة وهم يتعثرون ، إذن فقد خرجت الجرذان من شقوتها ! ولشد دهشته أن وجد بقية القوة المصرية تبادر بهجوم كاسح ليغطوا إنسحاب قائدهم ، كان شوقى الدهان دائماً وراءه ، عينه لا تفارقه أبداً ، والتحموا بالاسرائيليين وهم فى حالة ذعر ، وامسكوا بهم يا نُسون خائفون ، وانقلب المصريون إلى مصارعون محترفون يوقعون بخصومهم أرضا ثم يذبحونهم ذبح النعاج ، وسال الدم أنهراً وصرخ شوقى الدهان فى فزع :

ـــ كفوا أيديكم ، اسحبوهم أسرى إلى الخطوط الخلفية .

لقد لاحظ نائب القائد ، أنهم ـــ ويا للمفاجأة ـــ أمام صبية لم يتعد غالبيتهم الخامسة عشر أو السادسة عشر على أكثر تقدير ، ورأى الجنود أنه لا وقت للارتداد بهم ، لقد دخلوا أرضاً حراماً عليهم واستحل دمهم ، كانوا صبية دفعت بهم القيادة الاسرائيلية بعد الخسائر البشرية التى تاكلت فيها قواتهم الأساسية المدربة عصب الحياة العسكرية فى جيش تسهال ، ولم يعد يبق إلا هؤلاء .. حديثو السن ، قليلو الخبرة ، يتدافعون امام الجنود المصريين كما يتدافع التلاميذ امام معلمهم ، كلهم خوف وهلع ، وكانت هذه المجموعة قد انقطع الاتصال بينهم وبين وحدتهم ، وكانوا يجهلون سير المعركة ، وقد اقتربوا ـــ أى القوات المصرية ـــ من مجموعة ملاجىء انتهت الحفارات الاسرائيلية من حفرها أثناء الليل ، واصبح فيها تحت رحمتهم ، ولكنهم رغبوا فى معرفة الحوادث الجديدة والمغريبة فى البقعة وما حولها ، قبل أن يتقدموا ، صحيح أنهم لم تصادفهم مقاومة ، ولكن الرجال كانت أعصابهم متوترة .

كانت هناك دبابة ظهرت من ملجأ وراء الرجال ، وضربت من مخبأها فاستشهد ثلاثة رجال من أول دفعة نيران ، ولكن الترك كان لها بالمرصاد ، ومن موقعه كان جاهزاً بصاروخه اللولبى فأطاح ببرج المجنزة الإسرائيلية فدوت الانفجارات وتعالت وغطت على سائر العمليات الأخرى ، ووسط النيران المستعرة والدخان المضمخ برائحة الحديد المحترق ، كان هناك ثلاثة اسرائيليون يزحفون

كما تزحف القطط ، واستكنوا بأحد الحفر محترقة أطرافهم فى انتظار ما يحدث ، إنهم بلا شك من أطقم الدبابة الاسرائيلية ، وقفز الترك فى خفة طائراً فى الهواء قبل أن يفلتوا من يديه ، وانتبهوا له فى آخر لحظة فأطلق عليهم مسدسه الذى كان جاهزاً للضرب فأصاب إثنين منهم واستسلم الثالث فاستجوبه بسرعة ، لكنه لم يفهم منه سوى كلمة واحدة مما نطق به وهى « الأوغدا » وبالأشارة عرف أنـه ضمن هذه الفرقة التى وصلت على التو عبر القناة منذ ساعة واحدة فقط ، كما أفادت إشارة لا سلكية عاجلة من سيلقّيا بأن فرقتين جديدتين من المدرعات قد وصلت على التو عبر القناة إلى البر الشرقى ، فنفخ الترك متعجباً وهو يتمتم خارجاً إلى قواته :

ــ تباً لهؤلاء الأغبياء ، كيف يدفعون بكل هذه القـوات داخل مصيـدة لن يخرجوا منها ؟. ماذا يبغون بحق الشيطان غير الوبال والخسران !

* * *

الفصل العاشر

أشلاؤها بالدبابات المعطوبة والعربات المترنحة على صفحة المياة وعلى جانبى القناة والبحيرات تثير معين الأسى والحزن فبصق دانى من فمه طينا مدمماً ، وقفز من مكانه غير عابىء بإصابته خوفاً على حياته وصاح فى تابعيه مرعوباً :

- هيا نبتعد عن هذا المكان الكئيب .

- إلى أين ياسيدى ؟ إن كل شى من حولنا يحترق ! .

- إلى الجحيم أيها الغبى بريميا .

واستقلوا دبابة . واندفعوا إلى الاتجاه العكسى متوارياً خلف الكثبان الرملية ، وراح يصدر أوامره لتابعيه بالتباعد والانتشار فى اتجاهات متباعدة ، وفجأه جاءه صوت عاموس منزعجاً وهو يصيح :

-لقد اصطدمت بقاعدة صواريخ سام ياسيدى القائد هل أهرب ؟

- إضربها ياعاموس . إضربها ولا تخف إنها فرصة لا تعوض يا عزيزى عاموس .

- أخشى أن أتعرض لشل حركتى من دفاعاتها .

- توارى ياعاموس واضرب . هل أعلمك ياعاموس . وسأدعمك بدبابتين .

- سأحاول ياسيدى .

فقالت له لندا بعد إنتهاء المكالمة :

- هل جُننت ياعاموس ؟ . هل تنوى حقا أن تصطدم بالمصريين أيها الأحمق ! .

- إهدئى ياعزيزتى لندا . فما أنا إلا مناور مثل الآخرين .

ولكنه فوجى بنيران المدافعين عن القاعدة ، ففتح عليهم النار وهو يتراجع إلى الخلف وإذا بدبابتين اسرائيليتين تصطدمان بمؤخرة القاعدة أثناء هروبهما من مطاردة رجال الترك ، ففتحوا عليها النيران من الخلف وأصابوا قواذف الصواريخ بإصابات مباشرة ، ولما تنبه اهما رجال القاعدة ظنوه هجوماً كبيراً ، فاستداروا ليشتبكوا بهما ، ولكن الدبابتين صارت أربعاً حاصروا القاعدة وحاصروا رجالهما

ــ لكنها الحرب ياسيدى الجنرال وأنت قائدها ، وما أنا إلا حارس سابق لك .

ــ لقد عبرت بمعجزة ، ورأيت بأم عينى أرواح الاسرائيلين تزهق فى الأعماق حرقاً ، ومن مائتى دبابة لم يمر منها سوى العشر اليتامى تحت إمرتى ومن خمسمائة مظلى لم يبق سوى ثلاثين رجلاً .. ولولا الامدادات التى هلك معظمها ووصل أقلها ما بقى لنا ظل هنا .. فهل هذا ظرف يتطلب مثلى ! . ولكن الأقدار شاءت أن يتعرض الملجأ لغارة من طائرة ميج ١٧ مصرية أسقطت قنابلها على مقربة من مدخله فردمه بالتراب وكادوا يموتون بحثاً عن منفذ وفى غمرة الظلمة وكمية التراب والطين التى دخلت أنوفهم ، اشتبكوا وتلاكموا وتشاتموا حتى جذب دانى مسدسه من غمده وأطلقه بينهم فانخلعت أرواحهم من أبدانها ولم يصدقوا أنهم لازالوا أحياءوأن الطلق لم يكن إنفجاراً مصرياً داخل الملجأ ، وتحسس كل منهم أبعاضه وزحف منهزماً طاوياً أحزانه ليهيل التراب من الفتحة ليجد له منفذاً ، ويبدوا أن جنود الحراسة الخاصة بالملجأ قد عادوا من مخابئهم بعد إنتهاء الغارة ، واندفعوا يزيلون التراب من فتحة الملجأ وينقذون قا دتهم معفرو الوجوه .. فصاح دانى منزعجاً :

ــ آتونى بالطبيب والمضمد ، وانقلونى إلى آخر .. لقد تشاءمت من هذا الملجأ ثم صاح فى بريميا آمراً بلهجة عدائية :

ـ وأنت يابريميا ، أيها الخنزير .. يامن رقيتك من نفر وسمنتك وجعلت لك شأناً .. قد جاء وقت لنرى منك هذا النفع .

وفاجأتهم دانة مدفع فتفاداها بريميا إلى حفرة قريبة وارتمى فوقها :لتمرق من فوقهم بسنتيمترات وأهالت عليهم أكواماً من التراب ، وبعد مدة قاموا ينفضون عنهم التراب ودانى لايكف عن سبابهم جميعاً وإندفع إلى الماء ليتخلص من التراب فإذا بنوافير المياه المندفعة كالرشاشات من أثر تدفق المقذوفات الصاروخية ودانات المدفعية وقنابل الأعماق كا لمطر من كل اتجاه تغرقه فاحتمى بدبابة محطمة ونظر حوله فإذا الماء والشواطى والساحة حولهما تحولت إلى مقبرة للجيش الإسرائيلى أفراده ومعداته ، كانت الجثث المحترقة فى أكفانها الترابية المائلة للخضرة مختلطة

أشلاؤها بالدبابات المعطوبة والعربات المترنحة على صفحة المياة وعلى جانبى القناة والبحيرات تثير معين الأسى والحزن فبصق دانى من فمه طينا مدمماً ، وقفز من مكانه غير عابىء بإصابته خوفاً على حياته وصاح فى تابعيه مرعوباً :

ـ هيا نبتعد عن هذا المكان الكئيب .

ـ إلى أين ياسيدى ؟ إن كل شى من حولنا يحترق ! .

ـ إلى الجحيم أيها الغبى بريميا .

واستقلوا دبابة . واندفعوا إلى الاتجاه العكسى متوارياً خلف الكثبان الرملية ، وراح يصدر أوامره لتابعيه بالتباعد والانتشار فى اتجاهات متباعدة ، وفجأه جاءه صوت عاموس منزعجاً وهو يصيح :

ـ لقد اصطدمت بقاعدة صواريخ سام ياسيدى القائد هل أهرب ؟

ـ إضربها ياعاموس . إضربها ولا تخف إنها فرصة لا تعوض يا عزيزى عاموس .

ـ أخشى أن أتعرض لشل حركتى من دفاعاتها .

ـ توارى ياعاموس واضرب . هل أعلمك ياعاموس . وسأدعمك بدبابتين .

ـ سأحاول ياسيدى .

فقالت له لندا بعد إنتهاء المكالمة :

ـ هل جُننت ياعاموس ؟ . هل تنوى حقا أن تصطدم بالمصريين أيها الأحمق ! .

ـ إهدئى ياعزيزتى لندا . فما أنا إلا مناور مثل الآخرين .

ولكنه فوجى بنيران المدافعين عن القاعدة ، ففتح عليهم النار وهو يتراجع إلى الخلف وإذا بدبابتين اسرائيليتين تصطدمان بمؤخرة القاعدة أثناء هروبهما من مطاردة رجال الترك ، ففتحوا عليها النيران من الخلف وأصابوا قواذف الصواريخ بإصابات مباشرة ، ولما تنبه اهما رجال القاعدة ظنوه هجوماً كبيراً ، فاستداروا ليشتبكوا بهما ، ولكن الدبابتين صارت أربعاً حاصروا القاعدة وحاصروا رجالها

وفتحوا عليهم النيران من كل اتجاه حتى دمروها تماماً وأسكتوا مدافعها ، ولم يجد الرجال الذين أُخذوا على غـرة ، سوى أن يفجـروا أنفسهم مندفعـين على الدبابات فاشتعلت فيها النار وتفجرت واحدة وعطبت أخرى ونجت إثنتان ، ويبدو أن دبابتين آخرتين هاربتين قد عثرتا أثناء تراجعهما على وحدة شئون إدارية ، ففتحنا عليها النيران ظنا منهما بأنها قوة مسلحة ، ولكن أفراد الوحدة دافعت عن نفسها بما لديها من أسلحة خفيفة ، ولكن قنابل (تاو) و(لو) ذات قوة التفجير الضخمـة التى توجـه عن بعض بالأشعـة فوق الحمـراء ، قضت على القـاعدة قضاءبشعاً واستشهد الرجال وهم يحتضنون أسلحتهم محترقة . وصرخ عاموس فرحاً فى جهاز اللاسلكى :

ـ سيدى الجنرال دانى . لقد وجدت لك مكاناً أمينا للاستشفاء .

ـ إلىّ به أيها الصديق عاموس . حدد موقعك .

ـ مسيرة كيلومترات أربع قرب فايد .

فقفز دانى قفزة صرخ من جراء ألم جرحه صرخه مدوية ، ولكنه من عظم المفاجأة صاح فيه !

ـــ ماذا تقول ؟

ـــ أحقاً يا عاموس أنك بالقرب من الاسماعيلية !.

ـــ لقد قضينا على عدة قواعد هنا .

ـــ أليست أمامك أية مقاومة .

ـــ كلا يا سيدى ، ليست هنا قواعد من المشاة المزعجين ، وهذا هو المهم .

ـــ إنتظر .. سأجمع كل ما أجده وأوافيك حالاً .

وصاح فى يريميا وديفيد يهونتان ، وضابط إتصالاته عامى :

ـــ إتصلوا بالقيادة وقولوا لهم أننى نجحت ، قولوا لهم أن الجنرال دانى أول من عبر إلى أفريقيا ، وبشرهم بأننى سأحتل أكبر مدن القناة .. الاسماعيلية ،

قولوا لهم هذا على لسانى ، فأنا أعظم وأكبر من أن أخاطب هؤلاء الجهلة فى القيادة العامة الذين تعودوا على تجرع كئوس الهوان قاعدين .. سأحقق لهم أول نصر فى هذه الحرب الطاحنة التى عرت سراويلهم ... آه .. و

فقال له عامى فى ذلة وخوف :

ـــ هل هناك شىء آخر تقوله يا سيدى ؟

ـــ نعم ، لا تنسى أن ترسل لهذا الأحمق هاكوهين بأن يدفع بقواته إلى هنا لتدعيمنا . وبلغهم بضرورة تواجد غطاء جوى كثيف طول الوقت : إنتهى .

ـــ سأفعل يا سيدى .

وانطلق بدبابته يجمع فى طريقه شتات الدبابات والمدرعات الاسرائيلية ، كما التقط شتات المظليين من الآفاق ، وهو يمنيهم بالامدادات القادمة من فيض كرم العم سام ، وجعل خط سيره متعرجاً عبر الأحراش الكثيفة على شط القناة ، وأحس بنشاط جوى فوقه فأطل برأسه ليجد طائرتى ، (توبو ١٦) مصرية تحوم حول القول ، فقفز إلى الدغل وقفز من معه وكذا فعل كل من فى الدبابات بأمر منـه ، وسكنت القوة تماماً حتى مرت الطائرتان نحو الشرق ، وما لبث أن تبعتها عدة أسراب من الميج (١٧) القاذفة تحرسها عدة أسراب من طـائرات الميـج (٢١) المقاتلة وطائرات الانتنوف حاملة الجنود (وسخوى ٧) القاذفة ، فتبعها دانى بنظرة حائرة وهو يعاود ركوب دبابته متابعاً سيره ، فإذا الأفق البعيد يلتهب فجأة بدوامات أرجوانية تتقاذف فى جوفه كرات اللهب المشتعلة التى تنفجر ويحـدث إنفجارها دوياً مخيفاً يعقبه دخاناً تلفظه كما تلفظ جهنم السنة نيرانها ، واسودت السحب من فعل المحروقات ، وكانت هنالك فى كل ثانية ذيل من اللهب يمتد وراء أحد الطائرات وهى تهوى نحو الأرض كالصاروخ بعد إصابتها ثم يعقبها انفجار كهزيم الرعد عند إصطدامها بالأرض .. إنها معركه جوية شرسة ولا شك ، تتلوى فيها الطائرات تحاول كـل منها الامسـاك بذيـل الأخرى المعـادية أو ركـوبها ، مستخدمين كل ما تفقت عنه عبقرية القتال الجوى من أساليب ، مـع استغلال المميزات التى يتمتع بها كل جانب إلى أقصى حد . وعلى عكس الموقف فوجىء عامى بقائده يضحك فقال :

ـــ أضحكتنى معك يا سيدى . إنه وقت البكاء والأحزان ولا شك .

ـــ يا غبى .. ألا ترى معى أن هاكوهين الآن فى موقف صعب . إن المصريين يشوون جلده ويضربونه على عجيزته .. وأعتقد أنه لن يفلت من ايديهم يحاصرونه حصاراً سوف يهلكه ومن معه .

ـــ أليسوا جنودنا يا سيدى ؟

ـــ أنا لا أشمت يا غبى ولكن أثبت للأغبياء فى القيادة أنه ليس أكفأ منى .

ودق اللاسلكى ، فأسرع عامى يناوله السماعه هامساً :

ـــ القيادة معك على الخط .

القيادة : تهانينا لعبورك إلى افريقيا .

دانى : لقد نجحت ، وعليكم أن تدعمونى بتسعه ألوية مدرعة على الأقل عاجلاً .

القيادة : هذا كثير فالمحافظة على رأس الكوبرى يكلفنا خسائر لا يمكن تعويضها .

دانى : إننى آخذ طريقى لاحتلال الاسماعيلية .

القيادة : أعتقد أن هذا يحدث دوياً لا بأس به .. نحن فى أمس الحاجة إليه ، ولكن ما لدينا لا يكفى لاختراق دفاعات هذه المدينة المحصنة .

دانى : أنا لها .. وعليك أن تدفع بقوات هاكوهين تحت قيادتى فأنا أولى .

القيادة : ما رأيك فى السويس . إنها أهم وأسهل وأقرب .

دانى: أنا مصّر على رأيى ، فالطريق أمامى مفتوحاً أدمر كل ما يعترضنى .

القيادة : معارك الشرق شرسه وتحتاج الى تدعيم حتى لا تحاصر ويستمر الإمداد :

دانى : إنكم تتآمرون علىّ . ألا تعلمون أننى أول بنى أسرائيل الذى يعبر البحر إلى أرض الخروج ليأخذ بثأر النبى موسى .

القيادة : أعتقد أنك جنرالاً ولست حاخاماً .

دانى : وأعتقد أنك تترى نكته سخيفة .

القيادة : لا بد أن تخضع للأوامر .

داني : إنكم تتآمرون على جيش تسهال كله . لن استمع إلا لوزير الحرب فقط بعد ذلك . آتنى به نحتكم إليه .

القيادة : وماذا سنقول له . هل تروى له هزائمك واندحارك المتكرر أمام الفرقة ١٦ ، وفشلك فى احتلال المزرعة الصينية .

داني : كف عن هذا أرجوك فأنت لم تقاتل هؤلاء المصريين ولم تتعرض لمشاتهم . لقد ذقت أمامهم الأمرين . ولن يفلح أمامهم أحد غيرى .

القيادة : إن لم تحدد مطالبك فى اعتدال فلسوف نعزلك .

داني : (غاضبا) بل هذا ما تسوله لكم نفوسكم الخبيثة ، هيهات لكم .

ورمى جهاز الأرسال غاضباً وهو يتمتم .

ــ سفلة جهلاء .. بل كلهم كلاب .

وبصق فالتصقت بوجه عامى ، فنفر الأخير وهو يمسح الوصمة من وجهه وقال له :

ــ تنبه يا سيدى أننى الذى أمامك وليس شمعون ..

ــ لعنة الله عليكما .

ولكز السائق يحثه على السرعة بأقصى ما يمكن بين الدغل والبوص على الشط ، بينما إنتشرت الدبابات بين الكثبان تنتقل بينها قفزاً حتى لا ينكشف أمرها ، وما من شك أن رجال المقدم فهمى الترك كانوا يقتفون أثرهم ، وانتشر الكشافون فى كل مكان بقيادة أحمد السكاكى ، وكان فهمى الترك على إتصال مستمر بسيلفيا ، وقد حددت له مجموعه دبابات عاموس ولندا أها ون ، فقرر أن يهاجمها ، ولكنه قرر أن يسحب سيلفيا قبل أن يبدأ العمليات ، فأرسل فى طلبها النورى بعد أن تسللت هى إلى مكان حدده لها الترك حيث إلتقاطها وعاد على متن عربه جيب ، فاستقبلها الترك بحرارة وكاد يقبلها لولا أن الظرف غير مناسب ، وكانت سيلفيا قد إنجذبت إليه بكل مشاعرها وقررت أن تصحبه فى معاركه أينما ذهب . وعند ضواحى (سرابيوم) فى الطريق إلى الاسماعيلية عثروا على جثث بعض القرويين وقد أحرقت نصف إحراق ، بعد أن مُثل بها ، ثم رصو بعضها فوق بعض ، وفى مؤخرة كل رأس ثقب رصاصة ، وقال بعض من بقى منهم أحياء أن الإسرائيليين قد أطلقوا عليهم النار بعد أن أمروهم بأن يستلقوا

على وجوههم ، كما أمروا بعضهم .. نساء ورجالاً بأن يخلعوا ثيابهم عرايا ، ولما لم يقبلوا هذا عذبوهم قبل أن يضموهم إلى الأخرين ويصوبون على رؤسهم الرصاص من الخلف ولما تعبوا حصدوا من بقى بالرشاشات وسط جنودهم الذين كانوا يعاقرون الخمر فوق ابراج دباباتهم فى استرخاء .. كانت هناك على طول مدى البصر أبقاراً وحيوانات فى كل اتجاه وسط المزارع تبحث عن اصحابها الذين ماتوا غدراً .. كان منظراً بشعاً يدعو إلى الاكتئاب والحزن العميق ، واشفقت سيلقيا على فهمى الترك ، لقد كان يعض على شفتيه حتى دميتا ، إن شيئا ثقيلاً قاتماً يأخذ بخناقه ، ويكز على حلقومه ، وكأن صرخة كراهية غير إنسانية وحنق وموجدة لا تنطفأ لها جذوة تريد أن تخرج من حلقه ، وقد ابتلعها كما يبتلع الدم . وخفض رأسه . فأمسكت سيلقيا بزراعه إشفاقاً ، فقال وهو يحترق :

ــ هل هذه أخلاق بشر ؟

ــ ندمت يوماً ، عرفتهم فيه ، لا يلًد فى عداوته غير ضعيف أو وضيع .

ــ هذا قدرنا .

كانت هنالك على البعد الكثير من القرويين يحملون ما خف من الاثاث والحوائج على مناكبهم والقرويات على رءوسهن سلال الخبز والفاكهه يحملن أطفالهن على أذرعهن ، وخلفهن الحبال ممتدة بالبهائم والماشية ، يهرعون فى سباق مع البارود والرصاص المتساقط ودانات المدفعية التى تدوى فى الأنحاء والصواريخ التى ترف فى الأجواء وتغطى كل شبر لتدمر خطوط الإمدادات الاسرائيلية على البر الغربى .. والحقيقة فإن هؤلاء قد أخذوا جهداً كبيراً من رجال المقدم الترك ، وكثير من الوقت فى تأمين هؤلاء المدنيين فقد بدوا أكثر تماسكا كما لو تعودوا على مثل هذه المعارك والنوازل ، وكان الكهول منهم يطلبون السلاح لمقاتلة هؤلاء العاهرون والعاهرات وتجمع معظمهم للاشتراك فى أعمال الدفاع المدنى وإطفاء الحرائق ومواجهة عمليات التسلل الفردى للعدو وحمل الماء وصناديق الغذاء وغيرها من أعمال الأمن الوقائى الضرورى لتامين المناطق التى تتعرض للقصف وأعمال القتال .

وأفرد الترك خريطة من جيب سترته ، وأخذ يحدد المواقع المصـرية ونقط السير الاسرائيلية ، ومواقع الاقتراب ، وحارات المدفعية التى صنعت مقذوفاتها غلالات كثيفة من النيران حاصرت الاسرائليين وأعاقت تقدمهم وأعطبت الكثير من مركباتهم وحرمتهم من حرية المناورة أو الخروج عن دروعهم لأخذ أى قسط من الراحة ، كما كانت مقدمات طوابيرهم المدرعة مرتبكة فى تخطيها حقول الألغام ، فتقهقر إلى المزارع ، وقد تناثرت على جانبى طريق القناة الضيق بعض الآليات المعطبة ، فظلت الدبابات المحترقة أمام المرتفع ترسل دخانـاً به رائحـة الصلب المحترق ، وكذا حاملات الجنود المدرعة والسيارات المحطمة . وكانت المنطقة ترزخ تحت وطأت القذف المتواصل من الغارات الجوية الشرسه من كلا الجانبين ، وفى أعقاب القصف كانت هنالك دائماً ضبابة سوداء محترقة تخيم على سماء المكان كله .

بعدها اتصل الترك بنائبه الباشا ، فعلم أنه جاهز للهجوم فوراً ، محدد لهم مناطق الاقتراب منسقاً بينهم وبين حارات المدفعية ، ثم أجرى إتصالاً سريعـاً بالشرق ، حيث جاءه صوت اللواء بدر صافياً مليئاً بالثقة وهو يسأله :

ـــ أين أنت يا فهمى ؟ نصف النهار يمر كاملاً دون أن أسمع صوتك !

ـــ إننى أتابع حركة الاسرائليين ، وأحاول أن أجرهم إلى منطقة طوسون حيث يصبحون تحت تأثير مباشر للقذف المدفعى والصاروخى لنا فى الشرق ، وقواتنا من الغرب .

ـــ أبارك لكم جهدكم وتضحياتكم . وسوف ندعمكم حالاً بفرقة مدرعه .

ـــ هذا ضرورى جداً لأنهاء هذا الوضع الشاذ للعدو .

ـــ عاود الاتصال عند كل خطوة . وتابع تنفيذ خطة « حصن النسر »

ـــ ستعيق تقدمهم حتى يتم حشد المدرعات .

ـــ إن أرتالها بالفعل على مسافة ساعتـين منكم . سنتصل بعـد للتنسيق .

وعندما إنتهت المكالمة ، سارنى اتجاه سرابيوم حيث عقد اجتماعه الأخير مع قواده الاصاغر ، حيث تخير كل منهم موضعاً حسناً لركوب العود ، وأخذ القناصة هيئات

مـرتفعة لتصيـد أهدافهم المنتقـاة ، وقبل آخـر ضـوء ظهـرت بعض دبـابـات الاستكشاف للعدو وراحت تطلق دفعات من رشاشتها لجس النبض ، وكتم الرجال أنفاسهم ، وساد السكون لحظة ، وتقاطرت طوابير المدرعات الاسرائيلية تليهـا العربات المجنـزرة وحامـلات الجنود المظليـين ثم وحدات الإلحـاق من الشئون الادارية والطبية ، وكانت المواقع المصرية قد تعرضت لثلاث ليالى متواليه لقصف جوى متواصل ، فظنت القوة المهاجمة أن الطريق خالياً ، فاندفعت تراود قائدها دانى الأحلام الوردية بدخول المدينة الجميلة ذات الحـدائق الزاهـرة والسمعة العالمية العريضة ، فرفع جهاز الارسال وصاح فى رجل المعلومات بدبابة المقدمة بفراغ صبر :

ـ ألم تظهر بعد حدود المدينة ؟ .

ـ لم يعد أمامنا ياسيدى سوى البحيرات المرة الصغرى .

ـ حظاً سعيدا هناك .

ورفع غطاء البرج ليطل على بانـوراما البحيـرات وماحـولها من الخضـرة الممتدة ، ومايدرى إلا وطلقة ترف فوق رأسه ، ولم تكن لتخطأه لولا أن إختفى بسرعة وأحكم غطاء البرج وراءه وهو يحث السائق على زيادة السرعة وقائد الطاقم على إطلاق صواريخه ومدافعه الرشاشة فى كل إتجاه ، كما أصدر الأمر نفسـه لسائر الدبابات الأخرى التى تعرضت لهجوم صاعق من حملة الصواريخ وقنابل الثراميت ، وإشتد عليها الضرب من المدفعية بعيدة المدى ، وأمام شدة القصف قرر دانى أن يتراجع ، ولكنه خشى من المشاة الذين كانوا يتقافزون بين الدبابات فيرجمونها ثم يسرعون بالاختفاء بين الاشجار والمزارع وبساتين الفاكهة الممتدة على طول الطريق

وصاح دانى فى ديفيد يهونتان قائد المظليين :

ـ أين أنت ياعزيزى ديفيد . هل تبقى وحدك فى المؤخرة وتتركنى لأموت ! .

ـ بـل أنت ياسيـدى القائـد الذى تـريد أن تكـون أول الداخلـين لمدينـة الإسماعلية .

ــ هل هذا وقت جدال ! . أين المظليون ؟ . إدفــع بهم حالاً لا نقـاذنا من المشاة .

ــ لقد أمرتهم بالفعل ياسيدى .

وتحولت المنطقة إلى مجزره بشرية ، ففى الوقت الذى جددت فيه المدفعيـة إقامة المدرعات الاسرائيلية ومنعتها من التقدم أو التراجع وحرمتها من المناورة ، قام المشاة المدرعون بعمليات فدائية هـجوميـة على أعـلى مستوى من الجسـارة والإقدام فى ضربها مباشرة بصواريخ الكتف (ستريللا وال آر بى جى) ومدافع الهاون والقنابل الحارقة واعتلوا أبراجها ودمروا من بداخلها ، فى حين اشتراك رجال الصاعقة المدربـون فى قتال دامى بـالسلاح الأبيض مـع المظليين أتبـاع يهونتان ، فسال الدم أنهراً ، واحمر الطين ، وكانت هبة عنترية تبعثرت على إثرها سرايا المظليين الاسرائيلين ، ليتصيدها رجال المقـدم هارون (البـاشا) حملـة البنادك الكلانشكوف ذات المنظار ، فتناثرت جثثهم

فحاول يهونتان تجميع بقاياهم والإنسحاب ، ولكن القدر لم يكن رءوفاً بهم ، إذ فوجئوا بأرتال متتالية كالأمواج تهاجمهم من رجال العاصفة وتوقع بمن بقى منهم ، فاستنجد القائد الاسرائيلى يهونتان بقائده ليدفع بالمدرعـات لنقل بقـايا المظليين وجرحاهم ، ولكن القائد المذعور لم يرد عليه ، لقد وجد أمامه ـ فى حمى المعركة ـ طريقاً ترابياً إلى الغرب يبعد عن المعركة ، فدفع بدباباته إليه وقد فتح نيرانها وأطلق صواريخه الفتاكة على نحو عشوائى للارهاب ، فاهتزت الصخور القريبة واحترقت الأشجار ، وظل كذلك حتى أوى إلى مزرعة موز قريبة ، ثم رفع جهاز اللاسلكى ليتصل بنائبه السابق آمون الذى قاد فرقـة مدرعـة أخرى إلى الجنوب فى اتجاه السويس لاحتلالها .. وسأله عن أحواله ، فجاءه صوته حزينا :

ــ إن المقاومة أمامى شديدة ، وكذلك الكولونيل اسحق ، ولكننا نتقدم رغم كل شىء ، بفضل الصواريخ الأمريكية الجديدة ، التى تحدث أثراً تدميرياً هائلاً فى مبانى القرى التى امر بها ، فايد وأبو سلطان وجبلاية الفار وجبلاية السيد هاشم والعمدة .

ــ ونسبة الخسائر ؟ .

ــ لأول مرة تكاد تكون متساوية .

ــ ما أخبار المشاة ؟ . إننى استعد للهجوم الرئيسى من الوسط .

ــ هذا أفضل وقت فمعظم القوات المدرعة المصرية تحارب معركتها فى الشرق ، إن الطريق أمامك الآن يكاد يكون خالياً .

ــ حسناً سأبدأ الآن ، وسأوافيك بالتطورات أولاً بأول ، على أن توافينى حال اقتحامك المدينة . إنها على مايبدو خالية من أى قوة .

ــ شالوم . أتمنى حظاً أوفر هذه المرة لك فى الإسماعيلية .

وتقدم آمنون لأول مرة ممسكاً بقيادة قواته منذ أن منى بالهزيمة الكبرى منذ أيام القرية فى مواجهة الطاليا ، فاندفع بقوة وعلت الأتربة والرمال سماء المنطقة ، وغطت الدبابات التى زادت عن الثلثمائة دبابة المنطقة ، كانت نيران المدرعات الإسرائيلية تهدر وحدها فى الميدان فتصور أن المنطقة خالية ، خصوصاً بعد هجمات الميمنة والميسرة ، وتديرها للدبابات المصرية والمواقع المصرية التى لم تكن فى واقع الأمر سوى دبابات ومواقع هيكلية مموهة جيداً ومذودة بدبابات اسرائيلية حقيقية معطوبة لتكون أهدافاً تغرى العدو بالتقدم ، كما كان بعض الأفراد ، الذين أمروا بتركها فوراً حال تعرضها للقصف لتوهم العدو بأنها مواقع حقيقية ، ولهذا ففى الوقت الذى ظن العدو أن القوات المصرية ابتلعت الطعم ، لم يدر أنه قد أدخل نفسه فى أعماق جب قتل سحيق لا منجاة منه ، أعده له القائد المصرى للسويس فى صبر ودهاء . لهذا لم يكن غريباً أن يقفز العقيد همام الذى تولى أمانة الدفاع عن المدينة من موضع قيادته لعربته المدرعة ليقول لمساعده المقدم حسن عمار قائد المدفعية فى حضور محافظ المدينة وواعظ مسجد الشهداء مقر القيادة للمدينة :

ــ الآن أرنى شطارتك يابطل . عليك أن تعد نفسك لتكون فى شرف استقبالهم عند حى الأربعين .

وربت على كتفه مودعاً مسترسلاً :

ــ لقد تغلب الدهاء العربى على الحرص والذكاء الصهيونى .

وفى تلك اللحظة شهد العقيد عمار الدبابات الاسرائيلية الجديدة بهديرها المزعج ونيرانها الغاضبة . لم تكن أمامها أى دبابات مصرية ، فاندفعت بشدة وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من مشارف المدينة ، ولو تصادمت معها الدفاعات المصرية بامكانياتها المتواضعة لحدثت فيها إصابات مؤكدة ، ولكن القائد المصرى كان يعمل على جذبها نحو حتفها بأسلحته الخفيفة والرشاشات ذات الامكانيات التدميرية المتواضعة ، والمشاة أصحاب الأذرع الطويلة ، سلاح مصر الجديدة ممن كانوا يعالجون فى مستشفى السويس من الجيش الثالث ، وقد هبوا من المستشفى ، وكان الطعم الجديد هو السماح لهذه القوات بالتقدم واختراق الحد الأمامى للمدينة حتى تقع كل دبابة أمام مصدر نيرانى لتدميرها !

كانت سرية الدفاع المدنى تختفى فى كمين خلف إحدى المبانى عند الحد العميق من الساحة ، وعند المؤخرة كان المقاتلون ، كل بمجموعته سيواجه مؤخرة العدو التى تمثل ميسرته وميمنته فى حى المثلث عند بدء الهجوم بقيادة آمنون ونائبه أجام كما انتشرت كتائب الدفاع الشعبى للعمل بحرية بين مدرعات العدو بقيادة النقيب حامد سلامة ونائبه ابن عمه الملازم عبد العاطى سلامة ، أما رجال المقاومة الشعبية المدربة بقيادة احمد السكاكى فقد أسرعت بأسلحتها لتحتل الداخل وما حولها لقطع خط الرجعة على قوات العدو فى إستحكاماتها المتينة لتشكل مع مدفعية العقيد عمار ومدفعية الجيش الثالث على الضفة الغربية للقناة دائرة نيرانية جهنمية لا يمكن النفاذ من حصارها ، وقد بدأ رجال الكلاشنكوف فى نشاط عملهم أولاً بتصدر رجال العدو الذين تسول لهم نفوسهم بالظهور من برج الدبابة كما انفتحت عليهم أبواب جهنم الحمراء من فوق أسطح المنازل وشبابيك العمارات وخلف السواتر وبكل أنواع الاسلحة ومعدات الضرب وقنابل المولوتوف والبنادق والمدافع الرشاشة ، بل والزيت المغلى ، وقد حاصروا بعض هذه الدبابات داخل الحوارى والشوارع الجانبية ، بعد أن اندفعت إليها ظنا منها بأن المدينة خاوية من سكانها ، فراحوا فرحين يتجولون بحرية بين طرقات المدينة لاحتلالها ولم يدروا أن الموت يتربص بهم فى كل شبر لتكون كل طلقة مدفعية واحدة بدبابة !

إنها معركة العمر . بين تكنولوجيا العصر المدرع ، وفرد المقاومة الذى يحمل بين جنبيه مرارة السنين وعار الاحتلال على أرضه وعرضه وشرفه .

فجأة إنطلقت المدفعية بعيدة المدى من الضفة الشرقية للقناة ، كانت عنيفة ومؤثرة وموجهة توجيهاً دقيقاً على ميناء الأدبية حيث يتركز فيها احتياجات العدو ولا يمكن الرد عليها لأنها ابعد من مدى نيران الدبابات الاسرائيلية ، وكان تقدير القائد المصرى أنها البداية بها سوف تدفع آمنون إلى الاتجاه المعاكس لتفادى قذفاتها المدمرة ، وبالفعل بدأت الدبابات الاسرائيلية بالاستعداد ناحية السكة الحديد للمناورة والابتعاد ، وهنا انفتح عليها باب الجحيم ، إنها نيران قواذف (الـ آر بى جى) ومدافع الميدان المختفية والمحمية داخل ملاجئها ، فاستدارت الدبابات أمام هذه الكفاءة العالية جداً فى إدارة نيران المعركة التى كانت تفجر الدبابات كأنها دمى من الورق تطير أجزائها فى الهواء ، وفى أول قصفة فقد آمنون دبابة ، واعطبت له أخريتين ، فاستدار مذعوراً ، دون أن ينفذ هجمته فانفصل عن قوات المقدمة التائهة ، فتلقفته الصواريخ المضادة للدبابات ، ووقع بذلك فى هوة سحيقة من الجحيم ، ففى الوقت الذى يعانى من نيرلن المدفعية الثقيلة وبعيدة المدى ، تعرضت قواته للصواريخ والقواذف المباشرة من تحت جنازيرها وتحولت أرض المعركة إلى نهار دامى بفعل نيران المدافع وقواذف الصواريخ المتبادلة .

ونظر آمنون من نظارة دبابته فإذا به يرى على مدى البصر بقعاً تقفز بين الحفر ومن بين البيوت ، كانوا رجال المقاومة وأفراد المشاة ، يتحركون كالأشباح وهم يحملون أشياء تشبه الصناديق السوداء ، فأسرع يأمر جنوده بتوجيه الرشاشات ضدهم ، ولكنهم يتواثبون فى خفة الأسود ويندفعون تجاه المداخل والمبانى المتحكمة فى اتجاهات الرمى ، وشاهد آمون صاروخ ساجر يندفع كرسول الموت المنزل فى اتجاه دبابة الميسرة ، وماهى إلا طرفة عين حتى كانت الدبابة أشلاء تتقاذفها رياح الخريف الدامى لتلقى بها بمن فيها بعيداً فى المستنقع الذى خلفته مياه الأمطار إلى لون الدم الأحمر . دماء جنود جيش تسهال الذى ظن احتلاله للسويس نزهة لن تكلفه سوى مسافة الطريق ، وكان الصمت الذى لا قوه يدعوهم إلى الدخول فى عرين الأسد ، وماهى إلا ساعة حتى انفتحت عليهم أبواب جهنم

لتشوى جلودهم وتسحق عظامهم ، وكان آمنون ينادى أبناء ياهوه ويعقوب وعذرا وموسى ويقول لهم : ماذا جرى ؟ . ولم ينتهى من سؤالـه حتى صرخ صرخة مدوية ، ولكن يبدو أن صرخته قد ضاعت بين هدير الدبابات المذعورة وأصوات المدفعية التى تصم الأذان ، وبح صوت آمنون وهو يصرخ :

ـــ نار . نار . إننا نشتعل . إننا نحترق . النجدة . إلى بدبابة إخرى .

ورأى حديد دبابته ينصهر ، وتنفجر من داخلها بفعل الذخيرة الموجودة فيها ، واسرع محموماً إلى مدفع الدبابة وأخذ يدور بالدبابة ويضرب جميع الأفراد الذين وقعوا تحت دائرة نيرانه بعد أن أصيب مدفعى الدبابة واحترقت يدى سائقها ، فاختفوا بعيداً عن عينه فترة ، حاول فيها أن يدفع بالدبابة نحو المبانى ليتفادى قصفات الصواريخ التى كانت تدوى فى شوارع المدينة بأعداد كثيفة لتحول الدبابات الإسرائيلية إلى تلال من الحديد الخردة . وقبل أن يصل إلى شارع الجعفرى ، رأى صاروخاً جديداً يندفع نحوه ، وشعر بعدها بخبطة عنيفة ، لقد أصاب الصاروخ برج الدبابة ، أصيب حامل اللاسلكى بشاظية فى عنقه فذبحته ذبح النعاج ، فراح كالمحموم يصدر التعليمات ، بالصراخ المبحوح ، وراح يرفس جنوده الذين شويت جلودهم واستسلموا لقدرهم برجله ، ورأى الدماء تسيل من زراعه ، فصرخ كالمجنون وراح يواصل الرفس بقدمه بشدة ، وبعد لحظات كانوا جميعاً خارج الدبابة ، فجرى ومعه بقية الجرحى من طقم دبابة القيادة فى اتجاه دبابة أخرى ، ولكنها لم تتوقف ، وولت هاربة بمن فيها غير عابئة بتهديدات آمنون وشتائمه ، كان الهرب من الموت أقوى من أى شىء آخر ، فاندفعوا إلى المبنى المواجه فإذا هو قسم شرطة الاربعين وطلقات رصاص الأسلحة الخفيفة تلاحقهم ، بينما دفن آمنون راسه فى ساتر خشبية إصابتها ، فاصطدم بقائد السرية الأولى وهو يزحف على ركبتيه والدماء تنزف من كتفه هو الآخر ، لقد انفجرت دبابته هو الآخر ، ولما إقترب آمنون منه قال لـه وهو يناوله شيئاً بيد مرتعشة :

ـــ اعط هذه الدبلة لزوجتى .

وخلعها من معصمه ، وبكى من الحزن والقهر فسأله آمنون مواسياً :

ـــ كيف أصبت ؟

ـــ لا أدرى ! لقد انصبت قنابلهم علينا بنيران مذهلة الكثافة والدقة فى التحكيم كما لو كان ضابط مدفعية مصرى يقف فوق دبابتى لضبط وتوجيه نيران اسلحتهم ، وحاولت بعض الدبابات الاحتماء من نيران المدفعية بالهرب وراء التلال ، فانقضت عليها الجنود المشاة من حفرهم بصواريخهم القاتلة .

وانصتوا لحظة لدوى النار فى المعركة . الدبابات من الجانبين تنفجر ، ولكن الجنود والضباط الاسرائليين يقفزون من دباباتهم وهم يصرخون ، ويبحثون عن مكان يهربون إليه ، وتأتى قذفات الرشاشات المصرية لتسكت هذه الصرخات .

وتوقفت إحدى الدبابات الهاربة وراء أحد المبانى هرباً من النيران ، فأسرع إليها آمنون وبقية الجرحى ، واندفعوا إلى داخلها وهم يرمون أجسادهم فوق أطقمها ، فوجدوها كلها ميته عدا السائق ، ففرح آمنون وراح يخليها من الموتى بدفعهم خارج البرج تاركاً وراءه جنودة الهاربين داخل قسم الشرطة ، ولكن فجأة حدث مالم يكن فى الحسبان ، لقد فوجىء بعربتين مصفحتين اسرائيليتين مأسورة وبها جنود مصريين يمشطان المنطقة بحثاً عن اليهود المطاريد .. ومن شدة الرعب الذى اجتاح الأسرائيلين ، اندفعوا خارج المصفحة خوفاً من الموت . لقد فضلوا الأسر على الموت ، فجمعهم الجنود المصريون كما يجمعون ثمار الفاكهة المعطوبة وتركوا الدبابة سليمة لأسرها فيما بعد ولم يدروا أن قائد الهجوم كله الجنرال آمنون داخلها ! .

وفى تلك اللحظة ظهرت مجموعة دبابات اسرائيلية هائمة على وجهها ، فأطلقت مدافعها على الجنود المصريين الذين كانوا يقفون مكشوفين فوق العربتين فقتلوا سبعة منهم ، فاندفع باقى الجنود المصريين خارج المصفحتين وانطلقوا وراء الدبابات الاسرائيلية بقواذفهم الفتاكة ، وهجموا عليها فى شراسة بالغة لتصبح مجموعة الدبابات أثراً بعد عين . لم تنج منها واحدة فبكى آمنون وتمتم وقد وجد جنوده مجندلين جنباً إلى جنب مع شهداء المقاومة .

هذه أشد الأيام كآبة واكثرها إحباطاً وسواداً .

ولم يكد يتم كلماته حتى وجد مجموعة دبابات اسرائيلية تقع تحت الحصار ، وتدمر عن آخرها بالأسلحة القصيرة والقنابل اليدوية المضادة للدروع . ولم يبق منها سوى خمس دبابات ، فرت إلى طريق القاهرة الصحراوى عن طريق ميناء الأدبية ، وأخذ الغيظ يعصف بآمنون وهو يعود مندحراً ، فخشى العاقبة بعزله فصمم على حصار المدينة الخالية من القوات ، فقام بقطع الترعة الحلوة التى تمد السويس بالمياه وأنذر محافظها بالتسليم وإلا عرض المدينة لأخطار القصف الجوى والتدمير البرى عن طريق تليفون مصنع تكرير البترول الذى أحتله والموت عطشا ، ولكن القوات داخل المدينة اعتمدت على بئر مياه قديم أعيد حفره عند سيدى الغريب وكان مطمورا من عشرات السنين وتحدوا حصار آمنون الذى لجأ إلى الخديعة وعاود الهجوم عن طريق كوبرى الزراير تتقدم دباباته بعض السيارات المدنية وهددوا بقتل من فيها مدنيين من موظفى شركة البترول وسيناء للمنجنيز والشركة العامة للمقاولات إن هم تعرضوا لأى مقاومة ، وتظاهر المدافعون بقبول الانذار ..

.. وفجأة ظهرت الطائرات الاسرائيلية لتصنع مظلة كثيفة فوق المدينة وراحت تضرب الأحياء بعنف ووحشية لم يسبق لها مثيل ، فأتاحت أمام فلول قواتهم من المدرعات بالانسحاب من المدينة تجر وراءها ذيول الفشل والهزيمة المترعة بالعار والشنار ، لتنضم إلى قوات آمنون عند مشارف المدينة التى تستعد لمعاودة الإقتحام ، بينما وقع نائبه داخل الحصار فى قسم الشرطة مع عشرين اسرائيلياً ، وأصبحوا رهينة فى أيدى رجال المقاومة بالمدينة .

فى الوقت الذى انتظر فيه آمنون املاء شروط تسليم المدينة ، إذا بمدير شركة مصر يجرى اتصالاً سرياً بالمحافظ ويبلغه أن قوات العدو أنزلت موظفى الشركات المأسورين من السيارات التى كانوا يستقلونها ، وأقلتهم سيارة واحدة اتجهت بهم نحو الأدبية ، أما باقى سيارات الشركة التى تتقدم قول دبابات العدو نحو السويس فهى فارغة تماما .. ولما طال وقوف آمنون دون أى رد من جانب

المحاصرين ، تقدم مستتراً بالظلمة ، ولكن صاروخاً أطاح ببرجها وهى الدبابة الأولى ففر سائقها وسدت الطريق أمام باقى دبابات القول ، وسأل آمنون من المؤخرة التى يقف فى حماها عن الأمر ، فقيل له أن الصواريخ تنهال على دبابات المقدمة ، فاستدار مسرعاً آثراً الهرب ، وعندما ابتعد عن المدينة عاودته الأحلام مرة أخرى لاحتلال السويس ، خاصة بعد أن علم بفشل دانى فى الوصول بقواته إلى مدينة الاسماعيلية ، فقام وجمع أعداداً خفيرة من الفلاحين من القرى فى سيارات ودفعها أمامه مرة أخرى عن طريق الاسماعيلية ، الزراعى ، وفى هذه المرة لم يعطه رجال الدفاع عن المدينة أية فرصة للمناورة فتولى رجال الكلاشنكوف حل هذه المعضلة ، وصوبوا رصاصتهم الخارقة إلى سائقى هذه السيارات ففروامسرعين وتبعهم باقى دبابات القول ، وتقهر العدو إلى مقر شركة السويس لتصنيع البترول على بعد خمس كيلومترات من المدينة ، حيث وقف منهم آمنون خطيبا فوبخهم وتحسر على ايامه فى حرب الايام الستة وكيف احتل الضفة الغريبية كلها فى ثلاثة أيام فقط وبه جيوش دولتين عربيتين آنئذ ، وعند إذ سمع شخاراً عنيفاً وجرى إلى صاحبه وقد عزم على قتله لاحساسه بالمهانه بفعلته ، ولما قلب فيه وجده شخصاً يغط فى النوم ، ولشدة ما يشعر به من إرهاق لم يشعر بكل ما يدور من حوله ، ولا حتى تحذيرات زملائه خوفاً عليه من رعونة آمنون وبطشه ، فرفسه آمنون فى بطنه فقام فزعاً وتقيأ ثم انكفأ على الارض وزحف بعيداً عنه ، وهدده آمنون بقبضته :

ــ لن أرحم واحداً منكم ــ أيها الصبيان ــ لا يقدم بشجاعة على تنفيذ . أوامرى قوموا إلى الهجوم .

وتمتم فى قرف باصقاً فى وجوههم :

ــ هل قضى علىّ أن أصير مدرس ألعاب لمجموعة من تلاميذ المدارس على آخر الزمن !

فصاح أحد المظليين :

ـــ لماذا تصرّ على قتلنا يا سيدى ؟. إن وقفاً لاطلاق النار قد أعلن وهذا يكفينا شر هذا البلاء .. نريد أن نستريح ، أن ننام .

ـــ أتريد أن تنام ونائب الغـزو مأسـور بقسم شرطـة الأربعين لا بـد من انقاذه ؟.

ـــ إنك يا سيد محارب قديم كما تزعم ، فهلا أعفيتنا من هذه المهمة السقيمة ليقوم بها غيرنا !. إن مئات منا قد قتلوا ، فهل اسحق آجام أفضل من أحدهم ؟.

ـــ إن المدينة فارغة ولها سمعتها العالمية الرنانة ، وهذه فرصتنا .

ـــ من قال هذا يا سيدى القائد ؟ إنها مدينة يسكنها الجن والاشباح ، إننا نحارب عدواً خفياً لا نراه وهو يعد علينا أنفاسنا ، فإذا كنا داخل الدبابات فهم داخل بيوت لا عد لها ولا حصر وتحت الانقاض والفتحات الأرضية وبين الشتوق .

فضربه آمنون على وجهه ، ثم هدده بالمسدس ليخرسه :

ـــ لا أريد أفكاراً هدامة .. إن قولاً جديداً من قوات الـدعم فى الطريق إلى الهجوم على المدينة الآن ، وسأسرع لأكون فى انتظاره عند مشارفها .. سنهاجم من جميع المحاور هذه المرة من ناحية القطاع الريفى . هلموا إلى المصفحات .

وقبل أن يقتحم العدو حرمة المدينة ، إذ بقنبلة مفاجأة تطيح بكابينة عربة « طوباز » من جندى لم يطق انتظار العدو داخل المدينة ، فخرج إليهم بصدره ، وامتطى دبابة سنتريون ودك مَنْ بداخلها بقنبله « ثيراميث » ومات فوقها بعد أن رشقوه بآلاف من طلقات الفجرز وهنا كبر زملاؤه واندفعوا بصدورهم نحوالدبابات وهم يكبـرون ويدعـون بدعـاء النصر ، وأمطروهـا بكل أنـواع المتفجرات التى يملكونها ، وزاد الطين بلة ، إن انفجر ـــ فى تلك اللحظـة ـــ لغم فى سيارة نقـل المظليين ، فتركوها هاربين ، ودخلوا عمارة مفتوحة ، فإذا بها عشرة مجاهدين ، رفعوهم وجردوهم من السلاح واغلقوا عليهم غرفتين من الخارج وظلوا أسـرى حتى تسلمهم قوات الطوارىء الدولية ، بما فيهم قائدهم اسحق آجام .

وفقد آمنون فى هذه المعركة خمس عشرة دبابة واثنتى عشر عربة مصفحة ، كما خسر اضعاف هذا العدد فى المحاولات السابقة ، وفى تلك اللحظة وصلت تعزيزات مدرعة من الجيش الثالث لوضع حد لمحاولات آمنون وقطع خط الرجعة على آماله الضائعة ، وهنا قرر آمنون أن يترك المدينة ويرفع الحصار عنها عائداً بلا رجعة تاركاً وراءه دباباته المحطمة وآلياته المحترقة وجنود مائه بين قتيل وأسير ، وكرَّ راجعاً فى عجلة من أمره لينضم إلى القوة الرئيسية عند رأس الكوبرى بالدفرسوار على أن يوافية هناك قائده دانى خائب الرجا الذى فشل فشلاً زريعاً أمام الاسماعيلية بعد أن تم بينهما إتفاق تليفونى فى هذا الشأن .

وكان لتدمير قاعدتى الصواريخ بالبر الغربى ، أثره الواضح فى ذلك النشاط الجوى الكثيف للعدو فى المنطقة ، ولولا طلعات الطيران المصرى الكثيفة هى الأخرى فوق منطقة الثغرة ، لكان تأثير هذه الغارات على القوات المصرية مدمراً . وأياما كان الامر ، فقد أتاح نشاط العدو الجوى الفرصة أمام آمنون للعودة بفلوله منسحباً من السويس ، وكانت أسراب المقدم الوحش قد عثرت على بعض دباباته التى اتخذت من الطريق الأسفلتى مساراً لها ، فشن عليها غارة حامية الوطيس ، ولما أحس بقية قواد القولات الاسرائيلية بعنف الغارة ، قفزوا من دباباتهم وعرباتهم واختبئوا فى الاحراش حتى انتهت الغارة ، فعادوا إلى دباباتهم ، ولم يتوقفوا لحظة عن الاسراع بآلياتهم حتى وصلوا إلى قاعدة أبو سلطان ، حيث انضموا إلى مؤخرة قوات قائده دانى ، الذى وافاه معصوب الرأس ، مهدود الحيل ، مغبر الوجه ، محمر العينين ، فصاح فيه آمنون :

ـــ إن المتاعب التى تعرضت لها تبدو على وجهك يا سيدى القائد .

ـــ لقد نجوت من موت محقق مرات كثيرة ، ومن الأسر مرات أكثر يا آمنون .

ـــ إنك لا شك محظوظ يا سيدى . لقد وقعنا حقاً فى مصيدة لا مخرج منها .

ـــ إن قوات جديدة تتدفق فلعلنا نفعل شيئاً .

ـــ هل لا زالوا مصرون على امتداد الغزو رغم وقف اطلاق النار ؟

ـــ إن المصريين لن يتركونا هنا حتى يسحقوا اعظامنا .. لا بد من التخندق والدفاع .

ـ أما الافضل أن نعود من حيث جئنا قبل أن يموت جنودنا وكلهم صبيه !
ـ هل ترى ما يفعلونه بى يا آمنون !. إنهم يبلوننى بهؤلاء الأطفال لأحارب بهم .
ـ إنهم يبكون طول الوقت ، ويفزعون فى نومهم من الكوابيس خشية القتل .
ـ علينا الصمود بأى ثمن يا آمنون . هذه هى التعليمات . كن فى استقبال الامدادات واستعد لمحاولة جديدة .
ـ لن تعاود الهجوم مرة أخرى .. إن هجوماً مصرى من الفرقة المدرعة الرابعة على وشك الوصول .

فى نفس تلك اللحظة تخندقت بعض دبابات العدو فوق رؤوس الأطواف فى المنحدر عبر المتسع الذى يطل على القناة مباشرة ، وراح آمنون يدعمها وهو يشرف بهمة على الروافع والحفارات وهى تحفر فى الأرض لوضع خنادق اسمنتية مسلحة سابقة التجهيز ليتحصن فيها الأفراد والدبابات على امتداد منطقة سرابيوم وأبو سلطان والدفرسوار ، وسط ستار كثيف من الدخان وألسنة اللهب القاتمة ، وعلى بعد ، كانت ابراج أحدى الكنائس البيضاء تبدو متعانقة مع مأذنة لأحد المساجد عند الأفق المحترق فى صمت حزين !، وقد انفصلا ومالا بفعل قنابل الطائرات والمدفعية.

كانت مدافع وصواريخ الجيشين الثانى والثالث ، تدك معبر الاسرائليين الوحيد وتشوى جنودهم على الشاطئين ، ونشطت قوات فهمى الترك بقواته البرية ، وإنه لا شك يسحق عظامهم كالعادة ، وأدرك احمد السكاكى أن الاسرائليين يحاولون فتح ثغرة ليسهلوا لمجموعة القوات المحاصرة فى الغرب الى العودة الى خطوطهم ، وأسرع بالاتصال فوراً بالترك للابلاغ عن الطوابير الجديدة للعدو على شط القناة ، وأخذ يترددفى التيلفون بالضبط عدد المصفحات واللوريات ومواقعها وحركاتها أولاً بأول .

فى نفس تلك اللحظة اكتظت غرفة القيادة المتقدمة بالتحركات ، وأخذت أجهزة الاستقبال تدق بشدة وعنف من مصادر عديدة ، وامتلأت بالاشارات والارقام والاسماء الكودية ، والتعليمات والأوامر العكسية للقادة فى مختلف المواقع ، إنه

لشيء مثير ، لقد تطورت الأمور الى منعطف خطر ، لقد بدأت الفرق المدرعة (٢٥) الى جانب الفرقة (١٦ مشاه) هجوماً عنيفاً نحو الجنوب من الجيش الثانى والفرقة المدرعة من الجيش الثالث نحو الشمال لسد الثغرة من الشرق فى الـوقت الذى يتحرك فيه وحدات اللواءين المدرعين (٤ ، ٢٥) لضرب قوات دانى فى الغرب واشتعلت الجبهة وكان اللواء بدر هادئاً ، يدبر الأمر بروية ، فرغم أن اللواء المدرع ٢٥ وفرقته ٢١ قد استطاع أن تحقق إنجازا طيباً على قوات الغزو ، وتدمر الكثير من دبابات العدو ، واجبرت الجنرال ديڤيد هاكاهين بأن يقفل عائـداً الى منطقة الطاسة ببقايا مدرعاته للقيام بعملية التعويض والتموين والتنظيم ، إلا انه لم يشأ أن يسحب أى قوات من هناك لمواجهة دانى عند القناة ، ودارت فى رئاسة الاركان مناقشة حامية حول هذا القرار الا انهم فى النهاية تبينوا صحتـه ، ووجدوا أن الحكمة فى بقائه كما هو حتى لا ينكشف الجنب الايسر للفرقة ١٦ ، أما العقيد بلال همام أركان حرب اللواء ١٦ فقد تحرك من الطالية على رأس قواته المدرعة يعاونه فى الميمنة المقدم المحمـدى صادق عـلى رأس مدرعـات الدعم وفى الميسـرة العميد مصطفى الشهابى قائد مدرعات اللواء ، وعندما بدأ تحركات اللواء كان النهار قد انتصف تقريباً ، ولذلك فقد إرتأى العميد الطوبجى قائد الفرقة (١٦) أن يدفع ببعض قوات المقدم فهمى الترك والمقدم ندا من المشاة بعـد أن أعاد تسليحهم بالطائرات العمودية وحاملات الجنود بسرعة لابرارهم داخل منطقة تجمع العدو ، والاشتباك معهم فوراً لمنعه من إصلاح رأس الجسر بعد أن حطمته المدفعية ومنع مرور قواته فوق القناة عبر الأطواف والقوارب المطاط ، بتدمير معدات التجريف ووصلات الكبارى والكراكات وغيرها ، وخُصص لهذا مجموعة من الفدائيين على أعلى مستوى من الكفاء والفدائية والتدريب الـراقى بقيادة المقـدم (الباشـا) والملازم عبد العاطى سلامة ، كما صدرت الأوامر للمقدم الترك بالهجوم ببقيـة قواته مع المدرعات فورا على الدبابات الاسرائيلية ومنعها من العمل فى المنطقة بأى ثمن حتى توافيه إمدادات أخرى ، وقال له اللواء بدر وهو يربت على ظهره مودعاً :

- إن جهودكم لجبارة فى حرمان العدو من السيطرة على مفاتيح الطرق لمدينة الاسماعيلية عند جبل مريم وتبة الشيخ حنيدق . لقد أصبح العدو فى موقف يائس

عليك أن تتحرك فى اتجاه الجنوب عند تقاطع عثمان أحمد عثمان بعد دفع عناصر قوية للاستطلاع للحصول على معلومات دقيقة عن أوضاع العدو ومواقعه الجديدة . راع الدقة والحكمة فى كل تحركاتك ، وحافظ على قواتك ، وأحذر الأجناب حتى لا يلتف العدو حولها لحصارك . عليك بالحفاظ على مواقع الصواريخ الباقية ، دافعوا عنها بكل الجهد ، إن كتيبة مدفعية كاملة قد سبقتك إلى منطقة الجفرا لاستعادة السيطرة فى أيدينا ورفع كفاءة القوات القتالية .

ـ أدفع برجال القناصة لنشر الذعر بين مدرعات العدو ، مفهوم يا فهمى ؟

ـ مفهوم يا أفندى .

.. طائع النورى ،

ـ هناك شىء آخر .طلائع الدورى ،استفد من هذا الفاقد قدر استطاعتك ، دعه مع قواته من الضفادع البشرية يعملون طول الوقت تحت الماء لتدمير الأطواف العائمة ووصلات الكويرى الاسرائيلى المعدنية ، وتدمير الدبابات البرمائية للعدو أثناء عبورها فى القناة . لابد أن يكون عملكم متكاملاً أيها الرجال . وسندعمكم بالطيران

ـ هذا واجبنا ياأفندم ..

ـ أراك قلقاً تريد العودة إلى قواتك . بارك الله فيكم . على بركة الله .

وودعه مبتسماً رغم دقة الموقف ، فاستدار الترك ودق كعبيه معظماً ومودعاً :

ـ تمام ياأفندى .

كان القلق والعجلة هى ديدن الفدائى قائد المشاة . وأحس اللواء بدر منه ذلك ، فودعه رابتاً على كتفه قائلاً :

ـ ستكون دائماً على إتصال بى .. أليس كذلك ؟ . مع السلامة .

. أما المقدم حسن عمار قائد المدفعية ، فلم يكن يحتاج قط لأى أوامر ، فهو مع قواته يعملون ٢٤ ساعة يومياً ، سواء كان هناك هجوم مباشر أو مطاردة أو دك مواقع بعيدة المدى ، حتى عُرف عنه بأنه الرجل الذى لا ينام ، وكانت معدلات الضرب ممتازة فى كل وقت ، وهى ١٧٥ طلقة/ثانية وهى أعلى المعدلات فى العالم

عرفتها الحروب ، وفى أقل من عشرين دقيقة استطاع المقدم حسن أن يحشد أكثر من عشرين كتيبة مدفعية من مختلف الأحجام والأنواع ويسلطها على نقط تجمع الاسرائيليين عند رأس الكوبرى الاسرائيلى ومعداتـه ، حيث تعرضت القـوات الاسرائيليةفوراً لأعنف وأشرس قصف مدفعى رأته أى حرب ، حتى تناثرت جثث الاسرائيليين واختلطت اشلاؤهم بدروع الصلب وقطع الصاج والحديد المدمرة من معداتهم وآلياتهم ، لقد نصبت لهم المدفعية مذبحة بشعة ، حتى أن المئات منهم كانوا مبعثرين قتلى فى كل مكان تذهب إليه حدقة العين ، ولم ينج الجنرال دانى هذه المرة إذ أصيب إصابة مباشرة ، واضطروا لسحبه وعلاجه ، وعندما دفعوا بنائبه ليتولى القيادة لحين تماثله للشفاء ، سجل عليه المقدم عادل اسلام مكالمة عاجلة يطلب فيها ضرورة إلغاء العملية كلها ، لأنهم للأسف وجدوا أنفسهم داخل مصيدة حقيقية ، ولكنهم رجوه الثبات والصمود يوماً أو يومين حتى يتم وقف أطلاق النار فإسرائيل كلها فى مأزق ، بل إنها داخل هذه المصيدة ! .

وفى تلك اللحظة بالذات ومن خلال الدخان المتراكم ، والضباب المنتشر فوق الشاطىء ، وعناقيد الصواريخ المعلقة فى السحب المحترقة ، والماء المتلألىء من خلال الفرجات ، رأى الملازم طائع النورى فى دهشة بأن خطوط الأطواف القائمة تمتد من كلا جانبى البحيرة وتغطى نصفها ، وعلى ضفة القناة كان الأسرائيليون يسرعون ـ كاللصوص ـ فى تفريغ الأطواف البيضاوية من اللوريات . والآن وضح الموقف : لقد إلتف الاسرائيليون حول قاعدتى بشير وخميس بحذاء طريق البحيرة الوعرة حتى وصلوا ـ فى صمت ـ إلى عنق الزجاجة ، فى النقطة التى تلتقى فيها البحيرة بالقناة رافعين الاعلام المصرية ، كما أن الزحافات والروافع كانت تسوى الأرض على أنها أيضا زحافات وروافع وكساحات مصرية !.

وكان احمد السكاكى قائد فصيلة الاستكشاف ، الذى استمر عمله ليل نهار للبحث عن هدفه الأثير والخطير فى الكشف عن المظليين الاسرائيليين الذين تسللوا إلى شاطىء القناة ، وبالعثور عليهم ، خاضت تلك الفصائل معـاركاً يشيب لهـا الـوليد بـالسلاح الأبيض والـرشاشـات وانضمت إلى مجموعـات عمل المشـاة والصاعقة والضفادع البشرية تحت قيادة الفدائى الفذ فهمى الترك .

وأطال الترك النظر من موقعه مع الفتاة سيلقيا التى كانت على خبرة فى التعرف على الوحدات الاسرائيلية أمام المرتفع إلى طبقات الغبش التى تحجب قاعدتى الصواريخ أرض جو، والذى تكسرت عليهما كل الهجمات الاسرائيلية بغية تصفيتها ، وكانت الدبابات الاسرائيلية مثل الأشباح تتحرك نحو البحيرة ، ثم ترتد إلى منطقة عمل الجسر الاسرائيلى فى حركة دائبة ، وكانت صلصلة جنازيرها وهديرها يختلط بطنين محركات اللوارى المتقطع ، مما ولد لديه إنطباعاً بأن قوة اسرائيل الضاربة قد تمركزت فى هذه النقطة . وكان الجزء الآخر من الطوابير المدرعة الاسرائيلية يتدرج ببطء شديد لوعورة الطريق وتعثره بين الكثبان الرملية ، كما كان مقيد الاضاءة للتعمية ، يرفع - ولايزال - الاعلام المصرية ، كما يستخدم اللغة العربية باللهجة المصرية فى الأحاديث والمراسلات المسموعة للخداع ! .

وكان الجزء الآخر من الطابور الذى اقتربت من نهاية البحيرة ، لوريات متفرقة ومدافع تجرها العربات خاصة الهاون منها ثم العربات الصاروخية المدرعة (س .س ١١) الرهيبة ومفارز من المظليين الاسرائيليين ، كانت هذا القوات تتحرك بصعوبة بالغة تحت قصف عنيف من مدفعية الجيش الثانى ، الذى كان يمطرها بالقنابل فى كل لحظة ، حتى أن كل عجلة من العجلات الاسرائيلية كان ينفجر تحت اطارها قنبلة فى كل لحظة ، ومن كل عدة مركبات ، كانت تُعطب واحدة بقنبلة مباشرة ، فتقوم الأوناش والروافع بدفعها بعيداً عن الطريق لمواصلة السير ، لقد كا ن حطام السيارات الملتهبة والدبابات المحترقة والأوناش المحطمة فى الطريق ، وعند المخاضة فى الموقع المواجه للدفرسوار أشبه بمقبرة السيارات الممتدة إلى مالانهاية ، ومن الواضح إن هناك دبابات مصرية غُرست فى الأرض كمدفعية قد تعرضت للهجوم المباشر ودارت معارك رهيبة احترقت فيها الدبابات المصرية ، بعد أن أنزلت بالعدو خسائر فظيعة لايتحملها بشر ، لقد استمرت المعركة ثلاث ساعات ، استخدمت فيها مدفعية الميدان أسلوب الرمى المباشر ضد دبابات العدو فأهلكته ، ولم تسكت هذه المدافع الابعد قيام العدو بدفع قوة كبيرة من دباباته الإضافية للالتفاف حولها وتدميرها .

لقد لاحظ الترك وهو يعاين مواقع الإقتراب للهجوم على رأس الكوبرى ، لاحظ صمتاً عجيباً من ناحية القاعدتين ، وأحس بشعور مضطرم من نفاذ الصبر وهو يترقب دخول الدبابات المرمى المؤثر للمولتيكا . بينما استعدت سيلڤيا بأكوام الرمل كمسند للمدفع حتى لايرتد بقوة على صدر رفيقها ، التى راحت تشجعه بعينيها الضاحكة وهى تعدل من موضعه ، ومن موضع ماسورة المدفع فى الاتجاه الصحيح ، وقالت له :

ـ أعظم شيء فى هذه الدنيا هو : الحرب والحب .

فابتسم لها مستفسراً ، فشرحت وجهة نظرها بإسهاب قائلة :

ـ كلاهما يصفى القلب من الأنانية .

فعقب فى صفاء :

ـ وكلاهما مواجهة حقيقية وصادقة مع النفس .

فصرخت بعيون ضاحكة ومؤمنة وهى تحتضن رأسه فى حنان :

ـ إنه شيء مثير . أليس كذلك ؟

ـ انتظرى سيلڤيا . هاهو الطابور .

ـ استعد أيها القائد ، ولاتطلق الصاروخ حتى أصدر لك أمراً . أنا القائد .

ـ ماشى ياستى . على عينى ورأسى . بل أحلى قائد . أنا فى إنتظار أمرك .

ومرت الدبابة الأولى عند المنعطف فتركها تمر فى سلام ، ثم الثانية فالثالثة ، وعند بذوغ الرابعة ، كتم أنفاسه ، وجذب المدفع إلى صدره بقوة ، ثم تطلع إلى السماء لحظة متبتلاً إلى مولاه ، طالباً العون والتوفيق ، ثم ضغط على الزناد مهللاً ومكبراً :

ـ بسم الله ، والله اكبر . على بركة الله . هب .

واندفع الصاروخ وقد انفصل عن المدفع ، ليرف فى الهواء مجنحاً ، والنار تشب من حوله فى هالة أرجوانية رائعة ، ومرت الثوانى ثقيلة ، كان الترقب وتلاحق الأنفاس هو الغالب على القوات الرابضة فى الكوة العالية والمتكومة فوق بعضها ،

وإذ بالصاروخ يصطدم بنقطة حسنة داخل الدبابة نفسها ، وكان صداماً مروعاً ، جعل كل جزء من الدبابة ينقسم وينفصل عن الدبابة ويطير فى الهواء والنار ممسكة به تأكل فيه كما الهشيم الجاف . فكبر الترك وهلل مرة أخرى ، وكبرت سيلفيا وهللت مثله بطريقة آلية مضحكة ، وكانت الفرحة أكبر من أن يسعها قلبهما ، فتعانقا ، وزرفت العيون دموع الفرحة ، ورفعا أيديهما بعلامة النصر . ولم يحس الترك بفرحة لإصابته هدفاً من قبل مثلما أحس هذه المرة . وصاحت سيلفيا :

ـ معك إلى الأبد .

وصاح هو ، وهو يجذبها لينتقل من الحفرة إلى مكان آخر :

ـ والله معنا .

كانت الدبابات الثلاث الأخرى ، قد أطلقت مدافعها بسرعة ناحية الانفجار ، خوفاً من الهجوم عليها ، وأخذت كل واحدة منها تناور فى مكان ضيق نسبياً ، حيث أن الكثبان الرملية المنتشرة فى المكان تحد من حرية الحركة والمناورة للدبابات ، كما أن طبيعة الأرض الرخوة تجعلها بطيئة الحركة ، لا تسمح لها بالارتداد السريع ،

كان الترك ينظر إلى الدبابات وهى تضرب فى الهواء مدافعها كالعميان ضاحكاً . واتخذ مع سيلفيا خندقاً مموها تمويهاً جيداً بين الصخور فى موضع متقدم آخر من التلال المرتفعة ، واستعد مرة أخرى ، بعد أن اتخذ كل احتياطاته ، وأطلت سيلفيا من فوهة الحفرة الصخرية الجديدة على بانوراما المكان ، فاحست بإرتياح لا شرافه على ممر ضرورى لهذه الدبابات أن تسلكه ، ثم عادت مبتهجة وهى تقبله فى سعادة بانجليزية سريعة :

ـ (جود بليس) . موضع حسن ! .

وجرت طلقة صاروخية أخرى ، ودفعتها داخل المدفع مرة أخرى فى حذق أكبر من المرة السابقة ، فابتسم ومسح على شعرها فى رقة وهمس فى أذنها التى لاصقت وجهه

ـ لسوف تصبحين فدائية من الطراز الجيد .

ـ انتبه أيها القائد . إن الهدف يقترب . استعد لتنفيذ الأمر .

وضحكت . ثم راحت تجمع الرمال وتلملمها تحت مسند المدفع ليزداد ثباتاً ، ونظر الترك من خلال النظارة فإذا الدبابات تعود فعلاً إلى الهدوء بعد أن تأكدت من خلو الطريق ، ومرت الدبابة الأولى فجف ريقه ترقباً ، ومرت الثانية ، فتملكته هزة إرتعشت لها أطرافه ، واهتز المدفع فى يده لثانية ، ثم عاد للثبات ، وعندما أشرفت مؤخرة الدبابة الثالثة على المرور ، كتم أنفاسه ، وجذب عتلة الضرب ، وأحس بيد سيلقّيا تساعده فاشتدت عزيمته متشجعاً ، وحرر موطن الضرب على الدبابة حاسباً سرعتها وحركتها واتجاهها ثم بسمل وكبر وضغط على الزناد ، ثم أغمض عينيه ، ومضت لحظات كأنها الدهر . وعندما اصطدام المقذوف الصاروخى بجسم الدبابة أحدث دوياً فى الأرجاء جعله يقفز فى الهواء ويقع على الأرض فيرتطم بسيلقّيا التى سبقته من شدة الانفعال ، وفقدا توازنهما للحظة ، ثم أفاقا وكل منهما ينظر إلى الآخر فى صمت ، ثم انفجرا ضاحكين وصفقا بيديهما ثم رفعاها بعلامة النصر ، منتصبى القامة ، ينفضان عن أنفسهما الغبار .

اسرع المقدم الترك بالاتصال بمركز الفصيلة عند النقطة الميته على شط البحيرة ، وأمرهم بالتحرك نحو رأس الكوبرى الذى تتجمع عنده القوات الاسرائيلية ، ورد عليه المقدم هارون ندا (الباشا) ، وهو مساعده :

ـ تمام يا أفندم . نحن جاهزون للتحرك . لقد انتهى الاشتباك وغرق العدو فى البركة الحلوة .

ـ استعملوا عربات نقل الجنود بسرعة ، وامنعوه من الالتفاف ناحية كوبرى أبو جاموس

ـ عُلم يا أفندم . وماذا عن خط السير ؟

ـ اتخذوا الطريق العام بحذاء الماء لتصلوا فى أقصر وقت ممكن . وقبل أن تتحركوا اتصل بقاعدتى المدفعية صخر وجبل للمعاونة ومنع قوات دانى من عبور ترعة الاسماعيلية فى أى جزء منها أو أى مخاضة . إنها مانع قوى للمركبات . نفذ .

وما أن سمع منه إجابة (تمام ياأفندم) حتى انـزاح عن صدره كـابوس مخيف ، وزحف على بطنه ، وأطل من فوهة الحفرة ، كان يريد التعرف على نتيجة القذفة الأخيرة بعينة ، فوجد الدبابة الثالثه تحترق من الطابور ، وقد قفز فـرد أو إثنين منها لينضم إلى الدبابتين المتقدمتين ، وأسرعت سيلڤيا بإحضار مقذوف جديد للضرب مرة أخرى ، ولكنه نهرها ، واندفع بها نحو الداخل هاماً :

ـ صه . لاحركة ، إنهم يبحثون عنا .
ـ كيف ؟ إن الدبابتين واقفتين بلا حراك .
ـ لا . لديهم نظارات رؤية بالاشعة فوق الحمراء للكشف عن أهدافها .
فنظرت إليه وقد عقدت لسانها الدهشة :
ـ كيف عرفت ؟ . إن هذا فعلاً من المعدات التى يتسلمها كل طقم اسرائيلى .
ـ غير مهم . لقد عثرنا عليها داخل الدبابات المأسورة .
ـ ما الحل لو عثروا علينا .؟
ـ لابد أن نتخطى الطريق إلى الاتجاه المعاكس . لقد حددوا موضع الإطلاق .
فنظرت إلى الطريق فوجدتها مكشوفة ، فمطت شفتيها فى حيرة :
ـ إننا نغامر بالمناورة وسط هذه الأرض المكشوفة .
ـ لا مفر من ذلك للأسف .

ومرت فترة صمت ثقيل ، كان عقل كل منهما يعمل بسرعة ، وفى النهاية اقترح عليها أن يسارع بالاشتباك بهما وليكن ما يكـون ، ولكنها رفضت لأن النتيجـة مخيفة نظراً لما تعلمه عن إمكانات هذه الدبابة (م ـ ٦٠ المعـدلة) التـدميريـة المتعددة ، فى مواجهة مدفع وفرد واحد ! . وفى النهاية علق المدفع والزخيرة على كتفه وأحكم جراب القنابل اليدوية والحزام الناسف حول وسطه ، وطلب إليها أن تتبعه وقد سلحها بمدفع (آر بى جى) كان قد دربها عليه ، فصفقت مهللة :

ـ إنها أعظم مغامرة . لسوف أدونها فى كتاب حين عودتى استكهولم ! .
فابتسم فى غيظ وقال فى نفسه جاذباً إياها بنظرة ساخرة ليرتقى المنحدر :
ـ هل هذا هو كل مايهمك ! . المغامرات .

واختفى بين المزارع ، وراح يحبو على ركبتيه ويديه ، وكان يتوقف بين لحظة وأخرى ناظراً أسفله ليطمئن على أنهم لم يكتشفوه بعد ، وقبل النهاية بأمتار توقف للحظة يلتقط فيها أنفاسه ، ورغم البرودة الشديدة فقد تساقط العرق على عينيه ووجهه مختلطاً بالتراب فنسى ورفع يده يمسحه فاذا بـه يختل تـوازن جسمه ويسقط المدفع من يده ثم يقع على جنبه فوق الحزام الناسف ، ولكن الله وحده هو الستار ، لقد تسلخت يديه وأصيب بسحاجات فى وجهه ، وامتلأ فمـه بالـرمال فبصق ، ولكن خيطاً رفيعاً من الدماء إنبثق من شـدقه الأيمن ، وشعـر للحظة بالغثيان ، إلا أنه تماسك متشبثاً بيد سيلقيا ، وتساقط بعض الصخور فهرب دمه من الخوف ، ونظر أمامه يرى رد فعل العدو ، ولكنه شعر بأنه بعيد تماماً عن أنظاره

اذ انهمك فى إلتقاط قوة من مظلييه تعرضوا لنيران مصرية عنيفة فى هجوم فاشل لهم ، مات منهم خمسون وجرح بقيتهم ، لتقدمهم دون استكشـاف كاف للمنطقة فوقعوا فى كمينين بـالاسلحة الـرشاشـة فقضوا عليهم جميعـاً ، كانت الدبابات تطلق النار على التل بلا ضابط ، وكان الترك وسيلقيا يناوران فترجرجا إلى الإتجاه المعاكس ، إلى الجـانب الآخر من المنحـدر ، كانت نيـران الدبـابتين فى مواجهتهما تفرش التل بتركيز عنيف فاق كل تصور حتى تصدعت أجزاءكثيرة من جوانبه ، ثم تلتف أحداهما لتفرش الطريق بالفجرز من مـدافعها الـرشاشـة ، وجعلت تستدير وتستدير حتى أصبحت تحت أقدامها مباشرة ، فكتم أنفاسه ، ثم قرر التعامل معها وليكن ما يكون ، وطلب منها الاستعداد لمغادرة الحفرة بسرعة بعد الضرب مباشرة ، وثبت حاضن المدفع ودفن فوهته وراء الساتر ، وبسرعة ألقمت سيلقيا الطلقة الصـاروخية ووضـع عينه عـلى الناشنكـاه ، وجعل كلمـا استدارت الدبابة غير من وضعه ، وسيلقيا تمسح عرقه الذى سال عـلى صفحة وجهه فى خيوط متلاحقة ، وظل يداورها حتى استدبرها فى لحظة إلتفاف ، وهى فى العرف العسكرى لحظة ضعف للدبابة لأنهـا لاتطلق إلا بعد وقفـات ثم قفزات وهكذا ، حتى تمتص رد فعل إطلاق القذيفة المدفعية ، وهنا كتم أنفاسه وضغط وجهه كله فى الناشنكاه وماهى إلا لحظة أو تكاد حتى ضغط على ذر الاطـلاق ، وماهى إلا ثانية أو ثوان حتى اصطدم القاذف الصاروخى بمؤخرة الدبابة ، ولكن حدث مالايحث عقباه ، إذ فى اللحظة الأخيرة ناور واندفع مستديراً بدرجة حادة ،

فلم يصبه الصاروخ إصابه محققة ، بل احتك بالدروع احتكاكاً ، فاهتزت إهتزازة خفيفة وبدأت تطلق نيرانها من وضع الثبات ، فكانت هذه فرصة الترك التى ابتهلها وكان قد أسرع وأعد مدفعه لضربة سريعة .. إنها لحظات المصير ، تفرق بين الحياة والموت . وعندما أطلق كانت الدبابة قد أطلقت ، وعند منتصف المسافة كان مسار الطلقين كحدى المقص ، وفى وقت واحد تعالى الإنفجاران .. فانقلبت الدبابة واشتعلت فيها النيران ، أما فهمى وسيلقيا فلم يشعرا بشىء ، لقد أطاح الانفجار بالصخور من حولها . وشوهدا عن بعد يطيران فى الهواء وسط عاصفة شديدة من الرمال والدخانُ وفتات الصخور ثم يهويان من حالق فى هوة سحيقة أسفل التل ! .

كانت أيام وليالى المصير .. الدماء مراقة كالسيل رخيصة ، تخضب الرمال بلا ثمن ، والاشلاء والجثث المحترقة مترامية على امتداد البصر بلا عدد ، وأطنان الحديد الملقاة على الأرض إعلان عن غباء الانسان وسوء استخدامه المادة التى خلقها الله لنفعه والتيسير عليه ، ليجعل منها فى النهاية مواد لتدميره واهراق دماءه !

ومرت ساعة أو ساعتين على الآدميين المتكومين أسفل الهوة ، تحت ركام ثقيل من الصخور الصغيرة والرمال ، وعندما فتح الترك عينه كانت رأسة ثقيلة جداً كأنها تحمل جبلاً فوقها ، وعندما حاول أن يحرك ذراعه لم يستطيع ، لقد كان محشوراً ثقيلاً ، وسرى فى جسده الواهن إصرار الحياة ، التى عجب أياما العجب لبقائه حياً .

وقبل أن يتململ شعر بالمدفع والصخور تحت جنبه تضغط على ضلوعه حتى كادت تكسرها ، وشيئاً فشيئاً أخذت القوة تسرى بين حوانيه ، راح يدفع عن نفسه تلال الركام والأحجار ، حتى استطاع أخيرا أن يحرك ساقيه ويلملمهما ثم يقعد مستنداً إلى صخرة كبيرة ، وتذكر رفيقته ، فراح يبحث عنها بعينيه حتى أحس بنفس يتردد عن قرب منه ، صحيح أنه واهن ، ولكنه يشعر به كأنه هو نفسه الذى يتنفسه ، وتقلب فإذا بتوازنه يختل ويشعر أنه مصاب ، وتحسس رأسه فإذا

بها من الردود والجروح مالايستطيع تبينه ، كما شعر بألم شديد فى ظهره وعند الركبتيين ، وحمد الله أنه ظل حياً حتى اللحظة ، بيد أنه ظل على محاولاته حتى أزاح عن رفيقته الركام ، ولكن حالتها كانت أسوأ ما يكون .. لقد تجددت اصابتها القديمة ، وتصلب ظهرها كلوح الصلب الممدود ، وبدت غير قادرة على أى حركة . وشاع الوهن فى صوتها وهى تداعب خصلات بشعره المنسدل على جبينه ، وقد بدت لها فكرة الحياة وهماً . قالت :

ـ أهذه هى النهاية حقاً أيها الحبيب ؟ . أحقاً كلنا إلى هذه الحفرة مسافرون !

ـ ليس بعد ، عمر الشقى إلى بقاء . اشتدى ياحبيبى حتى نصطاد الدبابة الرابعة !

فابتسمت رغما عنها ، وانخرطا فى عناق طويل ! . وأحس بها تتراخى بين يديه فأرخى لها حتى تمددت على راحتها ، كانت أنوار عينيها تنسحب شيئاً فشيئاً وهى تقول له فى وهن : « لا تتحرك لاتتكلم . لا تعترض . ثبت وجهك بين عينى حتى تكون ملامحه آخر ماتراه عيناى .

إنزعج فهمى وحاول أن يهزها فى عنف .. ولكنها راحت فى إغماءة طويلة ، فمال على جبينها مقبلاً وتمتم : « منعتنى الحرب المقدسة وأهوالها وأم العيال عن التعبير عن شعورى القوى بالانجذاب إليك .. » وكتم دمعه ثم رفعها على كتفه .. ومضى حاول أن يلحق بأى سيارة لإلحاقها بالمستشفى الميدانى واسعافها إلى أن عثر على إحداها سليمة والمحرك لازال دائراً على حالته فـإذا به أمـام الجنرال دانى .. ! كان يزحف جنب السيارة المصفحة يغالب وهنه ، ونظر إليه فى ذعر ، كانت دماؤه قد انبجست من شرايينه إلى ماء المستنقع الآثن ، وهاهى بذور الموت تتنامى وتضمحل منه الحياة ، وبدأت آلام عنيفة لا تطاق تهاجمه بشدة وعنف ، وكان واضحاً أنه قائد الدبابة التى دمرها مؤخراً والتى هاجمته هو وسيلڤيا وقد أصيب بعدها بغيبوبة العمى هو الآخر ، فراح يهزى ويصرخ :

ـ من لى ليحمل وصيتى ؟ ، اللعنة على إسرائيل واليوم الذى هاجرت فيه إليها ..

فقلب فيه الترك وصاح فيه : « ألست الجنرال دانى ؟ . »

فقال بصوت واهن : « أنا هو . أنا قائد الهجوم الفاشل » .

ونظر حوله فإذا الجثث قد تكومت أكداساً حتى ردمت المستنقع واختلطت بالوحل ، كان معظمها من المظليين الإسرائيلين والقليل جداً منه من رجال العاصفة المصريين ، أما الدبابات والمصفحات الإسرائيلية فقد إفترشت الصحراء بأعداد لا تحصى مهشمة ومحترقة ، يتصاعد منها دخان كثيف يخفى نيراناً حمراء قانية ، كما كانت هناك آليات مصرية وأخرى إسرائيلية لا يبعد بعضها عن بعض سوى بضع ياردات ، وكانت هناك ـ عن بعد ـ عربات نقل إمدادات مهجورة ، فاجأتها الغارات الجوية وقذائف المدفعية ، وكانت من بين الأسلحة والمعدات المحطمة عربات (س . س ١١) الرهيبة و (م ١١٣) المدمرة ، لقد كان أمامه ميداناً شاسعاً لمذبحة أليمة يمتد إلى أبعد ما تستطيع العين الوصول إليه . كانت الدبابات والمركبات والغربات المدرعة والمدافع وعربات التموين ونقل الذخيرة المعطلة والمقلوبة والمحترقة دليلاً مروعاً على المعركة الرهيبة التى دارت فوق المستنقعات ، ولقد كان يرى بعينه الجاحظة المسهدة ، جنود العاصفة والقوات الخاصة المصرية وهم يقفزون فوق المدرعات الأسرائيلية من الخلف ومن الأمام ومن على الأجناب ويفجرونها من الداخل ، بل كانوا كثيراً ما يفجرون أنفسهم فى المدرعات الإسرائيلية عندما تنفذ ذخيرتهم وقنابلهم وصواريخهم . لقد كانت حرباً لا تطاق ، بل تنور يغلى وقوده جنود جيش تسهال الذى لا يقهر !

ونظر دانى القائد الإسرائيلى وقد أخذته إرتجافة بسبب هذه المعركة الوحشية وقال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة :

ـ كيف سيحصون قتلاك أيتها الحرب البشعة ! . إنه شىء فظيع .

وقبل أن يلقى عليه الترك نظرتـه الأخيرة مشفقـاً ، إذا بالمقـدم هارون نـدا (الباشا) يتصل به لاسلكياً .. كان صوته مرهقاً .. قال :

ـ لقد تم وقف اطلاق النار بالفعل ياسيدى بعد ست قرارات من مجلس الأمن خرقتها اسرائيل جميعاً .

ـ لقد يأس العدو هذه المرة بعد أن راوده الأمل مرات ومرات فى أى مكسب ولو كان دعائياً يستر إراقة ماء الوجه من هزيمته أمامكم أيها الرجال :

ـ مبروك هزيمة العدو أمامنا فى الاسماعيلية وأمام رجال السويس .

ـ كلا .. هلموا للتجمع حتى نجعل مقامه بيننا فى البر الغربى مقبرة له .

ـ إنها ولاشك مصيدة قاتلة له . لن يتحمل البقاء داخلها .

ـ هلموا إلىّ لأريكم مشهدا مثيراً .. لقد سقط الجنرال دانى قائـد الهجوم مأسوفاً على عمره وإلتاس وجهه بالوحل وانبجس دمه بمياه المستنقعات العكر .

ـ سآتيك حالاً ، وسيوا فيـك بقية الـرجال الجبـابرة قهـرة الجنرال دانى وأمثاله .. السكاكى والدهان والنورى وعلى أبو طبق وابراهيم أدهم .. الجميع هنا يحزمون أمتعتهم للتجمع عند أبو سلطان .

فابتسم المقدم الفاقد فهمى الترك وقال :

ـ مرحباً بكم .. رفاق السلاح الأعزاء . إلى اللقاء ..

ومضى وعلى ظهره سيلڤيا وعلى كتفه مدفعه الـ « آر بى جى » حيث وضعها فى العربة المدرعة ومدد ساقيها وأفرد ظهرها على الكرسى .. وتحت أقدامها كان يرقد قائد الهجوم الجنرال دانى قتيلاً بعد أن أثخنته الجراح .. كانت سيلڤيا تئن وكان الترك يقود العربة الاسرائيلية وبها مذياع مفتوح على أغنية كانت كلماتها تقول بلحن يقطر حزناً وأسى تعبر عما أصاب هؤلاء الشتات من الناس من الاحبـاط واليأس والانهيار :

الصواعق تحرق البيوت لنبيت فى العراء

والطاعنون فى السن يجلسون على لوح عائم فوق اليم

يبعثون بأفلاذ أكبادهم للسباحة عكس التيار الهاور

يبحثون عن ما ضيهم المندثر كالسراب

إنهم لا يدرون أن الريح كان عاتياً هذه المرة

وأن اليم سيبتلعهم ، والطوفان يغرقهم

فمن لنا يموسى النبى ينقذ هذه الصغار

ويعيد الحياة للغرقى ..

* * *

تمت بحمد الله

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الأيداع بدار الكتب ٨٤٦٢ /١٩٩٣

I.S.B.N. 977-01 - 3482- 7

رفاق السلاح

٤٧٥ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب